عبد المجيد لطفي

الإمام علي

رجل الإسلام المخلد

الكتاب الذي أحرز الجائزة الثالثة فى مسابقة التأليف عن أمير المؤمنين عليه السلام .

تحقيق اللجنة

قام بنفقات هذا الكتاب
الوجيه المحسن السيد حسن السيد حبيب الصراف

مطبعة النعمان النجف تلفون ٩٩٧ المسكن ٢٢٧ حي ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

الامام علي رجل الاسلام المخلد

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

مقدمة

عندما علمت بنتائج المباراة التي عقدت لوضع مؤلف عن شخصية «الامام علي» عليه السلام ، وكانت مرتبة كتابي هذا ـ الثالثة ـ لم ابتهج له كثيراً لا لأني كنت اتوقع مرتبة اعلى وانما لاعتقادي بأنه لن يكتب لمؤلفي انه يواجه الناس ، وذلك ان العادة قد جرت على طبع الكتاب الفائز بالاولية من كتب المباراة .

لذلك فان بهجتي كانت كبيرة عندما اخبرني فضيلة الأستاذ الخطيب جواد شبر بتاريخ ٤ ـ ٩ ـ ١٣٨٦ ه ان النية قد اتجهت الى طبع كتابي هذا ايضاً ، وهو ماكنت اتوق اليه منذ شرعت بكتابة اول سطر منه . وقد طلب الأستاذ متفضلا بان ماعندي من اراء وملاحظات يمكن ان تجرى على الكتاب أو تضاف اليه قبل الشروع بطبعه . فرجعت الى بعض اصوله وفصوله وامعنت النظر فيها فوجدت ان الكتاب قد اصبح

وحدة متصلة متماسكة من حيث تسلسل الاحداث والوقائع بحيث لم يعد في وسعي ان اضيف اليه جديدا الا اذا شرعت بكتابة الكتاب من جديد.. وحتى لو فعلت ذلك ماخرجت بأفضل منه - وليس هذا مدحاً للكتاب بقدر ماهو اعتراف مني بالوهن والقصور ، ذلك ان طريقة التأليف بهذا النمط وعلى هذا الاسلوب المرتبط بالحوادث والاحداث والتواريخ والامكنة يجعل الكاتب الحساس مقيداً بها غير مكترث كثيرا بجمال العفوية الصادقة والسجية المرهفة التي تتدفق بالاصالة والحرية في البيان والشرح والمواصلة والافصاح . . . وبعبارة ادق : انه كان على مثلي ان يكتب عن « امام المسلمين وحجتهم » كتاباً على غير هذا النحو وبغير هذا الاسلوب دون ارقام وتواريخ وروايات الا بقدر ماينفع التسلسل الزمني واصدار الاحكام . وفيما عدا ذلك عليه ان يكتب على السجية وتحت امالي العاطفة المنبثقة عن الاعجاب الذي له من المبررات الكافية مايبرئه من عيوب التحيز والتطفيف .. ولا ادري هل كنت سأوفق لوفعلت ذلك ام وجدتني ابحث مثلما ابحث الآن عن اعذار اخرى اداري بها الوهن والعجز عن بلوغ ماتهدف اليه النفس من كبار الآمال ! . .

وعلى كل حال فان الكتاب الآن - وهو بين ايدي القراء الكرام ، هو ملكهم ، ولهم وحدهم الحكم عليه ، فهو في الحقيقة ودون اعذار او تعلل جهد المستطاع - ومع ذلك فان ثمة ما يمكن ان يقال رداً على اسئلة محتملة الوقوع بل ان بعضها وقع بشكل جعلني اكثر خيبة ببعض الناس... فما كادت نتائج المباراة تعلن حتى سمعت وبلغني ان بعض هذا الناس قد حكموا عليّ بأسفاف لايليق بمنصف يعرف الطريق الى ضميره فغضبوا

وهجبوا ولا اقول سبوا . . . لاني كتبت فيما لايجب ان اكتب فيه ، وخضت مايجب ان يخوض فيه غيري ! فتساءلت وما زلت اتساءل ، ولا يزال تساؤلي قائما دون جواب :

« لماذا كان عليّ الاّ اخوض او اشترك في مثل هذه المباراة !

ما الذي لايجعلني مؤهلاً لذلك ؟ ما الذي يجعل الموضوع بعيداً عن ادراكي وفهمي وتحليلي ونزاهة حكمي ؟ . . ماالذي يجعل كتابة «السيرة» بعيدة عن كتابة « القصة والرواية » ! ؟

وحين لااجد جوابا عادلاً من هؤلاء وهؤلاء وهم قلة والحمد لله اجدني على كثير من الحق في ان اجيب دونماتلكؤ فأقول ـ انني اشتركت في هذه المباراة لان موضوعها وهو الكلام عن شخصية من المع واسطع الشخصيات الاسلامية قد استهواني ولم يكن هذا اعتباطاً او دون جذور وسابقة في المودة والاعجاب . . . فأنا طوال هذه الاعوام التي تخطت الستين عشت « صاحب عقيدة » وقد دفعتني دون استغراب الى الاعجاب العميق بصاحبه عقيدة ارفع واسمى ، عرفه عبر تاريخ اضطربت فيه مرحلة رائعة انبثقت منها بداية جديدة لمجتمع انساني جديد مبشر بالعدالة والحرية والمساواة بين الناس فتشبثت به واحببته لانه كان لساناً وسناناً للاسلام .

سنان ما ابتل الا بدم ظالم او جائر او منافق او عدو متكبر وجبار متغطرس . ولسان مانطق الا بالحق وبما يقر العدل ويقيمه بين الناس .

فخلال تجوال المرء قارءً باحثاً مستنتجاً ممحصاً في مظان التاريخ وغضونه لابد انه واجد لنفسه بطلا في مراحل ذلك التاريخ ، ولقد وجدت بطلي بكـــل حرية فاذا هو بطل اجمع على عظمة بطولته كــل احرار العالم

والمنصفين طـوال الحقب التي اعقبت استشهاده في سبيل عقيدته الرفيعة .

لو أنني ذكرت المبررات التي جعلتني على هذا المقدار من الاعجاب بهذا البطل العظيم المخلد بامجاده ـ لاعدت كثيرا من فصول هذا الكتاب ، لذلك رأيت ان اكتفي بما قات وهو أن عقيدة « الامام علي » عليه السلام وهو حامل ارفع واسمى عقيدة في مسرى التاريخ الاسلامي هي التي جعلتنى على هذا المقدار من القرب منه والاعجاب به والالتفاف حول نهجه وسيرته ما استطعت .

لقد عاش الامام بطلاً لانه عرف حقيقة الاسلام وحملها « عقيدة » ماحاد عنها او تهاون او تهادن او تراجع ، شربها طفلاً ويافعاً ، وحملها شاباً وكهلاً وسقط في سبيلها شيخاً شهيداً مخضب الناصية مشقوق الجبين . . .

وبعد فان مصدر عظمة الامام تكمن في هذا الجوهر وفي هذه الاصالة التي عاشها طوال ايام حياته متحديا خضم العواصف ومضطرب الغايات التي بدلت آراء وتصرفات الكثيرين من معاصريه من رجال الطبقة الأولى وهو ثابت شامخ بطلاً كأول يوم عرفت فيه بطولته .

ان كثيرا من الآراء والاحكام التي اصدرها واقرها الامام وجعل منها منهجاً وسيرة لحياته ودعوة مستمدة الاصول من روح الاسلام وجوهر رسالته والتي صارت من اروع امجاد الاسلام في تصدره حضارة انسانية جديدة ـ تظهر اليوم باثواب وانماط جديدة يكبر لها الناس ويهللون ، في حين لو قورنت مع المبادىء الاسلامية التي جلا جوهرها « الامام » وصقل حواشيها وثبت حدودها لوجد هو الاسبق في ادراك وتعريف الواجب والمسؤولية : واجب الفرد ومسؤولية الحاكم . ولوجد انه كان

ارحب صدرا في تقبل اقسى انواع النقد وفي الأخذ بحكم الشورى قبل الف ونيف من السنين . . . فما يخطط اليوم ويكتب ويشرح وتوضع فيه المتون والشروح عن العدالة الاجتماعية وحق الرعية على الحاكم في ضمان العدالة والطمأنينة ورغد العيش وكفالة الشيخوخة والعجز والمرض يقف، قميئاً هزيلاً امام ما أقره الامام في حياته وماعمل به واستمده من فيض الاسلام ونبعه الثر الفياض .

فهذا اذن هو السبب الحقيقي لاعجابي واقبالي على الاشتراك في تلك المباراة التي كان من ثمارها هذا الكتاب اجهر به دون حذر من احد او زلفى الى احد فان حظي بالقبول من كرام القوم فتلك بغيتي ولايضرني بعد ذلك ماقاله وما سيقوله عني اللئام من الناس؟

بغداد في ـ ١٢ رمضان المبارك ١٣٨٦ هـ

المصادف ـ : ٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩٦٦ م

عبد المجيد لطفي

تمهيد

عبر التاريخ الاسلامي الطويل المتموج بالفتوحات والامجاد ونشر رسالة الاسلام ، تبرز شخصية شامخة وكأنها شعلة أضيئت لتنير طريق العدالة لجميع الناس .

ومع ان هذا التأريخ الذي قطع مرحلة عظيمة في طريق الانسانية بما نفخ فيها من روح الحق والعدالة والمساواة بين الناس وإقامة حياة مكفولة لكل من انضوى تحت لواء الاسلام ، اقول مع ان هذا التاريخ قد حفل بعدد كبير من الابطال والشيوخ والحكماء والمفكرين الاحرار ، فان تلك الشخصية البارزة كانت في المقدمة ابداً وفي المكان الأرفع منه .

ان الباحث المدقق لمسرى التاريخ الاسلامي ، وحتى القارىء البسيط يستطيع تمييز تلك الشخصية لمالها من سمات وملامح واضحة ، وتلكم هي شخصية الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، فهو بحق احد الاعمدة الشامخة التي حملت صرح المجد الاسلامي في استهلاله المليء بالجهاد والحروب والكروب وامتحان الأنفس الصابرة .

فمن يدرس حياته ، ويتأمل جهاده وصبره وترفعه عن مطامع الناس وعرض الحيــاة الدنيا ، ومن يواصل النظر في حيــاة بعض معـاصريه والمتألبين على حطام الأرض يرى بكل وضوح الفارق الكبير بينه وبينهم بتلك القوة الروحية التي لم تبرحه فكتبت له الظفر بكل فضيلة في الحياة وكل ذكرى عبقة في الممات .

وعندي ان عمق (العقيدة) وقوتها ورسوخها في نفس الامام جعلت منه ماصار اليه من بطولة الكف واللسان والخلق ، وبما نبغ فيه من كريم السجايا ورائع الخصال . فكان في كل ذلك ارادة باسلة ماتراجعت في ازمة ولم تكتف بالقول الذي لايجدى مع من لا يجدى معه الا السيف .

ان مرد اعجابي بالامام هو هذا الذي لايزال المع مافي حياته وسيرته وشيخوخته المضرجة بالدماء ، اي « عقيدته » الراسخة التي حملته على الذود عنها وحمل تبعاتها للامتداد بها على رسالة الاسلام في غيرما تردد او احجام او مهاونة . وقد ترتب عليه منذ البداية مواجهة صارمة قاسية ومنكدة للظالمين والفاسقين والمنافقين والمرتدين الى جاهلية جشعة تعيش في فوارق الطبقات وتريد الحياة دشة لينة لها على حساب عرق ودماء العبيد والمضطهدين وعلى حق الآخرين في الحياة وكسبهم وحقهم فيما يكسبون

وطبيعي ـ منذ البداية ـ وقـد تصدى لهؤلاء وأخذ على نفسه العمـل لجعل مباديء الاسلام تطبيقاً عملياً يأخذ طابعه في حياة الناس ، ويبدل مافيها من شرور بما جاء به الاسلام من صلاح وخير ، عرف انه ينازل شر الدواهي المتأصلة في كثير من القلوب والنفوس وتلك هي الاثرة والطمع والاستعلاء والاستكثار .

وكان طبيعياً ان يجعل من نفسه القدوة ويكون المقياس في امتحان عسير يواجه به الناس فكان خير قدوة وارفع مثل واعدل ميزان وبهذا الميزان وضع اعمال الناس وقاس تصرفاتهم وذهب الى تكييفها بمقتضى الحقوق والواجبات للدين الجديد . ولقد طبق مقياسه المثل لجماع شخصيته في حياته الخاصة وفي بيئته مع اهله وبنيه وعشيرته وصحبه واخدانه . . . ثم في حكمه على ماعرض عليه وماعرض له وفي يده حق المسلمين وسلطانهم . . .

ان افضل دراسة لحياة العظماء ان يكتب الباحث عنهم كل ما فيهم : ماكان لهم او كان عليهم ، فهم مهما ارتفعت اقدارهم ومواهبهم بشر . .

ولكن ماالعمل مع حياة الامام علي وقد استحصلها نظيفة براقة استقطبت حولها مع الزمن كل كريمة من الخصال ، ومدتها روافد نبيلة بالطهر الدائم والقوة المستمدة من صنايع رسول الله ؟ . فكيف يجد المرء في مثل تلك الحياة مثلبة يعيب صاحبها عليها وقد اوقفها مروضة على كل ماهو خير وطيب وعادل ؟ !

كلما درست حياة الامام وانتهيت من مصدر الى آخر وجدتني سأخرج بكتاب ملؤه المديح والثناء ، حتى انني ترددت اكثر من مرة في المضي فيه ، فما اكثر ماسيقال من جهلة القوم او المتعصبين من قبيح القول ورديء الحكم ! . . ولكن كان عليّ ازاء مخاوفي ، حق التاريخ ان ينشر المرة بعد الاخرى بكيفيات تجعل للباحث حق الحكم على الحوادث والاشياء من غير تطفيف بالحقائق . . فثمة حياة كبيرة حافلة بألوانه

متعددة مبرأة من العيوب وتلك هي اولى مصادر عظمتها .

فكيف ينفذ الناقد الى نقد وقد طبق الامام مقياساً دقيقاً من العدل والشرف والزهد على نفسه قبل كل أحد ؟ . . وماذا يقول حتى الناقد الغالي في رجل عرف الحياة وبلواها ومساوئها واسواءها واختار خيار مافي الحياة من العدل والصدق والحكمة والشجاعة وما تستقطب هذه المزايا حولها من فضائل غيرها !

واذ لايجد المؤرخ المغرض مايمكن ان ينفث فيه سمه عبر تلك الحياة الرائعة يذهب الى ارك ما يمكن ان يذهب اليه عاقل وهو أن الامام لم يكن رجل سياسة ! واذا كان قد عرف الحكمة فلم يعرف الدهاء ، اي بواضح القول : انه لم يكن مداهناً وهو اول مقتضيات السياسة الدنيوية والاستئثار برضا الخاصة من الطامعين والمستبدين على حساب المستضعفين والمجاهدين في سبيل لقمة العيش في عرض هذه الحياة . . .

وبعبارة اخرى : ان الامام لم يعرف الدهاء لانه عرف جوهر الرسالة الاسلامية وعرف فيها رسالة جديدة قويمة ذات مباديء واضحة وانسانية مبشرة بالعدل والمساواة وبحرية الفرد وحقه ، فإذا لم يعمل لوضع مباديء تلك الرسالة موضع التطبيق ولم يقم عالما جديدا طبقا لتلك المباديء فلم يكن قد عمل شيئاً من اجل بسط تلك المباديء والمد في نشرها وتعميمها . . . وعندئذ لايبقى لذي فضل فضل ممن حف حول تلك الرسالة وقاسى من اجلها كل مايقاسي الاحرار المجددون المبشرون بالحق والعدل وكرامة الانسان الذي كرمه الله .

لقد كانت مباديء الاسلام من الوضوح بحيث لابد لها ان تصطدم

المرة بعد الاخرى بذوي المطامع والرئاسة والشيوخ والكبراء والسادات لتقف بهم عند حد وتضعهم في صف واحد مع عبيدهم ، بل أن تقدم عبيدهم ومواليهم عليهم اذا كانوا احسن عملاً !

ان ايمان الامام علي عليه السلام بهـذه الحقيقة جعل وجدانه مرتبطاً بشكل متكامل بمسؤولية عظيمة تهون ازاءها كل تضحية ، فوطن نفسه على تحملها وبذل راحته وحياته سخية من اجل البلوغ بها الى مقاصدها . ولولم يكن كذلك ، ولولم يفعل ذلك ، لو سار في الطريق التي سار فيها غيره لصار اكثر دهاءاً من كل من عرف بالدهاء . . .

ان الدهاء نوع من الخبث والمكايدة والاجتراء على الحق في سبيل الاستئثار بالحكم والبقاء فيه وهوعمل من اعمال الجشع والدنيوية المكابرة... الدهاء حيلة وتطفيف وتضليل ونكران وتنكر لكل قيمة او حقيقة عندما لاتكون في صف من يوصف بالدهاء . . . وقد كان الامام ارفع من ان يكون حمال جميع تلك المساويء والاحابيل والمكر ليطلق عليه لقب الدهاء فيكون بين الدهاة . . !

لقد كان الامام مبصراً وهذا ارفع درجات الذكاء والحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً . فالحكمة تعمل عمل الدهاء وتأتى معظم الاحيان بما هو أبهر من نتائجه دون ان يأثم الحكيم المبصر او يتفسق او يجور او يخرج على شريعة عادلة شريفة اولى غاياتها : اقامة العدل بين الناس . . .

لقد كان الامام شجاعاً وليس في هذا مراء وهي شجاعة عريضة الصيت معززة بمواقف بطولية ومشاهد معروفة ، ومن كان شجاعاً ترفع

عن الدنايا لان من اسباب الشجاعة ثقة الشجـاع بنفسه والثقة بالنفس تقتضي مستلزمات دوامها بمدها بكل مايزينها ويبقيها سليمة الجوهر في طوفان العروض !

واذ يحاول بعض الكتاب والمؤرخين تجريده مما سموه بالدهاء فانما لينتهوا الى انه لم يكن مؤهلاً لتولي أمر المسلمين بعد رسول الله ، وربـما يريدون بذلك ان يوحوا لمن يقرأ لهم : ان الامام لم يكن رجل دولة او سياسة ، مستدلين بذلك بما رافق خلافته من قلق واضطراب وحروب ، ولوانصفوا وعدلوا في حكمهـم لوجدوا ان الامام قد وضع امام تبعة ثقيلة القيت على عاتقه بعد أن أثقلت بامور ومخلفات كثيرة ازعجت المسلمين وجعلت بعضهم يحن الى جاهليته وشركه مفضلا اياها على الاسلام الذي دخل فيه مؤملاً مرحباً بما في دعوته من نبل وكرم وعدل وقد حجب معظم ذلك عنه !

والحقيقة : لو أن الامام كان طامعاً بالحكم من اجل لذة الحكم لاحتفظ به بأيسر السبل ولـكن ادناها الى سخط الله . واذ ذاك كان عليه ان يغمض عينيه عن كل ماكان يكره ويجانب رسالة الله ، فكيف به وقد ملأته الحمية لتقويم كل مااعوج او انحرف أو أهمل !

ولكنه عرف الخلافة استمراراً لمباديء الدين الجديد ومضياً فيه اكثر فأكثر وابعد فأبعد دون مهاونة او مهادنة على حساب الجنوح بها الى غير سبيلها ! . .

لقد عرف الامام ان امتداد الاسلام ليس في الرقعة التي تبسط عليها القوة سلطانها حسب ، بل في ترسيخ جذوره وامتداد عدله ونقائه مـع

امتداد رقعته ، لان اهمال ذلك كان يعود على حملة الرسالة الاسلامية في منابت نشوئها بكثير من الضرر ، بل ان ذلك قد وقع فعلا بما احدثت نعمة الفتح من بطر واسترخاء ، رأينا ذلك باوضح الوجوه في خلافة الامام نفسه والناس يقعدون عن نصرته في ما يدعوهم اليه ، او قتال يلزمهم به ، أو خروج لصد عدوان يهددهم في دينهم ووطنهم ، فهل كان ذلك لضعف في دهاء الامام ايضاً ؟ كلا الا اذا جردنا انفسنا من الحكم بالعدل .. فلقد بلغت كثير من النفوس حدود البطر والكسل والعناد والخشونة وما يسبغه البطر والكسل من مساوي - عندما بلغت الخلافة امير المؤمنين .

فكان عليه التقويم اولا وتطبيق حدود الله باوسع ماجاء به الكتاب ، وكان هذا يعنى مواجهة الاقوياء وهم ظالمون في الاعم الغالب ومن حولهم رهط يؤمنون بهم وهم ظالمون • ومن حولهم وقدامهم عصبية قبلية سرعان ماعادت متكبرة متماسكة في الاثم والعدوان . . وازاء مطامع الرؤساء وتفاخر الانساب والارومات ، والمجتمع في قلق يومئذ بين مفاهيمه الروحية التي بشر بها الاسلام ولما يدخل الايمان في قلوب بعضهم وبين تقاليده القديمة وما صبت روافد الفتح عليه من خير في النعمة وجديد في الحياة والاخلاق والملاذ - كان الامام يقف وحيداً عدته ايمانه وشجاعته وثباته على الحق .

لقد واجه الامام اذن في تلك الحلبة المكتظة بمطامع الدنيا ورغبات الرؤساء وجشع الاغنياء والسادة من ملاك البلاد والعباد والرقاب هنا وهناك مايشبه البداية المظلمة المخيفة الشرهة التي واجه بها الرسول المجتمع العربي في مطلع الرسالة .

وكان هذا يعني ان يكابد الامام مثل ما كابد الرسول في ابلاغ الرسالة ونشرها . وامض من ذلك كان عليه حماية شريعة جديدة مبشرة بالعدل بل قائمة عليه ، والعدل الذي بشر به الاسلام كان يحد من سلطان الاقوياء ويجردهم من كل ماليس هو لهم اولا حق لهم فيه . . .

لقد انضحت ملامح الطبقات في المرحلة التي بلغت فيها الخلافة امير المؤمنين وصارت اليه - باوضح واقسى ملامحها وتقاطيعها فبقي الفقراء فقراء الى حد الادقاع والشظف ، والعبيد عبيداً أرقاء باوسع ماعرفت العبودية التي يحملها الجوع والخوف على الهوان والطاعة ، بينما وقف في الجانب الآخر الولاة والعمال والرؤساء ومن دار في مدارهم ومشى في ركابهم ووالاهم بالزلفى والملق ليكسب جاهاً او يصيب غنيمة دون حق له فيها !

ونحن سنرى بقليل من البحث والانصاف مصداق مانقول في هذه الناحية حتى لتمتليء نفوسنا حسرة وخيبة من ذلك ، ونحن اذ ذاك على قرب من الرسالة وحرارتها وقوتها حين نرى - مثلا - رجلا من كبار المسلمين مثل « يعلى بن منبه » وهو عامل عثمان على اليمن يفر منها وهو يحمل معه مال المسلمين ، ويجرد بيت المال كله في صنعاء ويختص به ويهرب الى مكة فيشارك ببعض هذا المال المسروق في اثم شق في الاسلام شقاً واسعاً رهيباً على مدى الدهور ، وكلف المسلمين عشرة آلاف قتيل وضعف هذا من الجرحى والمشوهين في معركة الجمل في البصرة ! مستحلا مال المسلمين لنفسه مسروقاً في صرفه على هواه وهو المؤتمن عليه ، والانفاق من ذلك المال المستباح على تجهيز حملة يقاتل فيه امير المؤمنين خارجاً عليه

دون وجه من حق او دلالة من دين او اسلام او من مروءة !

وعشرات من امثال هذا الرجل الكبير المهاب المؤتمن ! يتدارسون الأمر الواقع او الذي سيقع بين الامام ومعاوية ويوازنون ؛ ليس في العدل في اي من الجانبين للانضواء تحت لوائه بل بما يعود عليهم بنفع دنيوي وبما يطفيء من سورة الجشع وجوع النفس الامارة بالسوء ؛ والى مافي الارض من حطام وما بين ايدي الحاكمين من مال !

حتى اذا رأى النهازون في كل دلو وبئر - وبعضهم اقطاب ومحل صدارة في الاسلام - المغنم عند معاوية هربوا من صفوف الامام وتسللوا بذرائع تدنو من الكفر ليكونوا حيث تلوح لهم الدنيا رشوة تبذلها كف ليس لها حق فيما تفعل باموال المسلمين وحقوق اليتامى والأرامل . بل ان بعضهم يستعجل المغنم والاثرة والمكانة مسبقا ليتخذ له مكاناً في باطل الشام قبل ان يكون الحكم لها جوراً وافتئاتاً واغتصاباً . . .

ان المرء ليحار وهو يمسك بالقلم كيف يكتب كل هذا ، وكيف يذكر اسماء جليلة لها في مشاهد الاسلام مواقف بطولة وفداء ، وكيف يصف تلك الزمرة الصالحة التقية وبعضها مبشرة بالجنة ! ! وهي تقف موقفاً ادنى الى الكفر ان لم يكن الكفر نفسه ؟ !

بل ان الباحث المنصف والمؤرخ الذي يرتفع عن نزوات الطمع وبدوات الطبع وخلافات الرأي وآراء المحبين والقالين ؛ ليجد نفسه احياناً امام قرار ملحّ وهو ان ينفض يده مما اعتزم عليه لئلا يحدث من جديد شيئاً يأباه . . .

وباعتقادي ان تاريخ الاسلام لمن اراد ان يكتبه كتابة ممحصة

دقيقة ، ويحكم على احداثه وحكامه بحرية وعدل ، ان ينتظر جيلين على الأقل فيكتب في ظل حرية فكرية مصانة لايصاب في ظلها من يقول الحق بمكروه أو أذية او دنية . ذلك ان ركاماً كثيفاً من الرماد والتراب والحقد والتعصب والكذب ومايجر كل ذلك من مساوى تغطي على كثير من الحقائق الهامة في تاريخ الاسلام حتى اذا ماظهرت انامل جريئة تنزع تلك الظلال الكثيفة عن تلك الحقائق المطموسة او المشوهة او المهملة احترقت انامله واصابته السهام في كل ناحية !

اقول : في ذلك المجتمع الذي فسد فيه كثير من الولاة ، وتولى الولاية والعمالة ورقابة بيت المال من لم يكن لذلك وهذا اهلا ، وفي عهد عادت فيه العصبيات القبلية ومطامع الرئاسة المحلية ، وفي عهد تسرب فيه الى الاسلام كثير من تحلل الاقوام المغلوبة . . في اوج ذلك القلق والتشبث الفردي الضيق باسباب النجاح ، بلغت الخلافة امير المؤمنين .. وصلته وهو غير آبه لفرط ماقاسى ومالقي من عقوق وهموم ، بلغت اليه ملحة وهو متعب غاية التعب مما اصاب المسلمين بعد مقتل الخليفة وتفرق الكلمة وتنازع الامر بين القادمين من الامصار يريدون خليفة يقيم حدود الله مبتدئاً بتقويم عوج استطال ظله وظلم استشرى شره وجوره فلا يجدون ذلك ، في غمرة ذلك الفزع والهياج وما يشبه الثورة العارمة الا في شخص الامام وقد دخل بيته متبعداً عن الضجة الدامية ما استطاع مسدلا من دونه السدل والابواب ، فيقتحمون عليه عزلته ويأخذونه بالرجاء والملاينة والتوسل تارة ، وبالتهديد والوعيد اخرى ، ويمضون به الى المسجد

يبايعونه فيه ، فيقبل المهاجرون ويقبل الانصار واهل الامصار على بيعة الامام وهم يلقون على عاتقه كل تلك الضجة القائمة والقلق المنشور .

وماذا يصنع الامام غير ان يرضى حقناً للدماء وتهدئة لثائرة الانفس وبث الطمأنينة في قلوب أهل المدينة وقد اطبق الوافدون من الامصار على مداخلها ومخارجها بالرماح والسيوف !

لقد كان الامام جديراً بالمركز الذي وضع فيه فلم يكن من يصلح لها او يصلح الحال او يخفق البلوى سواه ، بما عرف به من حكمة وشجاعة ، ومن عدل واستقامة ، ومن صبر واناة . . لو اتيح له من الوقت القليل مايكفي لتحقيق ذلك فلقد اجتمع في الإمام خير مايمكن ان يجمع الدهر في إنسان : صلابة في العقيدة وفقه في الدين وقوة في الذراع لمصاولة المتصدين للحق . . . سيف في اليمين ونور المعرفة في الجبين ولسان فصيح للحق مبين .

وبهذا الزاد من الايمان والتقوى والقوة والمثابرة حمل الرجل العظيم كل مشكلات العالم الاسلامي وبلواه في تلك الرقعة من الارض ليواجه منها الظلم والانحراف والقسوة والفساد ، ثم ينتهي نهاية دامية مجللة بمجد مخلد ، ويرقد في صفوف الابرار المخلدين . . .

* * *

اذن فالمعركة في مستهل خلافة الامام كانت بين الصفاء : صفاء الاسلام وعدله ونزوعه نزعات الخير والحق والبساطة وما فيها من قوة وجمال ، وبين الدهاء : دهاء معاوية ، ومافي الدهاء من كل مايجانب الحق والعدل ، وكل مايشرد الحر ويقيم الزنيم ، وكل مايبخس الكريم ويعظم اللئيم!

كان في صف الامام الخاص من المسلمين ، من القراء والمفسرين والشجعان من الصحابة الاولين ، وفي صف معاوية جلاوزة تلقنوا العدوان وشربوه واوقفوا حياتهم على طاعة طامع غير عادل . . . طامع بالامارة من دون حق وسابقة ، بل بالمكر والكيد والمال والافتراء والخروج على الخليفة بالشر والفرقة والفساد .

اذن فقد كان في صف الامام المجادلة الحرة وما يشبه (ديمقراطية) اليوم مجابهة الامام بما يحب ويكره ، بل حتى اكراهه على مايريدون ولا يريـــد ويرون ولايرى والرأي الأصوب الى جانبـــه ، والحكمة فى ما يقترح فلا يطاع ، ويقسر على التراجع في محل الإقدام ، وعلى قبول التحكيم في مالايجوز فيه تحكيم مع وجود خليفة له السلطان عـلى البتّ في الامور واقامة العدل وتبيان حدود الاسلام . . .

وفي صفوف معاوية مقاتلون يركعون للدرهم يطرحه عليهم بسخاء يشترى به دماءهم رخيصة ، ويزج بهم لقتال المسلمين فيضعهم في مواجهة جيش خليفة المسلمين وهو عامل معزول ، في حين يرضخ بمذلة لمطامع الروم وأطماع البيزنطيين ، فيردهم بالجزية والرشوة والهدايا والمصانعة والمداهنة ليضع قوته في مواجهة خليفة المسلمين ، بدلا من يجد في جند الخليفة قوة لقوته لرد الروم واعلاء كلمة المسلمين وشوكتهم . . .

فهنا اذن الصفاء والمروءة ورسالة الاسلام . . وهناك الدهاء ! ما عرف به معاوية من دهاء ! دفعه الى ان يشترى سكزت الروم عن مهاجمة

تخوم الشام بالمال يغدقه عليهم ، وهو من مال المسلمين من مال الصدقات وحق السائل والمسكين والعاجز والضعيف ، ويجمع شوكته في مائة الف مقاتل ليغتصب الخلافة ممن آلت اليه ، ويشغله بالحروب عن اقامة العدل وبسط سلطان المسلمين على ارجاء جديدة من الارض !

مائة الف مقاتل وضعهم معاوية في مواجهة امام المسلمين وخليفتهم وعلى تخوم البلاد الاسلامية قوات الروم ومحاربتهم وصناديدهم يسكتهم بالرشاوى والجزية والاموال ، ومائة الف مقاتل جعلهم الجشع عمياً عن رؤية الحق اين هو من الطرفين . . . ومائة الف مقاتل من اهل الشام وبعض شذاذ الافاق من الفرس والروم والترك اغدق عليهم المال والعطاء حتى صاروا اشبه شيء بالآلات المسخرة بين يديه . ويكفي برهاناً لذلك ماقاله عنهم في رسالة شفوية الى امير المؤمنين بعد خلاف شجر بين رجل من اهل العراق في الشام على جمل له ، والقصة جديرة بأن تروى :

فلقد ادعى شامي رأى عراقياً على جمل له انها ناقته المسروقة ، وبلغ الامر معاوية فاستدعى الفريقين ، وحكم للشامي وارغم العراقي على رد الناقة للشامي ، فلما مضى الشامي بالناقة كما ادعى قال اعرابي العراق : حفظ الله الأمير لكنه جمل ! فقال له معاوية : إمض الى علي وقل له : انني على رأس مائة الف مقاتل لايفرقون بين الناقة والجمل ! !

افهذا هو المرشح للحكم الصالح وتولية امر المسلمين في ارجاء ارضهم التي ترامت واتسعت بالدماء والتضحيات !

افهو احق بالخلافة من الامام حتى ينازعه فيها تحت لواء مكشوف

الرياء ؟ ! واين هذا من ذاك البطل الشامخ في الاسلام وقد بذل دمه في سبيل انتشاره واتساعه وثباته . .

وهل هو فخر لحاكم اوخليفة أوأمير ان يكون له جيش من مائة الف مقاتل يقول عنهم بشهادته الصريحة انهم لا يميزون بين الناقه والجمل ! ثم يوجه كل هؤلاء لشق صف المسلمين وإضعافهم في الداخل من اجل مغنم دنيوي يطمح به رجل ليس له غير الحيلة والدهاء الذي ينحصر في صرف مال المسلمين في غير الوجه الذي بينته شريعة الاسلام ثم ينتصر بتلك الحيلة وهذا الدهاء وهذه الفتنة وتلك الخديعة حتى يتبوأ جانباً من السلطان في الشام ، ثم يتعداها ويجعل من شورى المسلمين وحقهم في إختيار امرائهم وراثية ومـلكية : فيحصرها بنسله دون حق سوى رياء الطامعين من حوله يزينون له مطامعه ويستعجلونه تثبيت ماليس لبنيه حق فيه . . .

وفي البصرة يتجهم الأفق ويثير فيها القتال جشع الطامعين في الحكم فيشدون اليها الرحال ، معززين بمرتزقة وطلاب مغانم يجمعونها عبر الطريق ينفقون عليها من المال المسروق من بيت مال المسلمين في اليمن فيقاتلون على غير حق ، ويقتلون مقابل شهيد واحد في المدينة عشرة الاف مسلم له الحق في الحياة والسعادة والبقاء قسروا او ضللوا فماتوا في غير سبيل الله ! وفارس تتفرج عبر الشط مستبشرة تتحين الفرص للإفلات من حكم الاسلام والخروج عليه في غمرة تلك المعركة الضارية بين المسلمين انفسهم !

إنه لمن غير الانصاف ، بل من قلة المروءة ، أن يحكم المرء على «علي» بالضعف وعدم السياسة ، واللجوء الى الحرب وبسط الرأي بالقوة ، والانفراد بالحكم فيما كان يبت فيه . . . فما من أحد كان يكره القتال مثل الامام مع بطولته وخفته اليه ، فلم يقاتل أحداً إلا احتج عليه بالحجة . ودعاه الى العدل والاسلام قبل أن يطوح به بالسيف . . . ولم يدخل فى خصام إلا ولسانه قبل سنانه ، فلا يحمل السيف إلا حين لا تجدي الحجة مع مكابر . . .

أما السياسة فكان الامام رائد سياسة فذة مستمدة من روح الاسلام ، ومجمل ما قام به « وضع الرجل المناسب في المكان المناسب » فى صدر الصفوف وعند مقدم الزحوف وفي رئاسة الأعمال والقضاء أو على قيمومة المال وحمايته من عبث الطامعين أو توزيعه في غير ما أمر الله به . وتلك هي علة العلل في ما صار فيه من عناء وأجر ، وفي ما كابد من هم وما استبقى لحياته الحافلة بالبطولة والحكمة من ذكرى تعطرها الأحقاب على ممر الأيام .

وبعد ـ فان رجل هذا الكتاب هو رجل الاسلام المخلد ، بطولة في السيف في ميادين القتال ، وبطولة في عبقرية الفكر وبلاغة البيان . رجل جولته على المنبر خطيباً مثل صولته في ميادين المعارك بطلاً مهيباً . تنبع حجته الناصعة من عقل واع عرف جوهر الاسلام ودقائقه وتبوء المكان الجدير بالقيادة والسيادة فيه .

فلا عجب أن يكون بطلاً في كل ميدان وامثولة رائعة في كل دقيقة عاشها من حياة البطولة والاستشهاد . فلنترك المدخل الى الباحث وراء الامثولات الرائعات في حياة هذا الرجل العظيم ·



الفصل الأول

ميلاده ، طفولته ، شبابه ، زواجه ، أثر البيئة في حياته ونشأته ، مآتي بطولته في مطلع حياته

* * *

كلما توغل المرء في دراسة شخصية الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وازداد معرفة بها ازداد إعجابه به مهما كانت نزعته ووجهته وفلسفته إلا اذا كان ضالاً مكابراً في الحق ، ولا حكم لهؤلاء ، ولا عبرة لما يقولون.

فما انتهيت من قراءة في سيرة الامام ، قديماً كان المصدر أم حديثاً إلا ووجدته امامي شامخاً وأنا عنه بعيد ، وشامخاً وأنا أتوغل أكثر فأكثر لأدنو منه .

وسبب هذا الاكبار الذي تفرضه حياته على الناس من الوضوح بمكان . فلقدعاش الإمام فترتين عصيبتين في الاسلام : اولاهما عندظهور الاسلام فجاهد مع الرسول والصحابة الأولين في المقدمة والطليعة ، وكرس الشطر الأول من حياته وهي في أوج قوتها للذود عن الاسلام وإقراره وتثبيت مبادئه بالمنطق والسيف .

وثانيهما عند ما وجد نفسه ، بعد وفاة النبي بأعوام ، أمام مسؤولية جسيمة هي الإبقاء على روح الاسلام الحقيقية الكامنة في جوهر العدالة ،

فبتلك العدالة التي كانت وما زالت من أبرز سمات ومميزات الاسلام — اعترض بقوة وشدة مطامع الكبراء والسادة والمتنفذين ، وحدّ من جشع التجار وأصحاب السطوة والسلطان هنا وهناك وحيثما امتد ظله ·

وكان طبيعياً ، وقد استرخى الزمن واستطال قليلاً منذ وفاة الرسول ، أن تعود نزعات الشر والطمع ، وتندفع وتتصاعد من جديد تيارات العصبيات القبلية بعد أن تغلبت عليها مكارم الاسلام حيناً من الزمن دون أن تقضي على جذورها ، فتتكون من جميع تلك القوى التي اعترض الاسلام مصالحها الشخصية ومراكز سياداتها الجائرة قوة متحدة على صعيد المنفعة الخاصة مع مابينها من تناقضات وخلاف ، فأخذت تدمدم ثم عصفت متحديةغير عابئة بما جاء به الكتاب .

وكان لصد تلك القوة المتزايدة المرعبة سبيلان : إما موالاتها وقبول النزعات القديمة المستجمعة على ظلم الآخرين وعلى حساب مبادىء الاسلام والاغضاء عن تطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً - أي حماية أصحاب تلك القوة التي أبت من جديد الانصياع لما جاء به الاسلام - ، وإما التصدي لها بقوة مثلها أو أكبر لإيقافها عند حد ، ثم انتزاع ما سلب اصحابها واستعادوا من سلطانهم المنزوع بقوة الاسلام ، وامتيازاتهم السابقةالتي لم يبق الاسلام منها إلا قدراً محدوداً مما لا يضر الناس !

ولم يكن الاسلام وهو بعد قوي عامر في نفوس كثيرة خلواً من ذادة عنه وحماة يستطيعون رد ما يهدده ، ولكن تلك القوى المؤمنة الخالصة الإيمان كانت بحاجة إلى لواء تقف في ظله وتحارب تحت شعاره ···

لترد للأسلام عزه في محل نشوئه ومركز اشعاعه وارجـــاع الانحراف والشذوذ الى الوضع الطبيعي الذي يـأمر به الدين . وهكذا وجـدت تلك القوى الخيرة من المسلمين رجلها ولواءها في شخصية الامام فانظمت اليه تحت لواء معارضته . ولأول مرة في التاريخ الإسلامي وجدنـا معارضة واضحة معروفة المكان ذات قيادة محنكة قوية حصيفة ، تقف وراءها تلك القوة المتنامية وقد آثروا ظل الامام وإمامته تحت دافع من حمية إسلامية عز عليها أن ترى الإسلام يذبل في مركزه وقد انتشر خبره وفضله في الآفاق • • وشيئاً فشيئـاً أخذت هذه المعارضة تهز قوى الظلم والجشع والسادة المتغطرسة ومن سار في ركاب عبوديتهم ، وانتبه التجار وتجـار الرقيق ومُلاك الأرض الى هـذه الحتمية الجديدة التي حسبوا أنهم قضوا عليها ، عندما استرجعوا ما كان قد اخذ منهم فيما مضى وما شرع لهم من حقوق وواجبات لم يكونوا مرتاحين اليها .

إذن فـإن أول مـا ميز حياة الإمام ـ تمسكه بحقيقـة الإسلام وجوهره والذود عن ذلك الى آخر لحظة في حياته واتخاذه موقف المعارض في كل شذوذ عن قواعد الدين .

فالدارس لحياة الامام على بصيرة دون تحيّز بعيداً عن مؤثرات الآراء المتضاربة حباً وعداوة ، يجد بشكل واضح أن ثمة قوة هائلة من الارادة المصممة كانت تكمن في قلبـه وتنزل عميقاً الى أبعد أبعاده . فاذا أردنـا التعرف على سر تلك الإرادة التي بقيت متحـدية صلبة واندفاعية دون وهن وخور الى النهاية ، وجب علينـا أن نعود قليلاً الى الوراء ، بعيـداً

عن بطولته شاباً مقداماً وسيداً مهاباً وشيخاً حصيفاً صريحاً . لأن سر تلك الارادة القوية المتينة ، مصدر كل صفاته الرفيعة وشجاعته المثالية ، تكمن في بذور بداية رائعة الإصالة مخصبة الحياة وجدت مكاناً صالحاً في قلب الإمام فترعرعت فيه ، لذلك نرانا ملزمين بالعودة الى الدراسة المنهجية لحياته مستهلين ذلك بالنظر والتدقيق في مؤثرات المؤثرين في حياته طفلاً ويافعاً وبطلاً . أي الكلام بعض الوقت عن أقرب الناس الى الطفل ، وهم : الأب والأم والمربي والصاحب والرفيق والعشير ، ثم البيئة البيتية والبيئة الإجتماعية . فلكل من هذا وذاك آثاره العميقة فهي تتكون منذ البداية مع أعصابه وخلاياه . فلنبدأ بالأب :

أبوه — أبو طالب ، واسمه عبد مناف ، وقد كني بإسم ابنه البكر ، وعرف به طوال حياته وبعد وفاته ، وهو ينحدر من ارومة عربية تتصل اتصالا مباشراً بعدنان ، فهو عربي عدناني .

كان شيخاً كريماً على ما في يده ، رحيماً بأهله واللائذين به ، محباً لأهل بيته وبنيه ومن عرف من أخدان وأصحاب . قال عنه النبي في شهادته عن مروءته وحبه لأهل بيته :

« كان أبو طالب يصنع الصنيع وتكون له المأدبة وكان يجمعنا على طعامه . » وفي هذا مافيه من جمال واطمئنان أن يأكل الأولاد مع كبير العائلة في جو من الاستقرار والكفاف والرضا .

ولابد ان أبا طالب كان قوي البناء متين الاساس ، فورث عنه ذلك ابناؤه ، إلا عقيلاً فقد كان عليلا وبالتالي اثيراً عند أبيه .

ولقد تجلت هـذه القوة وحدّة الشكيمة في أبناء أبـي طالب كافة ، وفي الإمام بصورة خاصة مع انه كان أصغرهم سناً ، فان ما بلغنا من مشاهده ووقائعه يرقى الى مرتبة الخوارق التي قليلا ما تقع او تتكرر مع انسان واحد .

وفي اعتقادي : ان أبا طالب كان مسلماً ومات مسلماً وإن لم يجهر بذلك للناس ، فلو لم يكن كذلك لما استمر على إحاطة النبـي بتلك الحماية المتصلة التي كلفته كثيراً من الجهد والعناء والمعاتبة ونالت حتى من بعض رزقه وهو شحيح ! .. والنبـي الذي يحميه يدعو الى دين جديد ، يسفّه الوثنية ويدعو الى تحطيم الأصنام ونبذ الأوهام ، وعبادة إله واحد دون آلهة شتى كانت العرب تتعبد لها ، توليها الطاعة وترجو منها الشفاعة !

ثمة دليل آخر على إسلام أبـي طالب وهو انه رأى مرة ولده علياً يصلي مع النبـي ، فقال لولده جعفر : صل جناح ابن عمك يا بني .

فلو لم يكن مسلماً في عقيدته مؤمناً برسالة ابن أخيه في قرارة نفسه لما شجع ولده الآخر على الدخول في الاسلام والصلاة جناح ابن عمه .

ومهما تكن الآراء متباينة متضاربة في هذا الأمر حسب أمزجة ومعتقدات أصحابها ، فانه مما لا ريب فيه أن أبا طالب قـد أسدى للاسلام يداً بيضاء وخدمة جليلة عظيمة بما بث في روح النبـي من قوة ومـا رعرع في روحه من ثقة وبما آزره في أمره بكل ما استطاع . ولقد حث أهل بيته على الدخول في الدين الإسلامي ، وكانت آخر وصيته عندما حضرته الوفاة وصيته لبنيه بأن يلتفوا حول رسالة الاسلام التي حمل لواءهـا

ودعوتها إبن عمهم .

ولقد كانت حياة أبي طالب امثولة تحتذى حقاً ، صلابة في عطف ، وإباء في تواضع ، ومجاهدة بشجاعة لكل ضروب الضيق والشظف والحاجة لجعل من يعيلهم سعداء مكفولي الحياة ، ثم فصاحة في اللسان مكنته من قول شعر كثير يفيض بالحكمة وجلال البيان . ولقد احتذى الامام حذو أبيه في كل سجاياه الطيبات ، فكان من ذلك مارأيناه فيه مما أدهشنا وأدهش كل باحث في حياته بعدل وإنصاف .

أمه —

أما امه فهي فاطمة بنت أسد ، سيدة فضلى من الهاشميات الرقيات المكانة . وهي أول هاشمية يتزوجها هاشمي ، احتضنت الرسول برفق ومودة ، وشملته بما تشمل الأم أحب أولادها اليها ، وأسلمت عن ايمان صادق ، وظلت متمسكة بإيمانها ، ورعة الى أقصى حدود الورع ومخافة الله ، ولقيت في سبيل ذلك ما لقي الأوائل من الأهل والصحابة من جور وجوع ومضايقة ومقاطعة وأذى . هاجرت مع الرسول الى المدينة فكانت الى جانبه في مدلهمات أيامه حتى توفاها الله فتجلت عندئذ مكانتها في قلب رسول الله ، فلقد أمر بحفر قبرها وهو حزين جازع وظل يرقب الحفرة حتى إذا ما تمت نزل فيها وأخذ يوسع في أطراف القبر وتوسد فيه ، ثم خرج معفراً مغرورق العينين ، وصلى عليها طويلا وكبّر سبعين مرة ، وغطاها بقميصه ، وأظهر من لواعج الحزن ما لفت نظر من كان حوله فقال يرد عجبهم :

« انها كانت من أحسن خلق الله صنيعاً بي بعد أبي طالب ، كانت

امي بعد امي التي، ولدتني ان أبا طالب كان يصنع الصنيع وتكون لـه المـأدبة وكان يجمعنا على طعامه ، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيباً فأعود فيه » .

وكان الرسول يسميها « امي » ، وكانت هي بدورهـا تفضله على أولادها في البر ، فكان أولادهـا يصبحون شعثاً رمصاً ويصبح الرسول كحيلا دهيناً ، وهكذا كانت معه كل صباح ، برة بمن معها ، كريمة في صنيعها على ما وصفها الرسول .

واذا كان النبي قد قال عنها ما تقدم فلقد بادلها مودة بمودة وعطفاً بعطف ، فكان شديد الاكبار لها ممجداً لعملها فعبر عن ذلك عملياً بما شمل به علياً منذ ولادته من رعاية وتهذيب وتدريب وحدب وحنان. فلقد أحب علياً حباً جماً منذ ولادته فطلب اليها أن تجعل مهده قرب فراشه فكان يلي أكثر تربيته : يوجره اللبن عند شربه ويحرك مهده عند نومه ويناغيه في يقظته ويحمله على صدره يطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها .

ولقد ظل هذا الحب العميق الخالص باقياً في نفسه ، فتحول بعد ذلك بركة تلاحقه بطلا وسيداً وإماماً وشهيداً ، ومدّ به صلبه ونسبه وأسباطه عبر تاريخ طويل تميز به بما قدموه للاسلام من فضل ، وما كابدوه في سبيل ذلك من أذى ، وأصابوا من استشهاد .

فهؤلاء اذن أصحاب الفضل والتوجيه في حياة الامام منذ مشرق حياته الغضة المتفتحة على الخير والصراحة والعدل . وقد اثروا فيه تأثيراً مباشراً عميقاً فكان بطلا وخطيباً وفقيهاً وحجة قارع العقول بما يفحم الباطل ويلجم المستكبر المكابر ويمضي لا يحيد عن الحق قيد أنملة .

بيئتــه :

أما بيئته الإجتماعيــة فكانت هي الاخرى ذات أثر عميق في حياتـه وفي تكوين مزاجــه ورؤية الأشياء ببصيرة مستنيرة • وهي بيئة كانت في كثير من القلق والاضطراب النفسي والمنغصات ، فهـي لذلك جدير بأن يلقي الباحث عليها نظرة مستفيضة . فلنر كيف كان المجتمع العربـي في مكة ابان نشأة الإمام ، فلقد أسهم ذلك الى حد كبير في بناء تفكيره المنطقي ومـد عقله بثقافة ذات طابع تميز بالمحـاكمة والمجادلة للوصول الى أعدل الآراء والأحكام .

لقد كانت بيئة الإمام بيئة عربية تتسم بطابع البداوة وتشيع فيها الروح القبلية التي لم تنل حضارة المدن منها شيئاً ، فكانت التقاليد المحلية والعنعنات القبلية تتلاطم في أوج قوتها داخل الحواضر كما هي خارج المدن الكبيرة وفي الفيافي والمنتجعات والمضارب ، فكل فئة تنتمي الى قبيلة تجد عندها كل مكرمة وفضيلة ولا شيء من ذلك عند سواها ، وما كان يقدمه الفرد من أعمال الشجاعة والبطولة والفروسية والكرم والنخوة لا يقدم في سبيل حق أو عدل أو خير عام ما لم يكن أولاً وأخيراً لخير القبيلة ومجدهــا وسمعتها .

ولمـا كان المال في رأس القوى فاعلية في الكسب والربح ، فكـان كسبه في المـدن في رأس كل عمل ، يتهافت النـاس على المـال فيحبونه حباً جماً . ويبذلون في سبيل جمعه ما يبذلون ، ولو كـان ذلك بعزة تهان وماء وجه يراق وكذب يؤدي الى ضرر الآخرين . فاتسع في جو

تلك المفاهيم السيئة نطاق الظلم والجشع ، وراجت تجارة الرقيق وهي تدر الكثير فراجت أسواقه ودوره وميادينه وبغاؤه . فذكور الرقيق للجهود والأعمال المضنية والأعمال الشاقة المرهقة ، واناث الرقيق للتسري واللهو في المضاجع وللمجون والفسوق وأندية الخمرة ومجالسها .

وكان طبيعياًوالحياة على ما وصفنا أو ما كانت عليه ، من طبقية حادة تضع فارقاًهو أرفع أنواع الجدر بين السادة والعبيد .والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والمستضعفين أن يشيع التذمر وتطرح الأحقاد وشعور الظلامة بذور التذمر والتمرد في قلوب الأرقاء والضعفاء وقد طغى عليهم الجور والارهاق وانعدام العدل ، فراحوا وهم على حق يتحينون الفرص لتحرير أنفسهم بشكل من أشكال التحرر ، بالقتل والهزيمة والاغتيال فردياً أول مرة ، ثم تجمع الحقد الفردي فكوّن الجماعات الساخطة المتربصة المنتظرة للمنقذ . . . ولم تكن يائسة من ذلك .

وكان الباذخون المسرفون العتاة في حصانة من نفوسهم ومراكزهم أرفع من أن يدنوا من الرقيق والخدم والصعاليك ، فلم يجشموا أنفسهم عناء البحث رحمة عن اوجاعهم وشظفهم وتعاستهم . ويبدو لي أن الظلم في المدن العربية في مكة وغيرها قد تفاقم جراء النظرة الأنانية الفردية واستغلال الأكثرية بأوسع ما يمكن من القسوة والتضييق تحت وطأة النظام الإجتماعي السائد يومئذ ، وهو كما قلنا يستقطب المال لدى القلة المستغلة المستأثرة بالجاه والسيادة وعلو المكانة ، والكثرة المساوبة من أكثر حقها في ما تعمل وتكدح فيه حتى بات الوضع المعاشي من السوء بحيث

راجت فكرة وحشية مريعة وصارت قاعدة لا يعاب الآخذ بها وهي وأد البنات للتخلص من عبء اعالتهن خشية الإملاق الذي كان يلازمهم سيما وقد كان القحط يلقي ظله الثقيل على الجزيرة العربية في أعوام متقاربة ، ويجعل الجفاف حياة الناس أصعب وأثقل من أن تطاق ، فكانت العوائل البائسة كثيرة العدد لا تجد أمامها إلا أن تخفف حملها بوأد النبات اوبيعهن للسادة المتغطرسين متعة للفراش أو خدمة ذليلة في البيوت .

وكان اليهود أصحاب مال ونفوذ في أوساط التجار والكبراء في المجتمع العربي على قلة عددهم ، وكانوا يوسعون من نفوذهم عن طريق مشاركة الشيوخ وزعماء القبائل في تجاراتهم وأعمالهم وأرباحهم حماية لقوافلهم وعقاراتهم حتى بلغ من نفوذهم ان ادخلوا في خـدمتهم وفي فراشهم كثيراً من المحصنات وبنات البيوتات المعروفة بالجاه والثراء ! ! واستخدموا الى ذلك كثيراً من الفرسان من شجعان العرب حراساً وحفظة خاصين بهم .

وكان اليهود يعرفون ان تكتل العرب على اساس رسالة إنسانية شاملة كالاسلام يكون فيه نهايتهم فكانوا يعملون دون هوادة على بث التفرقة بين القبائل العربيـة بما يطرحون بينهم من عوامل الفساد والانشقاق . فلا عجب اذا ما جوبهت رسالة الاسلام في مبدء ظهورها بتلك المقاومة العنيفة من غضب اليهود وكيدهم وفزعهم ، وما بذلوا في سبيل القضاء على الفكرة النبيلة التي بسطها الاسلام مبشراً بالعدالة والحرية الشخصية ، من مال ومؤامرات واغتيالات وإرهاب عن طريق مستأجريهم ومرتزقتهم !

اما حياتهم وطرائقهم في كسب المال فقد صارت امثولة تحتذى من

قبل الكثيرين من تجار العرب والسادة والرؤساء ، وبذلك اشتد ضغط الظلم على الناس وضاقت النفوس من ضيق عيشها ، وأخذت بوادر التذمر تطفو على السطح بعد أن كانت واهنة راقدة في القعر . . .

إذن ففي مجتمع تلك هي حالته الفكرية والروحية والمادية ، شبع الى حد التخمة للقلة ، وجوع الى حد الادقاع والمسغبة للأكثرية ، ولد الإمام علي ليرى كل ذلك . حياة الناس في جحيم من الفقر والحاجة والظلم ينزله الأقوياء بالضعفاء والأغنياء بالفقراء . وعلى دانية منه كان يرى رجلاً عظيماً ، عرفه حق المعرفة منذ بواكير طفولته ، يخرج على تلك الحياة البائسة وناس تلك الحياة الضيقه برسالة تبشرهم بالعدل تقيمه على قواعد الرحمة والإنصاف ، فتقتص من القوي للضعيف وتجعل لكل حي حقاً في المال العام المنتشر بين أيدي جامعيه بالسحت والجور والافك والمعاصي . . يؤخذ منهم زكاة وصدقة وجزية ليوزع على المحتاجين والعجزة والأرامل والمجاهدين في سبيل نشر رقعة الاسلام بالدم والنضال والجهاد والمصابرة !

ولا بد ان الامام قد اعجب بالرجل النبي ، كما اعجب قبلا بابن العم الأمين طيب السمعة والصيت ، وأخذته روعة الرسالة وبهاؤها معانيها وهو بعدحدث فتمكنت من نفسه وعلقت بقلبه فظلت عالقة به كأقوى ما يكون التعلق فعرف منه يومئذ مكانه في ذلك النبأ الكبير الذي جاء به من السماء وانزل عليه آيات مفصلات . . . وتبعاً لذلك وجد نفسه طرفاً أصيلاً في تلك الرسالة وعليه مسؤولية الذود عنها ونشرها وتطبيقها

بكل ما فيهـا من جوهر ودقائق .

وهكذا نحن نرى في سيرة الإمام منذ الطفولة محفزات ظريفة ، ربّت فيه تلك الإرادة القوية التي جعلت منه بطلا من أبطال الثورات التحررية الكبيرة في تاريخ البشرية على المدى البعيد العام ٠ ٠ ٠

***

ولد الإمام علي في الكعبـة فكان ذلك تشريفاً خُص به ، لم يسبقـه إلى ذلك سابق ، ولم يقع ذلك للاحق ، وقد تباينت الأقوال واختلفت الروايات في تحديد اليوم الذي ولد فيه ، فمن الخير لنا أن نذكر طرفاً من الآراء الواردة في ميلاده كما ورد في كتب السير والروايات الإسلامية ، فقيـل :

« ولد يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب على قول الأكثر ، وقيل ليلة الأحـد الثالث والعشرين منه ، وفي رواية : يوم الأحد سابع شعبان بعد عام الفيل بثلاثين سنة أي بعد مولد النبي بثلاثين سنة ، وقيل ثمان وعشرين وقبل النبوة باثنتى عشرة سنة ، وقيـل « بعشرين سنة » ٠ على انه من الممكن على ضوء ما تقدم ان ننتهـي الى ان ميلاده الكريم كان سنة ٦٠٠ بالحساب الميلادي بمكة كما تقدم وفي الكعبة ، فقضى طفولته فيهـا أي في مكة وكذلك صباه وجانباً من شبابه الى أن تركها مهاجراً الى المدينة وهو ابن عشرين ٠

فواضح ممـا تقدم ان الإمام وقـد انحدر من أبوين كريمي النسب وجد طفولته تنمو وتترعرع في أحضان رسول الله ، يتلقى منه النصيحة

ويتعلم منه الحكمة ، ويرى في نهجه في الحياة طريقة مثلى ونهجاً يحتذى •
وبغض النظر عن وشائج الدم والقربى فان تلك الصحبة المبكرة مع الرسول والتي امتدت الى نهاية حيـاة الرسول قد اوجدت بينهما نوعاً عميقاً من الحب الخالص والمودة يكاد يكون خاصاً بهما ، فلم تنل الأيام والأحداث من قوتها شيئاً بل أضفت عليها المرة بعد الاخرى قوة ابقى ، فظل ذلك الحب البكر ينمو ويكبر ويتسع ويتواشج كأقوى ما تتواصل وتتواشج الأرحام والصداقات والعلاقات الإنسانية ، فلا عجب اذا ما رأينا الإمام بعد ذلك يتصدى بكل ما عرف به من بسالة وإصرار لرد كل متطاول أو منحرف برسالة محمد ، متحملا في سبيل ذلك كلما لقى وكابد وتجرع ، وليس عندي من شك مرة اخرى ، ان تلك الرسالة كانت جزءاً من نفسه تلقاها صغيراً وفهمها أكثر وأوسع وأعمق كبيراً •

فكانت بالنسبة اليه ـ الى جانب قيمتها الإنسانية وروحانيتها وعفتهـا وشدتها في الحق وتنظيم امور الحياة والناس بشكل جديد عاقل وأخلاقي حميـد ، كانت تلك الرسالة الى جـــانب ذلك موضع فخر شخصي له ، ومـدار فخر لبني هاشم وبني عبـد المطلب خاصـة ولقبيلة قريش عامة ، ذلك لأن المجتمع الذي ولد فيه الإمام كما أسلفنا كـان شديد الاهتمام بالمفاخر يعمل على اصطناع أسبابها إصطناعاً ، ويجعل من توافه الأعمال خوالد يمجدهـا شعراؤه ، فكيف برسالـة عظيمة وعادلة في جوهرها ومقدماتها ونتائجها • يحملها ابن عمه ومربيه ! وكيف لايرى فيها وسط تلك البيئة التي تنزل الأمجاد منزل الاحترام والقدسية ـ مجـداً مخلدا عبر الأجيال لقومه وامته وللعرب والمسلمين عامة • • •

واذا كان رأى كل ذلك وشربه فكيف لا يوطن نفسه على كل تضحية من أجل نشرها وحمايتها ؟ !

وهكذا كان ، تحت تلك العوامل والظروف الإجتماعيـــة والفكرية ومؤثراتها ، رجـــلا فرداً في شخصيته وفي تلك الشخصية الباهرة الرصينة الواثقة ظهرت روائع أعماله ومواقفه ولم يكن ذلك بالمستغرب منه .



مظهره وصفاته

اذا كانت كتب السير والروايات قد نقلت الينا الكثير من وقائعه ومشاهده في سبيل الإسلام عرفنا منها ما قدم من جهاد طويل ، وما بذل في سبيل انتشار الإسلام واتساعه من تضحيات . فقد ترك لنا بعض معاصريه صورة حية مرسومة بعبارات دقيقة تصف كل ملامحه وقسماته ، فهي من الدقة بحيث تفوق ما تحمله صور الآلات عن الملامح والقسمات في هذه الأيام . فلنر كيف وصف الإمام على ضوء ما تركه معاصروه من صفاته وأوصافه :

« كان عليه السلام ربعة في الرجال الى القصر أقرب والى السمن ، ما هو أدعج العينين انجل ، في عينيه لين • أزج الحاجبين ،حسن الوجه من أحسن الناس وجهاً يميل الى السمرة ، كثير التبسم ، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه ، فاتىء الجبهة له حفاف من خلفه كأنه اكليل وكأن عنقه ابريق فضة ، كث اللحية ، له طية قد زانت صدره لا يغيّر شيبه ارقب عريض بين المنكبين ، لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري لا يبن عضده من ساعده ادمجت إدماجاً ، عبل الذراعين ، شثن الكفين شديد الساعد ، لآ يمسك بذراع رجل قط إلا أمسك بنفسه

فلم يستطـع أن يتنفس ، ضخم البطن ، قوي الظهر ، عريض الصـدر كثير شعره ، ضخم الكسور ، عظيم الكراديس ، غليـظ العضلات ، حسن الساقين ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، اذا مشى تكفأ ، واذا مشى إلى الحرب هرول » .

أما المغيرة فقد وصفه فقال : « انه كان عليه السلام على هيئة الأسد ، غليظاً منه ما استغلظ دقيقاً منه ما استدق » . وقد كثر وصفه بالأصلع والأجلح والأنزع والبطين ، أي كبير البطن ،

فهذه الصورة التي وصلتنا عن أوصافه الجسمانية ترينا جسماً قوياً متيناً مؤهلاً للبطولة وقـد امتلأ بقوة خارقة جعلت كثيراً من وقائعه ومشاهده وكأنها الأساطير . فعلى تلك الصورة المتقدمة نرى أن الإمام كان جميلاً مليئاً شديد السمرة واسع العينين في ذبول ، حول رأسه اكليل من الشعر ، ولابد أن تكون له هذه الأوصاف بعد الأربعين من عمره .

أما ما وصف به من كثرة التبسم فهذا في نظري دليل الرضا والإطمئنان والبشر في مواجهة الناس ومشكلات الحياة ٠ وفي بعض الروايات انه كان محباً للدعابة - يبادلها صحبه واخدانه دون ايذاء ، ولم يدم حتى هذا طويلاً فلقد وضعته الأيام في مواقف ينوء تحت أعبائها شداد الرجال وأصحاب البطولات وملأت قلبه الغصة والحرارة وهو يرى ما تعرض له الإسلام ، فغاضت الإبتسامة عن ثغره ، فروءي كثير الحزن طويل الصمت والتفرد بنفسه حتى نسب اليه بعض الجهلة الغرور والتيه والخيلاء وما هو من ذلك في شيء ، ولكنها كروب الأيام وحرص المؤمن على دينه وهو يرى مايحف

به من نكد وكيد وشر يطمس أجمل وانبل ما فيه من روح العدل !

وعلى كل حال ، فانه كان في كلتي حالتي الحزن والتبسم ، والدعابة والحزن ، والاكفهرار والانسجام مع الآخرين والتفرد بنفسه — إنساناً سوياً يقع كغيره تحت مؤثرات وظروف حياتية فيرتفع بإرادته عما هو سيء ويستبقي ما هو نافع وحسن . وقد أكسبته خليقته المجبولة على العطف وضبط النفس صفة الصبر الطويل والأناة ، وقد كلفه ذلك جهداً في بدنه فان ضبط الأعصاب عملية شاقة على كريم يمسه ما يؤلم ، وعدوان يقع عليه . وبتلك القدرة العجيبة التي استطاع أن يكبح بها جماح ثورته في الوقت المناسب كسب كثيراً من القلوب ودحر الألباء من خصومه . . . غير انه لم يكن بعيداً عن إظهار الغضب حين يرى في افلاته واسماع مظاهره قوة داحضة ، وكان غضبه حين ينفجر ، يتدفق كلاماً ليس ما هو أبلغ وأكثر حرارة ووقعاً منه . ولعل أوجع ساعات غضبه كانت في الساعات التي يأمر فلا يُلبى ، ويدعو فلا يجد لدعوته استجابة ، وأكثر هذا كان في الكوفة ، فاذا انطلق غضبه نثر من اللوم والتقريع ما ليست السياط بأوجع منه .

ومع ان قادة كثاراً صاروا في مواقف مثل مواقفه من خذل جنودهم لهم وترددهم أو جبنهم ، فلم يترك واحد منهم مثل ما ترك الإمام من خطب بليغة هي تراث فكر عميق ورجولة قليلة النظير . . . ولقد انتهت تلك المواقف التي آذته ، ومات الذين أحجموا عن نصرته ونسي من حرّض جنده على التلكؤ وبقيت كلماته . . . سياطه الموجعات غضباً ولعنة على جيل بأكمله ، تقطعه عبر الأجيال .

أما صفاته النفسية وخلقه : فلقد ترك لنا عارفوه صوراً منها كالتي تركوها في وصف شكله ومظاهر قوته وبنياته .

دخل ضرار بن حمزة الكناني على معاوية فقال له ـ صف لي علياً . . قال ـ اعفني . . قال ـ لتصفنه . . قال ـ اما اذا كان لابد من وصفه فانه كان ـ والله ـ بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته • وكان غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه . يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، وكان فينا كأحدنا : يدنينا اذا أتيناه ويجيبنا اذا سألناه ويأتينا اذا دعوناه وينبئنا اذا استنبأناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ، فإن تبسم ففي مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، فكأنني اسمعه الآن يقول : يا دنيا غري غيري ، إليّ تعرضت أم لي تشوفت ، هيهات هيهات قد بتتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق . . . » .

وصدق معاوية هذا القول فقال ـ رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك .

فمن كل هذا وذاك نقف دون عناء أمام صورة حية متكاملة للإمام في خلقه

وخلقته ، في تفكيره وفلسفته ومنهجه ومجمل أفكاره الساطعة بنور المعرفة بما في الحياة . وكأن الله حين وهبه كل ما وهب من قوة في الجسم وبسطة في العلم قد أعده لمهمة من أشق وأجلّ المهـام ، فنهض بها غير متخاذل أو متوان .

* * *

لقد تحدثنا غير قليل عن حياته وهو في نضج الرجولة وتكامل القوى الجسمية والفكريه ، في حين كنا في سبيل التحدث عن صباه فلنعـد الى ذلك .

اذا كان النبي قد شهد مولده وحمله وليداً وصحبه طفلا فهدهده وناغاه وعلمه ، فلقد كفله صبياً كفالة المحب الحادب والمربي الموّجه الثاقب . ففي سنة أصاب أهل مكة جدب شديد وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال ، فاجتمع النبي وحمزه والعباس فقرروا التخفيف عنه ، فقال أبو طالب - ما أبقيتم لي عقيلاً فخذوا من شئتم . فأخذ النبي علياً ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ العباس طالباً ، وأبقى أبو طالب عنده عقيلاً . وبذلك انتهى علي الى النبي وظل معه وملازماً له طوال حياته ، لايفارقه إلا في سرية أو على رأس وفد أو في واحدة من الأعمال التي يوليهـا إياه النبي . وبذلك كما ترى قد تكرر مع علي ما وقع للرسول في حياته، فلقد كفل أبو طالب النبي صغيراً ، فوجد النبي في كنفه حباً ورعاية وعطفاً وايثارا ، ووجد لدى فاطمة بنت أسد امومة عظيمة كان قد حرم

منها في طفولته . . . وكفل النبي علياً فوجد في كنف النبي حباً ورعاية وعطفاً ، ووجد لدى خديجة بنت خويلد امومة ورعاية وحدباً ٠

فمن هنا نرى أسباباً وضعتها الظروف في طريقهما لإنشاء هذه العلاقة الطويلة التي ما انفصم عراها في يوم من الأيام ، فكسب من تلك العلاقة والإقامة الشيء الكثير مما أخذه من النبي نصحاً وإقتداءاً فكان من ذلك مصدر القوة في عقيدته التي لازمته وجعلته على ما عرف به من ثقة وبسالة وتضحيات ، ولا غرابة في ذلك فمن ينشأ في كنف الرسول ويحمل معه أعباء يومه ونضاله ، ويعرف جوهر الرسالة من منابعها ومصادرها أولاً بأول ، ويتفهم من حاملها وصاحبها ما استعصى عليه وإنبهم لابد أن يكون كما كان وكما رأينا وكما سجل تاريخه العريض المفعم بالمشاهد والبطولات٠

ومن هنا أيضاً نصل الى نقطة دقيقة لم تدرس من قبل دراسة مستفيضة وهي الأسباب التي دعته الى أن يكون بطلا ثورياً طوال حياته ٠ وكيف ترعرعت فيه تلك الروح الثورية ؟ ونحن نستطيع الوصول الى بعض تلك العوامل التي جعلته على مثل تلك الأهبة للمضي قدماً في اندفاعته الثورية أبداً ٠ ذلك ان الإمام قد عرف الظلم ، وذاق بلوى الحاجة والضيق ، ورأى ابن عمه ومربيه يكابد مايكابد من الأقوياء والمتغطرسين المدلين بقوة بأسهم وثرائهم عليه ونفوذهم المستمد من قوة الكثرة المستضعفة ٠ فكانت تلك الأفكار والوقائع والمفارقات تقع في قلبه لتحدث فيه قوة غاضبة لا تفتر ، لتطلع في مستقبل حياته ثورة عارمة لا تلين ولا تتراجع أو تتراخى أمام مكابر مهما علت منزلته . . .

فنحن نعرف أن الرسالة الإسلامية كانت ذات طابع إصلاحي تناولت المجتمع العربي القائم يومئذ بالتشذيب والتهذيب والرد والردع مهددة بقبضة لا تلين ، امتيازات السادة والامراء والشيوخ .

ولقد كان الظلم ظاهراً للعيان في مجتمع ذلك اليوم بأبشع صوره ومظاهره ممثلا بالفقر والذل والجوع والإستبداد والإرهـــاق ، وكانت ثمة إمارات تشير الى انه ما لم تتبدل حال ذلك المجتمع الى أحسن وأفضـــل ويأخذ بالعدالة وأحكامها وبسط سلطانها ، صائر الى زوال واندثار كما زالت امم مثلها من قبل بعد أن مرت بها ظروف وأحوال مثل ظروفها وأحوالها الإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية .

لقد رأى الإمام ذلك وعرفه دون ريب وآذاه ذلك وأمضه فصار عدواً للظلم بكل أشكاله فحمل بذور ذلك ثورة ضده في يفع مبكر ، لأن الظلم كان يمسّ فيما يمس أعز الناس عليه ... فلقد كان يرى ما يلاحق الرسول من ظلم وإهانة وجور وتجاهل من سادة مكة وكبرائها وسراتها ، ومن تحديهم له باليد واللسان وبتحريض الصبيان لإعتراض طريقه وسخريتهم به وهو مؤمن به مصدق أشد وأقوى تصديق . وتنكر قريش لدعوته وهو لخيرهم ، ثم ذلك الضيق الذي كـان يكابده أبوه لإعالة اسرته الكبيرة فيخز الحزن في قلبه بينما يتجمع المال ويتصاعد عند فئة قليلة من الناس جردت نفسها من كل فضيلة تذكر ، فصارت لها السلطة والنفوذ والجاه بفضل مالٍ مجمع حراماً وبكل حيلة ومكيدة . وقد رأينا ما ترك ذلك في نفسه في تاليات أيامه عندمـــا كان يفرق المال بين مستحقيه

ولا يبقى منه لنفسه إلا أقل ممـا يصيب غيره وهو يقول - يا دنيا غري غيري . كما كان كرهه لرؤية المـال مجتمعـاً في مكان أو في أيد قليلـة مكتنزة مستغلة دفعه الى أن يزهد فيه الى حد معاداته وعدم الإطمئنان الى رؤيته إلا اذا صار في أيد هي في أشد الحاجة اليه فكان يوزعه عندما يتجمع كثيره حتى انه كان يدخل بيت المـال فيوزع ما فيه من المـال على مستحقيه ويأمر بكنسه ورشه ويصلي فيه ركعتين مؤكداً بذلك لنفسه انه لم يبق هناك مال يثقله والناس فى حاجة اليه . .

وهكذا . كـانت الظروف التي وجد فيها الإمام تتفق لتجعله رجـلاً ثورياً ومجاهداً حقيقياً ضد كل ماهو ظالم وغير إنساني ومعوق في المجتمع . . . فكيف ورسالة الإسلام بحد ذاتها وجوهرها وأغراضها الإنسانية كانت ثورة ثورة هامة هزت تلك المرحلة وناسها هزاً عنيفاً ، وأيقظتهم جميعا ، دارت كل فرد حقــه ومكانه ومكسبه وما له من حق وما عليـه من واجب . وكان لابد للداعي المخلص لها أن يكون رجل ثورة حقــاً وإلا انطفأت سورة الرغبة الطارئة واللهفة المصطنعة . ولحسن حظ الاسلام ان الإمام كان قوي الإيمان برسالته فكان تبعاً لذلك في صميم تلك الثورة التي اضطرب فيها بعد ذلك نزعات قديمة ضليلة وأهواء دنيوية جشمت المسلمين الكثير من الضيق والحروب والويلات .

كما ان الإمام رأى الظلم وهو طفل وكيف يلاحق الظلمة النبي في حياته ويطارده التهديد بالقتل عندما كان أبو طالب يحمل علياً الى فراش رسول الله ليرقد فيه حفاظاً على حياة رسول الله من عدوان قريش وتربصهم لقتله . ولم يكن الامام ـ وهو في تلك السن ـ يجهل ما يتهدده : فلقد قال لأبيه

ذات ليلة وهو ينهض ليقيم الرسول في مكانه - يا أبت إني مقتول . -
ولم يزد على ذلك شيئاً ، لأنه كان يعرف انه يذلك يحمي حياة الرسول ...
ولكنه مما ليس فيه شك ان مثل هذا الشعور المحنق لابد أن يستقر في أعماق النفس ليضيف قوة جديدة الى الغضب المكتوم اعداداً للروح الثورية التي تتجمع المرة بعد الاخرى قطرة قطرة فتوتر في النفس على مر الزمن عصب الغضب الذي كثيراً ما يفضي الى بطولات منقطعة النظير .

ثم كيف لا يكون الإمام ثورياً منذ طفولته وضد الظلم والعدوان والجشع وهو يرى أحب الناس اليه يؤذى من قبل الجهلة السفلة ، وتلاحقه العلية بالساب والخصومة البذيئة والمذام والتهم وتسميه الأبتر والساحر والمجنون ، وتلاحقه الصبية بالحجارة يقذفونه بها وبالتراب يوارون به وجهه وثيابه مقبلاً مدبراً ، حتى لم يجد الرسول بداً من الإفضاء بذلك الى علي ، بل ويطلب منه نجدته وكف أذى الصبيان عنه ، فنهض بها وصاول الصبيان وطاولهم ، وهو في مثل سنهم ، وهو واحد وهم كثار ! ! فردهم في كل مرة على أعقابهم منهزمين وهو يضرب في أعناقهم وظهورهم وأقفيتهم حتى سمي بالقضيم لشدة ضرباته القاضمة لظهورهم . . . وكيف لا تجد بذور الثورة الروحية ضد الوثنية سبيلها إلى نفسه وهو يرى أصنام قريش قائمة في الكعبة تعبد وهي حجارة ونحاس وتحاط بالقداسة والرعاية وهي خشارة وحطامة ، والنبي يحمل رسالة سماوية عظيمة فتنكر عليه ! ثم كيف لا تسلك روح الثورة الى نفسه وهو يرى كبار قريش وأبناء عمومته وأهله يصدون عن الرسول ويسهمون مع المشركين في إيذائه وظلمه وتكذيبه !

فلقد جمع النبي مرة نحواً من أربعين رجلاً من كبار قريش من خاصة أهله وعشيرته في ابتداء الدعوة الى الإسلام وأدّب لهم أبو طالب مأدبة من البر ولحم الضأن ، فلما أصابوا منه وشبعوا فاتحهم بأمره وطلب مؤازرتهم له في دعوته فلم يجبه أحد منهم الى ذلك غير الإمام الذي قال المرة بعد الاخرى : أنا يا رسول الله اؤازرك على هذا الأمر ، فقال الرسول له على ملأ من كل هؤلاء : أنت أخي ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي ٠

* * *

ولما كنا نتبع في هذا الكتاب نوعاً من التسلسل الزمني في حياة الإمام ، وقد عرفناه رضيعاً يهدهده الرسول ويحمله ويطوف به جبال مكة وشعابها ، ثم طفلاً يدرج في أحضان الرسول وحنانه ويتعلم منه ، وصبياً وحدثاً يتصدى لمن يتصدى للرسول بالأذى دون أن يبالي بكثرتهم ، فعلينا أن نتبع خط حياته هذه لنواجهه شاباً قد ملأ العشرين من عمره أو كاد ، واستوعب ما تعلم واشتد ساعده في الضرب فقويت شكيمته وصلب عوده ، مؤهلا لحياة حافلة شاء القدر أن يشحنها بكل ما ينوء به العظام من الرجال :

فاذا كان أبو طالب قد علمه الفداء للنبي صبياً حين كان ينيمه في فراش الرسول ليدرأ عنه بذلك شر المشركين ، فلقد ظهرت الحاجة مرة اخرى الى ان يكون البديل في فراش رسول الله ، ولكن هذه المرة بشكل أكثر تعرضاً للخطر وقرباً منه . ذلك ان قريشاً ائتمرت برسول الله في دار الندوة بعد أن أعياهم أمره وازدادت دعوته عند بعض الناس

قبولا ، فانتهوا في ذلك المؤتمر الى قرار اغتياله وهو في فراشه ، فاختاروا رجلا شجاعاً من كل قبيلة من قبائلهم العشر لينهضوا بذلك الأمر ، فاذا نفذوه ضاع دمه في القبائل ورضي قومه بالدية • وقد علم الرسول بهذا ، فدعى اليه علياً وأخبره بما علم وقال له ـ « اوحى إلي ربي ان اهجر دار قومي وأنطلق الى غار ثور تحت ليلتي هذه ، وأن آمرك بالمبيت على فراشي ليخفي بمبيتك عليهم أمري ، واشتمل ببردي الحضرمي. » ثم ضمه الى صدره باكياً مودعاً ، واستودعه ما يجب أن يرد من الأمانات الى أهلها ثم يلحق به الى المدينة بأهله .

وليس من ريب عندي في ان تلك الليلة كانت ليلة قاسية بطيئة على رسول الله وعلى الإمام وعلى المسلمين الذين أذن الرسول لهم بالهجرة الى المدينة تخلصاً من إيذاء المشركين لهم إيذاءاً بلغ من العنف والقسوة حداً لم يعد يطاق !

وانتظر الفتيان الليل : رسول الله ليتسلل في جنح الظلام الى غار ثور ، وعلي وقد اشتمل ببرد الرسول الحضرمي الأخضر •وطناً نفسه على المبيت في فراش الرسول ، ليوهم المؤتمرين ويخدعهم ، ويحول دون ملاحقتهم النبي والبحث عن مكمنه ، ومن حول الدار عشرة من صناديد قريش يطوفون حولها غادين رائحين ، يتحينون الفرصة ليقطعوه إرباً إرباً بسيوفهم ، مشاركين في ذلك جميعاً . ونجا الرسول من كيدهم وترك الدار في الجنح الأول من الليل وذهب الى غار ثور ، ورقد الامام في فراش النبي منتظراً في كل دقيقة ضربة سيف أو نصل خنجر يؤدي بحياته .

وأشك ان عيناً قد اغمضت هنا أو هناك في تلك الليلة الليلاء! وأخيراً طلع الفجر كما يطلع كل يوم ، وضاق الرجال بطول الإنتظار ، دون أن يبلوا غليلهم من دم النبي ، فأخذوا طريقهم إلى الدار بعد أن حصبوا فراشه بالحجارة وهم يظنون أن النبي نائم فيه ٠

دخلوا الحجرة يتقدمهم خالد بن الوليد مشهراً سيفه وهو في عنفوان قوته وجاهليته ، واتجه الى فراش النبي لينزل به الضربة القاضية وينهي الأمر الذي طال انتظاره ! .

فما ذا يمكن أن يفعل الإمام ؟ . . هل يقف ويتلقى الطعنات ؟ هل تخيفه الكثرة وقد سدت عليه مدخل الحجرة ؟ ان شيئاً من هذا لم يدر في خلد الإمام دون شك فلقد انتفض ليواجه الجمع المتكبر المدل بزهو انتصار غير واقع ، فكان أول ما عمل أن أمسك بيد خالد واعتصر كفه حتى انتزع منها السيف وشد به عليهم ، فهربوا الى ظاهر الدار وهو يلاحقهم ، فلما رأوه وعرفوه قالوا : إنا لم نردك ، فما فعل صاحبك ؟ قال ـ لا علم لي به . فانفضوا عنه يجرون أذيال الخيبة ٠

* * *

وجاء دور المهمة الاخرى التي كلفه بها النبي وهي أن يعيد الأمانات المودعة اليه الى أصحابها ، وان يقوم بذلك علانية ، فأقام منادياً بالأبطح صباح مساء أصحاب الودائع ليأخذوها منه ، فعل ذلك في وقت توترت فيه الأعصاب وثارت ضد النبي لنجاته من كيدهم وفشلهم في قتله . ٠

فلما انتهي من ذلك كان عليه أن ينتظر كتـابـاً من رسول الله ٠ وجاء الكتاب مع أبي واقد الليثي ، فتأهب الإمـام للأمر . وكان ذلك عبء جديداً مما كان عليه القيام به ، وكان عليــه أن يترك مكة في وقت من أشد الأوقات حرجاً وتضييقاً علي المسلمين ، سيما وقــد تركها بعضهم متسللين وحداناً وفي قطع من الليل سالكين سبل الأمان والبعد عن طريق المشركين . اما هو فكان عليه أن يحمـل الى المدينة نساء الرسول وأهلـه وفيهم إبنته فاطمـة الزهراء ومن شاء الهجرة من آل هاشم ومن ضعاف المؤمنين. فأعد عدته لذلك فاستقام ركبه من عدة رواحل ، خرج بها جهاراً نهاراً في موكب مشهود :

كان في الركب الذي يسوقه : فاطمة الزهراء وامه فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب وايمن ابن ام أيمن مولى رسول الله وأبو واقد الليثي الذي جاء بالكتاب .

وفي الطريق رأى الإمام الليثي يستحث المطي ويستعجلها المسير فعز عليه أن يرى النسوة في مشقة من ذلك . . . كان أبو واقد خائفاً وكان همه أن يبتعد عن مشارف مكة ، لكن الإمام لم يجد مع ذلك إلا أن يطلب اليه الأناة والتخفيف رحمة بمن في الركب من النسوة . .

وصدقت هواجس ابي واقد فظهرت كوكبة من الفرســان تريدهم ، فلقد عز على قريش أن يتحداها فتى من بني هاشم في العشرين من عمره فيخرج بأهــل النبي جهرة في ركب طويل وكأنه يتحداهم جميعاً ، فندبوا لملاقاته ورده وقتلة ثمانيه من فوارسهم على رأسهم « جناح » وهو

مولى لـ « حرب بن امية » ، وكان أشدهم بأساً وشدة وحقداً على الإمام ، وكان الامام حين رأى مقدمهم طلب إناخة الإبل واستعد لمواجهتهم وهو راجل وهم فرسان ، هو وحده في ملاقاتهم وهم ثمانية . وكان أمـام إمتحان عسير ، لأن تلك المعركة كانت اولى معاركه ونزالاته الفعلية .

وإذ اقترب « جناح » منه محنقاً ، بعد ما هذر وتقول وشتم وهجـا وتكبر ، أهوى على الامام بضربة عاصفة من سيفه ، فراغ الامـام عن الضربة وضرب « جناحـاً » على عاتقه فقـده حتى وصل السيف الى كتف الفرس !

ولابد انه فعل ذلك بسرعة ومهارة خلال اللحظة التي انحنى فيها جناح بضربته نحو الامام ، وقبل أن يعتدل بعد افلات ضربته .. ثم شد بعد ذلك على أصحابه وصاولهم حتى انهزموا تاركين وراءهم بطل مقدمتهم جناحاً . وواصل الركب سيره الطويل .

ونريد أن نقف قليلا على هذه المعركة لأنها الأولى التي باشر فيهـا القتال وبشكل غير متكافيء من حيث العدد وظرف المعركة . لقد كان الامام قوي البنية متين العضل كالأسد تركيباً كما جاء في وصف مظهره وأحواله فيما سلف ، ولابد للقوي أن يبرع في فن من فنون إظهار القوة ، فلم يكن غريباً ان يختار الامام لقوته ميادين القتال . وأرى ان الامـام قد انصرف غير قليل الى التمرس والمران على فنون القتـال وهو يافع ، فبرع فيه وهو شاب ، فان طبيعة الحياة تقتضي أن يكون بطلا لسببين :

١ ـ ان البطولة في القتال كانت واحدة من أبرز مايميز الرجل ويمجده

ويضعه في المكـان اللائق من الرفعة والمنزلة والاحترام ، ولمـا كان الامام طموحاً مترفعاً عن الخمول والذل والاهمال فكان لابد له ان يوطن نفسه على نيل البطولة ، فنالها بحق وكسب ما يستحق من إحترام •

٢ ـ ان حيـاة الرسول ـ وهو من أحب الناس اليه ـ كانت مهددة بالقتل والاغتيال والعدوان ، وقد عرف الامام ذلك طفلا ، فكان لابد أن يكون الى جانبه يحميه وليكون جديراً بهذه الحماية كان عليـه أن يكون بطلا ، وهكذا كان .

فاذا كـانت تلك المعركة هي اولى معاركه كما تقول كتب السيرة والروايات وما جاء عن ذلك في بعض خطبه ، فمما لا شك فيه انه كان قد اختبر قوته وشـدة بأسه قبل ذلك في مران طويل واقتنـع من كفايته ومقدرته على التصدي للجموع ، لذلك لم يتهيب أو يكترث عند مقـدم جناح وصحبه لمقاتلته وهو وحيد ، فشد عليهم وقهرهم وهزمهم . . . وأرى إضافة الى شجاعته الموروثة وقوته المتمرسة المهيأة المعبأة بحماس وثقة ثمة عامل نفسي حفزت في الامام بطولته : فقد كان في الركب فاطمة الزهراء ابنة الرسول وأحب الناس اليه ، وكان عليه أن يظهر بشكل من الأشكال قوته وبسالته لتطمئن اليه في مسيرته بالركب . وكـانت تلك المعركة فرصته الاولى ففاز بها بأمرين : أولهما دحر أعداء النبي من جهة ، وذيوع صيته كفارس همام من جهة اخرى فان الهاربين من بطشه لابد أن يرووا العجب ممـا شهدوا من بطولته وخفته وشجـاعته . ثانيهما حظوته باعجاب فاطمة ، فما من فتاة ترى شاباً في مثل تلك الشجاعة والبطولة إلا وتعجب به إن لم تفتتن به .

وبلغ ركب الامام المدينة بعد مسيرة طويلة شاقة اكلت منه الارض قدميه حتى قعد عن الوصول الى الرسول فخف اليه بنفسه ، واعتنقه وقبله ومسح الوجع بكفيه من قدميه ، وشكره على ما قام به في واحدة من اشد ايام المحنة على المسلمين . . .



في المدينة

لاهل المدينة فضل اي فضل على الاسلام. كانوا اوسع افقاً وارحب صدراً واسرع في تلبية دعوة النبي، فد خلوا في دين الله افواجاً. فكانت المدينة الملاذ الحصين للاسلام والمسلمين في مطلع الاسلام ومستهل انتشاره. وهكذا تفتحت الابواب أمام المهاجرين في المدينة، كما تفتحت القلوب للدين الجديد قبل ذلك. فكان المهاجرون اكثر من ضيوف في بيوت اهل المدينة، فلقد صاروا بعد زمن قصير اخوة واصهاراً. آخى الرسول بين المهاجرين والانصار، واكسب طبيعة الحياة الاجتماعية في المدينة لوناً جديدا من العلاقات المتفتحة على الصدق والشرف والتعاون والخير وارتباط الاواصر بينهم.

وكان الرسول يوم هبط المدينة قد نزل في دار أبي ايوب الانصاري فلما وصلها نزل في تلك الدار مع الرسول... واذ إستقرت احوال المهاجرين بعض الشيء وتوطدت علاقات الالفة والمودة بينهم وبين اهل المدينة من مساكنيهم اخذت المشاعر والحاجات البشرية تستيقظ في جو من الفهم والاستقرار، فعقدت زيجات شتى بين القادمين والمقيمين. وكان الامام يرى ذالك ويسمع وهو في عنفوان الشباب. في العشرين من عمره وكان كغيره يشعر بالحاجة الى الزواج، وما اسرع ماعرف الرسول ذلك فلم يجد الا ان يرحب به صهرا عندما تقدم اليه باستحياء يخطب ابنته

فاطمة ويدعو لهما بالكثير الطيب من النسل ،

وتقول بعض الروايات ان الرسول قد زوجه فاطمة حال مقدمه من مكة . وفي بعضها ان ذلك تم بعد مضي خمسة شهور من مقدمه ، في دار أبي ايوب الانصاري ، وبنى بها بعد شهرين من تركه بيت أبي ايوب .

ونحن مع القائلين بتزويجه بعد مقدمه من مكة بمدة قصيرة قد لاتعدو الخمسة الشهور ، غير ان الامام لم يدخل بها الا بعد أن تفرد بدار خاصة به استأجرها في المدينة لان الرسول حين بنى المسجد ودور نسائه فيه لم يكن قد بنى دارا للإمام . حتى اذا تم زواجه بفاطمة انجز له داراً في المسجد فانتقل اليها بأهله .

ومما هو جدير بالذكر ان الامام قد اسهم بنشاط كبير في بناء المسجد ودور النبي فكان اثقلهم حملا واسرعهم خطواً في نقل مادة البناء ، وكان كثيرا ما يهزج مستثيراً الهمم وهو يهرول ذاهباً آيباً ، معيباً من يتوانى ويتقاعس :

وقد بدت البساطة في زواج الامام بأجمل وارفع اشكال البساطة والقناعة والمسرة ، فجرت المراسيم في جو مشبع بالغبطة والطمأنينة . فلننظر في ذلك قليلا :

بعد ان وافق النبي على زواج الامام من فاطمة وقبولها له جعل صداقها خمسمائة درهم ، ولم يكن هذا المقدار من المال - وهو زهيد - متوفراً لدى الامام فباع درعاً له ، وقيل بعيراً ، او بعيراً وبعض المتاع . وعلى

كل حال فقد استطاع بثمن هذا وذاك ان يضع المبلغ بين يدى النبي ، فوزعه هكذا :

ثلث المبلغ للطيب ، وثلثه في الثياب ، وقبض قبضة كانت ثلاثاً وستين او ستاً وستين درهماً لمتاع البيت ، ودفع الباقي الى ام سلمة لتبقيه لديها . واختار لشراء الجهاز هيئة ممن ائتمنهم وعرف فيهم الكياسة وحسن الانتقاء ، فاشترت الهيئة هذا الجهاز :

١ ـ قميص بسبعة دراهم !

٢ ـ خمار بأربعة دراهم !

٣ ـ قطيعة سوداء خيبرية !

٤ ـ سرير مزمل « اي ملفوف بشريط من الخوص الملفوف » !

٥ ـ فراشان من خيش مصر حشو احدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم !

٦ ـ اربع مرافق « متكئات » من ادم الطائف حشوها « اذخر » وهو نبات طيب الرائحة !

٧ ـ ستر رقيق من الصوف !

٨ ـ حصير هجري « مما يصنع في البحرين » !

٩ ـ رحى يد !

١٠ ـ مخضب من نحاس لغسل الثياب !

١١ ـ مسقاء من ادم « قربة صغيرة » !

١٢ ـ قعب من خشب على هيئة قدح اللبن !

١٣ ـ شن للماء « وهـو قربة صغيرة عتيقه لتبريد الماء » !

١٤ ـ مطهرة وهي إناء مزفت :

١٥ ـ جرة خضراء :

١٦ ـ كيزان من خزف •

١٧ ـ نطع من ادم « اي بساط من الجلد » :

١٨ ـ عباءة قطوانية « مما كان يصنع في موضع في الكوفة » .

١٩ ـ واخيراً قربة للماء .

فلما وضع كل ذلك بين يدي الرسول تنهد وقال : اللهم بارك لقوم جل آنيتهم الخزف .

اما اعداد الامام لبيت الزوجة فاقتصر على :

١ ـ فرش حجرة النوم بالرمل الناعم .

٢ ـ نصب خشبة من حائط الى حائط .

٣ ـ اهاب كبش ومخدة ليف وضعها على الارض .

٤ ـ علق على الحائط منشفة .

٥ ـ وضع على الارض قربة ماء ومنخلاً لنخل الدقيق :

وبكل مافي البساطة من جمال ، ومافي القناعة من ثروة ، وما في الزهد من طمأنينة وسعة تم زواج عليّ بالزهراء بهذا الجهاز وذاك ! !

اما الزفاف فكان على شيء ابعث على الرضا بفضل احباء الرسول فلم

تكد تعرف ليلة الزفاف حتى اخــذ المهاجرون والانصار يبعثون بالهدايا الى النبي وهي صياع من البر والسمن وأعداد من الغنم والبقر ، فأمر النبي بطحن البر وخبزه ، وامر علياً بذبح البقر والغنم . فلما فرغوا من ذلك امر أن ينادى على رأس داره - اجيبوا رسول الله .

وبسطت النطوع في المسجد فأكل الناس وكانوا اكثر من اربعة آلاف رجل ، واقتصر طعام الوليمة عــلى الثريد من الخبز واللحم . . ولم ينس الرسول زوجاته فبعث من ذلك الطعام بصحفة الى كل واحدة منهن .

فلما كانت ليلة الزفاف أتى ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة فأركبها البغلة وامر سلمان ان يقود بها ومشى خلفها ومعه حمزة وجعفر وعقيل وبنوهاشم مشهرين سيوفهـم ، وقدامها نساء النبـي يرجزن مــع بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والانصار .

وفي دار الزوجين انفذ الرسول الى علي فدعاه ، ثم هتف بفاطمة ، فأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشماله ثم قال - اذهبا الى بيتكما ، جمع الله بينكما واصلح بالكما ، استودعكما الله . ثم اغلق عليهما الباب .

ويختلف الرواة في سنة تزوج علي بفاطمة فقيل بعد الهجرة بسنة ، وقيل بسنتين وبثلاث سنوات . على ان ابن الاثير قد انتهى الى ان زواجه قد تم بعد اثنين وعشرين شهراً من الهجرة . ونرى انه لما كان قد بنى بها بعد مرجعه من مكة فينبغي ان يكون ذلك قد وقع بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة ، لان وقعة بدر قد وقعت بعد الهجرة بمثل تلك المدة. ولا ينفي هذا أن يكون العقد قد جرى ذلك عندما كان الرسول في دار

أبي ايوب الانصاري :

وقد توّج هذا الزواج الميمون بأول مولود بكر في الأسرة عندما أطل على الحياة من ثنايا الغيب الحسن بن علي وفاطمة الزهراء ، وكان ذلك في ليلة النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وقيل سنة اثنتين ، وقيل اكثر ، ونحن اميل الى قبول التأريخ الأول ، اي ان مولده كان بعد ثلاث سنوات من الهجرة على اعتبار ان الامام قد بنى بفاطمة عند مرجعه من بدر وبدر وقعت بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة ، فاذا اضيفت الى ذلك تسعة شهور هي مدة الحمل فيكون مجموع ذلك ثمانية وعشرين شهراً .

اما الحسين عليه السلام فقد ولد مابين الثالث والخامس من شعبان سنة اربـــع من الهجرة . وفي كـل من المرتين بارك النبي فيهما سبطه بفرح وغبطة ، وزينهما باسميهما الخالدين :



الفصل الثاني

الفصل الثاني

موقف الامام في محنة المسلين في وقعة الخندق ، مركزه الاول في معركة خيبر ، نهاية اليهود كقوة ، فتح مكة ، حجة الوداع .

* * *

في هذه المرحلة في حياة الامام وهي المرحلة الثانية ، تكاملت شخصية الامام وإتضحت معالمها على نطاق واسع بعد ان خرجت خدماته الجريئة من حدودها الفردية أي تلك الحدود التي كان فيها مؤازراً لرسول الله في اعماله عندما كانت الدعوة في مستهلها ، حين بذل حياته من اجل الرسول والذود عنه بكل مافي طاقته ووسعه من حمية وشجاعة . وجاء في المرحلة الثانية دوره الكبير على نطاق اوسع واشمل واكثر تبعة ، ولقد شعر بما كان يجب ان يضطلع به فاضطلع بذلك بما عرف عنه دون تلكؤ او احجام .

كان عليه في هذه المرحلة وقد استوى الاسلام على قدميه ، وصار له في المدينة مجتمعه الخاص به وبدعوته ومبادئه ان ينهض ليس للذب عن تلك الرسالة في حدود واقعها المحدود في تلك البقعة من الارض التي استقر عليها استقراراً مكفولاً من العدوان الداخلي ، بل وجد نفسه

مسؤولاً مسؤولية كبرى عن نشر تلك الرسالة . . . وكان الامام يعرف عالميتها وشمولهـا ونزولها على الخلق كافة . وكان ذلك يتطلب امتداداً في الرقعة والأفق. فالى جانبه مسؤولية الإمام عن حماية الرسول والنهوض بكثير من شؤونه الخاصة ، ترتب عليه ، الدفـع بتلك الرسالة ابعد فأبعد والجهر بها دون خوف ! وكان ذلك يتطلب تضحية لايتحملها الا الابـطال . . . .

وعدا ذلك فلقد تبين مركز الامام هذه المرة بشكل واضح ليس بالنسبة اليه حسب ، فقد كان يعلم ذلك بصورة طيبة ولـكن بالنسبة للمسلمين في ذلك المجتمع الاسلامي الأول على صعيد المدينة ، فهو يومئذ ابن عم النبي وصهره ومحل ثقته وحبه وايثاره ، فاذا اخذنا بنظر الاعتبار ايمان الامام العميق بمآتى وحقائق تلك الرسالة وجدنا في ماوقع وحدث في الاسلام بعد ذلك ، رجلاً صامدا متحدياً لايمكن ان يقهر . . . الا بكيد او باطل او عدوان وهكذا . ولهذه الأسباب رأيناه يغلب في حقه المرة بعد الاخرى بالحيلة والمؤامرة وتكالب الطمع في المتهزين والمتنفقين وحاشية هذا وسلطان المال والقوة لذاك . والامام يومئذ وجه واضح في الاسلام ، بطل في حدود الخامسة والعشرين ، وهو الى ذلك زوج وأب وانسان يعرف مركزه في المجتمع الجديد فيدعمه بمـا يؤهله للقيادة وللمواقف الأمامية في كل بادرة تخدم الاسلام : وكان يعرف وهو في مركزه ذاك ان عليه ان يقدم ويثبت . . . ويندفع دون وهن او استخذاء مهـما كانت المثبطات والصعاب .

وكان الاسلام وهو يتطلع بعد ان وقف على قدميه الى شيئين هامين : اتساع الرقعة وانتشار الدين ، وكان هذا يستلزم في معسكره العقل والشجاعة وقدوة تجمع هذين . وقد توفرا في شخصية الامام بسخاء . بل في نظري ان وجوده لم يكن غير هذا ، وليس هذا وذاك بالشيء القليل ان يجمع المرء الى سعة العقل قوة العضل يحمل بينهما ارادة عادلة ملؤها الرحمة والعطف وكرم الوفاء .

لقد اخذ الامام عن الرسول كما اراد الرسول ان يعلمه اياه ، فأصاب من حكمة الرسول ومنهجه في حياته واعماله ويومه ما اصاب ، فتعلم وادرك ووعى ، وحكّم الفكر واستنبط مع نفسه وناقش ماسمع وما رأى فأخذ من هذا ايضاً تجربته التي رأى فيها حقائق الأمور عندما كان تحاط بجو من الغبار والظلام والافتراء . وكان ذكي الفؤاد موهوباً جعل المران والتأمل والطموح من عقله سراجاً يشع بالمعرفة والحكمة وهو بعد في سن لايصل اليها ذلك الا في القليل النادر ، وقد كان الامام من تلك القلة في التاريخ بما وهبه الله من عبقرية غذتها شجاعة جعلت بريقها يصل الى ابعد الافاق .

لقد كان الامام قوياً في ايمانه وقوياً في بدنه ، وكانت القوة يومئذ اهم مايحتاج اليه الاسلام للانتشار والانتصار ، فثمة قوة مضادة نامية وشرسة كانت تتجمع في الصف المعادي من قريش ومن وراء قريش كل المشركين من العرب يحفزهم اليهود لخنق رسالة عظيمة ذات خطر في الحياة الانسانية على امتداد مسراها ، وشأن اي شأن .

ولقد مارس الامام العقل والعضل وكان في كليهما مبرزاً متفوقاً باسلاً واميناً : ففي المعارك كانت له كبرى المشاهد وروائع البطولات والمدهشات في الثبات والاقدام عندما كان يعز الثبات على صناديد الرجال في صفه او في صف اعدائه ! وفي مجالي العقل نهض الامام بأعمال عقلية وفكرية نمت عن حصافة فذة وحسن تعرف اعجبت النبي فازداد اعتماده عليه في القضايا التي تحتاج إعمال الفكر والعقل والرصانة ، مثلما كان يعتمد عليه في المعارك والحروب ، ويدفعه للمعركة الشاقة المخوفة عندما يصد غيره عن النزال .

وكان في المعارك ـ كبيرها وصغيرها ـ يحمل اللواء ، ثم إتسع حقه بما ابداه من بطولة وسياسة حربية لنفسه ولمن كان تحت لوائه ، فصار حامل الراية . وهكذا تحول من فردية الجندي المقاتل الشجاع الى حامل لواء الرسول يضرب في الميمنة والميسرة ويقصف القلب والاجنحة ويصل حيث يفتح السيف طريقه . ويبقى منتصراً شامخاً في غير تيه او كبرياء ثم يذهب في سرية الى هنا وايفاد الى هناك يحمل وصايا النبي ورسائله يكتبها له كما كان يكتب الوحي ، فيخطب بالحجة ويباشر الجدل بالصراحة واللين والرفق ، فيؤنس مخاطبه ويهدىء ثورة الخائف ويرخي عطفه على المتكبر حتى يخجله من نفسه . وعدته الحكمة والبلاغة وسحر البيان وقوة القرآن .

فالامام في المرحلة الثانية من حياته رجل عملين كبيرين رائعي الاثر في حياة الاسلام ، فهو قائد في المعارك ، محارب بالسيف الى ان يكل

العدو وينثنى السيف فيعدله او يستبدله في المعركة الواحدة مراراً . ومفاوض لسبق مفوه في السلم ينال بالمنطق من النصر ماناله او نال مثله بالسيف .

ولقد كان على الاسلام لكي يتسع وينتشر وتكبر رقعته ان يخرج بالدعوة الى نطاق اوسع مما كان قد بلغه وصار اليه في المدينة ، بل كان منطق الواقع يقضي عليه ، ليصير الى ذلك ان يحمي اولا مجتمعه الصغير المتكاتف في المدينة وقد حاق بها الاعداء ودبروا لها كل مايؤذي ويشين وضربوا حولها نطاقاً من المقاطعة وحرمان اهلها من اولى اسباب العيش . كان نطاق المشركين يشتد على المدينة وضغطهم الاقتصادي يلقي ظلاً ثقيلاً مزعجاً على حياة المسلمين ، وكان لابد من التصدي للظلم في سبيل البقاء او انتظار النهاية المحتومة بانتهاء امر الرسالة وهي بعد غضة الاهاب . . . وهكذا كان لابد من غزو العدو والخروج اليه لفك ذلك الحصار المشدود على موارد حياتها والذي كان يهدف القضاء على الاسلام في مركز قوته إنهاكا وتجويعا ، فصار الغزو والمبادأة به امراً ضرورياً مثلما كان طبيعياً بالنسبة لتلك الحال . وكانت تجارة قريش تملأ الفيافي ، وعيرها يأتي من كل حدب وصوب ويمر محملاً بالخيرات على ملاء من الجوعى والمحاصرين . . .

وهكذا قام الاسلام مندفعاً من المدينة لاول مرة بأولى غزواته . . . وكان طبيعياً ان ترد قريش هذه القوة الجديدة المعادية التي صارت تهدد طرق تجارتها وهو عليها عزيزة . . . فبعد ان كان الاسلام ضد ديانتها وطقوسها وأوثانها صار هذه المرة ضد مكاسبها المادية !. وتجارتها وهي

قوام حياتها وسلطانها على كثير من انحاء الجزيرة العربية . . .

وبدأ الاسلام اولى غزواته . . فكانت غزوة بدر الكبرى بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة ، وكان هذا أول تجمع كثيف بعض الشيء للاسلام يقتحم به قريشاً ومن في حلفها مجابهة . . . كان المسلمون في هذه الغزوة ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ومعهم فرسان وسبعون بعيراً . وكان المشركون تسعمائة وخمسين مقاتلا يقودون معهم مئتي فرس وسبعمائة بعير

وفي هذه المعركة التي انتهت بظفر مؤزر للمسلمين وغنموا مغانم كثيرة ابلى الامام بلاء مشهودا تجلت فيها بطولته لكل عين ، وكان احد الأسباب البارزة في ما ناله المسلمون من نصر فيها ، فلقد نازل اقوى قرومهم وجندل ابسل اكباشهم وقرونهم وثل من عزة شجاعتهم وعفرهم التراب !

وارى ان ما ابداه الامام في هذه المعركة من شجاعة لانظير لها ومن جلد في القتال والصبر في المكاره كان لها مايبررها ، فاذا تركنا مانعرف عن الامام في تلك السن من قوة وشجاعة وايمان وفداء في سبيل كل مايأمر به النبي ، وجب علينا التعرف على نقطة جوهرية هامة في سبب الاندفاعة الهائلة التى تجلت فيه في خضم تلك المعركة وهي نقطة جديرة بالكلام : فأول تلك الأسباب ان المعركة كانت اولى معارك الاسلام الكبيرة التي حشد وجمع لها ما استطاع ، فكانت في نظر المسلمين وفي نظر الامام ـ من دون ريب ـ معركة بداية يمكن ان تكون بالنسبة للمسلمين معركة حاسمة اي معركة نهاية تذهب بريحهم . فكان عليه ان

يبذل منتهى ماعنده من قوة وبطولة . وعدا هذا فكان يجد نفسه أمام امتحان جديد له ، ذلك ان رسول الله قد اعطاه الراية قبل المعركة اي انه اختاره لمهمة شاقة يجب ان يكون جديراً بها ، فالراية لاتعطى الا لشجاع فائق الشجاعة مبرز في فنون الحرب والقتال . وكان عليه ان يثبت اهليته لما انتدبه اليه واوكله به فأثبت ذلك بما يرضي ويدهش . ولقد خرج من معركة بدر بأمرين هامين : اولهما ان انتصار المسلمين في بدر اعطى المسلمين ثقة جديدة بأنفسهم واكسبهم غنيمة اغنتهم بعض الوقت ، وثانيهما انه اهل نفسه أمام الجميع لما انتدبه اليه الرسول في حمل رايته ، وعقد الراية لبطل يعني اعطاؤه القيادة ولم يكن هذا بالشيء القليل ، ولم يكن قليلا بالنسبة لشاب ماتخطى الخامسة والعشرين وفي اولى واهم معارك الاسلام .

لقد قاتل الامام في تلك المعارك قتالا فيه من البسالة مالا يصدق الا لمن يراه ، وابدى من الخفة والمهارة ما اوهل شجعان المشركين وردهم عن وجهه ومقابلته • فخرج الاسلام منها بنصره الأول . . . وخرج الامام متوجاً بفخار الشهرة ولمعان الصيت كواحد من اشجع ماعرفت المعارك من شجعان .

* * *

غير انالبطولة التي ابداهاالامامفي بدر لاتقارن ببطولته في معركة «احد» . فاذا كانت معركة بدر من أجل نصر ضروري لابد من كسبه لرفع المسلمين فان معركة « احد » قد تحولت الى معركة حياة او موت قبيل

انتهائها ، وعندما كان المسلمون قاب قوسين من نصرهم الأكيد .

ولقد عرف الامام هـذه الحقيقة عندما انعكست آية النصر الى بوادر هزيمة وهي هزيمة مريعة مزقت صفوف المسلمين وشتتت جمعهم ومحقت عدداً كبيرا من شجعانهم وفرسانهم ، وما من شيء اوجع لنفس الحر من رؤية النصر يهرب منه وقد كسبه . . وكان وراء الهزيمة وفي قلب المعركة ماهو اهم من كـل شيء . . . كانت حياة الرسول نفسه فـي خطر أي خطر وقد احدق به الاعداء وانفض عنه الناصرون والحماة ، وكان قصاده كثارا وكلهم طامع بدمه وفخر القضاء عليه وقتله ، وقد انكشف موقعه لهم واثقله التعب . . . وحين تبدد شجعان المسلمين وانفضوا عن الرسول ناجين بأنفسهم صعدا الى التلال وانسلالا في الوديان والشعاب كان الامام الى جانبه . . . وكان هو آخر من تبقى له ! وأي هزيمة له او ابتعاد عنه كـان فيه القضاء المؤكد عـلى النبـي ! . فلقد كانت الكوكبة مـن الفرسان تأتي بعد الكوكبة ووجهها الرسول ، فيهب الامام لردها ودفعها مااستطاع ، ثم يعود اليه ليصبـح اكثر قرباً منه واقدر على حمايته . . . وكان بعض المسلمين الصادقين في ايمانهم وقد رأوا النبـي ولا حامي له سوى الامام ، اقبلوا يشقون طريقهـم اليه ليسهموا في الدفاع عنه ، ولـم يكن عددهم ليزيد عن اربعة هم :

عاصم بن ثابت ، وابو دجانة ، وسهل بن حنيف ، وطلحة بن عبيد الله .

وكان النبـي يترصد لاعدائه ، فاذا رآهم يقصدونه هتف بالامـام -

احمل عليهم ياعلي ! فيحمل ... وهــكذا نجا الرسول من القتل في تلك المعركة الدموية الرهيبة ...

وأرى مستدلا بكثير من الوقائع المشابهة ، ان خسارة المسلمين في تلك المعركة ، كان من الممكن ان تكون اوسع ، وحتى الى حد الابادة التامــة، لولا العادة التي كانت مستحكمة في خلائق وطبائع الطرفين ، وهي الانشغال بجمع الاسلاب عند بوادر النصر او في اول بلوغه . ولقد خسر المسلمون حربهم في « أحد » ، لانهم انشغلوا بجمع الاسلاب والغنائم ، فترك حماة الثغرة من رماة النبل مراكزهم للمشاركة في المغانم ، على خلاف ما أوصاهم به النبي ... وكذلك انشغل المشركون في أمر الغنائم والمكاسب . كل يريد منها نصيبا أوفى وقدرا أبلغ ... فلم يلاحقوا المسلمين اويطاردوهم ، فيدخلوا المدينة فاتحين منتصرين ، ويضعوا حدا لما كان يخيفهم ويقضّ مضاجعهم ...

وهكذا نحن نرى في هذه المعركة ، عِظمَ الخدمة الخالدة التي أداها الامام للاسلام والمسلمين ، بحمايته حياة رسول الله . وقد فعل ذلك أيضا حين فداه بنفسه ورقد في فراشه ليلة الغار ...

وعندي ان هذه كانت أبلغ وأهم من تلك ، ففي معركة أحد كان الرسول واضحا للعيان مكشوف المكان والاعداء كثرة كاثرة ، وقد تخلى عنه النصير والحامي الا الله الذي ابقى الامام الى جانبه حاميا منتصرا ، وأي نصر اعظم من النجاة بحياة رسول الله ؟

ويحسن بنا ـــ وقد خسر المسلمون هذه المعركة ـــ ان نلقي نظرة على ميدانها : فلقد سقط فيها أبطال مشهود لهم بالبطولة كانوا للأسلام سندا عظيما ، وكان بين من أستشهد فيها ـــ حمزة ـــ وقد مثل به الحقدُ بعــد القتل أفظع تمثيل .

عندما اكتفى المشركون بما أصابوا ، وأبتعدوا عن أرض المعركة ... كان المشهد محزنا فظيعا : فلقد تساقطت الاشلاء وتبعثرت الاجسام هنا وهناك ، وسالت الدماء تخط في كل بقعة نهاية شهيد صنديد . فخف الامام ومن بقي معه ممن ذكرنا ، فأخذوا النبي الى فم الشعب صعدا به الى مكان أمين .. وفي خلال ذلك وارض المعركة مليئة بالحفر والجثث ـ وقع الرسول في حفرة وشجت ركبته ، فرفعه منها الامام وأعين الرسول حتى بلغ مكانا أمينا يشرف على أرض المعركة ... وكان الرسول متعبا ظامئا جريح الركبة موجوع الاطراف . وبحث الامام عن ماء يغسل به جراح النبي ويبل منه ظمأه ، فلم يجد غير مهراس ، فملأ درقته من مائه وجاء به الى رسول الله ليشرب منه ، فوجد فيه ريحا فعافه .

وأخذ المسلمون بعد عودة المشركين في طريقهم الى مكة يعودون الى أرض المعركة بحثا عن قتلاهم وجرحاهم :

وفي تلك الحال من الخسارة والجراح والآلام وشعور الهزيمة والحزن، تفقد الرسول « حمزة » ولم يكن حاضرا ، ولابد انه قتيل او جريح ، فسأل عمن رآه او عرف موضعه فقال الحارث بن الصمة : انا أعرف موضعه، فأنفده ليأتي بالخبر ، ولكن الحارث لم يعد ، فقد اشفق ان ينقل نبأ مصرعه الى الرسول ، وليس مصرعه حسب ولكن بما أنزل في جسمه من مثلة وتشويه . فلما استبطأ النبي ذلك قال للامام : أطلب عمك !

وبحث الامام عن عمه فوجده وقد ُبقر بطنه عند كبده ، وجدع أنفه واذناه !

وتقول كتب التاريخ والرواية ان من فعل ذلك به هي « هند بنت عتبة » زوج أبي سفيان وأم معاوية ، فلقد كانت على ما يبدو حاقدة على

النبي واسرته وأعمامه جميعا ، وقد أعماها الحقد فلم تجد والمشركون يقصدون النبي في معركة كبيرة الا أن تغري « وحشي بن حرب » بمكافأة إن هو قتل محمدا أو عليا او حمزة ••• ووحشي هذا هو غلام « جبير بن مطعم » وكان حبشيا ، وكان يقذف بالحربة قذف الحبشة وقلّما يخطيء • فلم يقدر الا على قتل حمزة حين قذفه برمح فلم يخطئه ، ذلك ان حمزة لفرط شجاعته كان قليل الحذر في القتال : اذا التقى لايتراجع او يتوثب او يغير وجهته مالم يشق طريقه الى ما قصد ومن قصد ، فهو لذلك هدف مناسب ، قريب المنال من « رمّاح » يزج برمحه الى هدف معينِ المكان ، غير قلق اومتباعد بخفة وهكذا صرعه رمح الحبشي ، وحشي بن حرب ، وقيل أن أبا سفيان عندما رأي حمزة « صريعا » جعـل يضربه ميتا وهو يقول « ذق عقق » شامتا بمصرعه وهو يضعه بذلك في عداد العاقين !

أما القول ان هند بنت عتبة لاكت كبده فسميت آكلة الاكباد فمع احتمال أو صحة ذلك فلابد ان يكون في غير ارض المعركة ، لأن هندا كانت في مكة ولم تحضر ارض المعركة ، ولابد انها — كما أرى — فعلت ذلك في بيتها فيكون وحشي بن حرب قد حمل اليها كبد حمزة الى هناك • ودليل ذلك ان حمزة وجد مبقور البطن عند الكبد ، ولابد أن وحشيا هـذا او غيره قد فعل ذلك لانتزاع الكبد تحقيقا لرغبة هند •••

ولقد رؤى النبي في اعقاب تلك المعركة ، مهموما شديد الحزن بالغ الاسى عند دخوله المدينة ، وبعد الهزيمة التي منّي بهافي معركة « أحـد » وكانت المدينة في حزن الثاكل ، فان المعركة انتهت بادخال الفواجع الى دور أهلها بمن قتل واستشهد من رجالها وشبابها • وكانت النساء يبكين قتلاهن وهن يستقبلن جثثهم بالاهازيج والمناحات ، فعز على النبي الا يذكر حمزة

في ندبة او نواح بماهو أهله ، فطلب ان تذكر النساء حمزة ويبكينه ويهزجن بفقدانه ، فبكته البواكي بأحر الدموع حتى صار البكاء على حمزة عادة أهل المدينة في كل مأتم فيبدأون بالبكاء عليه ثم يبكون موتاهم ..

فنحن نرى — بعد تلك المعركة — ان المجتمع الاسلامي الصغير في المدينة ، وهي معقله ومنطقته الاولى ومثابة الرسول ، قد التطم بأول صدمة قوية بليغة ، فهزته وأوجعته وامضته وأدمته بما كبدته من خسائر بالارواح والاموال والكرامات .

وكان على الاسلام ان يتصدى لروح الهزيمة والمرارة التي أخذت تعصف ببعض النفوس التي لم يتوطد الاسلام فيها ، فيشجع ويواسي ويشد العزائم ، فلقد كان أمام امتحان صعب في مجتمعه الصغير المتماسك الى ذلك الحين والذي أخذت الهزيمة تفت في تماسكه . وكان للامام في تثبيت القوم وتهدئة غضب النفوس دور بما كان له من حلاوة اللسان وبلاغة المنطق وخلوص النية في المواساة ، فعاد الهدوء بذلك قليلا الى المدينة فتذرع الناس بالصبر والتأسي وانتظار ثواب الآخرة .

وليس من شك في ان الامام كان بطل المعركة الحقيقي في كلا الطرفين، فلقد قاتل في معركة أحد بما يشبه الخوارق والمعجزات ، وبذل من الحمية ماوضعه في صف الافذاذ الخالدين الذائدين عن كل ما هو عدل وجليل وحق للانسان .

ولقد تجلت في تلك المعركة خصائصه الاصلية فكان مثلا من أمثلة البطولة والجلد والمصابرة ، فأضفى بذلك على التاريخ الاسلامي مسحة من طابعه لم تمحه الاجيال .

وتلت تلك الهزيمة غزوة كان ضروريا على الاسلام ان يقوم بها وتلك هي غزوة « بني النضير » ، وبنو النضير بطن من اليهود الذين كانوا بقرب المدينة ، وكانوا قد دخلوا في حلف سلام مع النبي فنقضوه مع النبي نفسه وبشخصه . ذلك انه كان ذات مرة جالسا بجانب جدار من بيوتهم فهموا بالقاء صخرة للقضاء على حياته فأرسل يطلب اليهم الخروج من المدينة ... واذا كانوا قد وافقوا على ترك المدينة في بادىء الامر فسرعان ما نقضوا ذلك ... وكان رئيسهم الذي نقض العهد وعاد عن ترك المدينة هو « حيي بن أخطب » ،فسار اليهم الرسول بنفسه ، واعطى رايته في هذه الغزوة الامام ، ورأى النبي ان يضرب الحصار عليهم فنصب قبته في البطحاء . ولقد ظهرت شهامة الامام وغيرته على كل ما يمس الرسول في هذه الغزوة أيضا ، ذلك ان يهوديا قوي الساعد في أرسال النبال ، سدد سهما الى قبة الرسول يريد به اذىً وشرا ، فلم يهدأ بال الامام حتى وجده ، وجاء برأسه وطرحه امام رسول الله ...

وانتهى الحصار بعد قتل عدد من فرسانهم ، فأصطفى الرسول أموال بني النضير ، وقسمها بين المهاجرين الاولين . وترك بنو النضير بيوتهم جوار المدينة الى خيبر ، فأمن الرسول بذلك من كيدهم مدة من الزمن .

وخاض المسلمون بعد ذلك معركة بني المصطلق ، وفي هذه المعركة أبلى الامام — كعادته في بقية المعارك — بلاء حسنا اضفى على بطولته مزيدا من الشهرة .

وأصاب المسلمون غنائم كثيرة بينها عدد من السبايا ، وكانت من سبي الامام نفسه « جويرية بنت الحارث » ، فجاء بها الى الرسول فأعتقها وتزوجها . ولا تعتبر هذه الغزوة ذات أهمية لقصرها ، ولاقتصار المسلمين

فيها دون خسارة تذكر ، ولكنها اكتسبت أهمية تاريخية بسبب وقوع «حديث الافك » فيها ، فلقد كانت ام المؤمنين عائشة مع رسول الله في هذه الغزوة ، وقد ترك حديث الافك الكثير من الالم والاثر المحزن في قلب الرسول ، فلم يكف عن حزنه حتى برأها الله مما نسب اليها في ليلة العودة من تلك الغزوة بآية نصت على ما يجب ان ينزل بالآفكين ومن يرمون المحصنات بالافتراء والكذب ، فأقيم الحد الشرعي على من اشاع الافك عن عائشة ، وكان بينهم حسب بعض الروايات حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وعبدالله بن أبي بن ساول ... غير انه لم يقع الحد على هذا الاخير مع انه اول من أشاع الافك ، ولعل مرجع ذلك الى بأس قبيلته وحمايتهم له ... او لاختفائه بعض الوقت في بطون العشائر . ولم نشأ ذكر ذلك لولا بعضما نسب الى الامام وجب دحضه ، وهو أن الرسول — وقد أوجعه واحزنه ما اشيع ، استدعى اليه الامام واسامة بن زيد واستشارهما في فراق أهله ، فنسب بعض أعداء وخصوم الامام اليه انه قال : — « يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » . واشك في أن الامام قد اشار بمثل هذه المشورة لسبب بديهي ، وهو ان الرسول كان في مثل هذه الامور يستوحي السماء مهما طال انتظاره ، وكان ينتظر حل المشكلات العويصة عن طريق ما يوحى اليه ، عدا ان الرسول كان يؤمن فيقرارة نفسه ببراءتها مما نسب اليها ، والاستشارة في هذا الامر مهما تكن منزلة المستشار تقوم دليلا على وجود الشك والاحتمال، وهذا لميكن منه شيء في نفس الرسول الحصيف الذي لا يأخذ بالظنة والشبهةوالفرية حتى يتبين له الامر ويتضح البرهان.

ويظهر لي من ماجريات هذا الحديث الذي دار في مجتمع المدينة ، ان ما نسبالى الامام من تلك المشورة بترك عائشة ، شيء افتعلهبعض المؤرخين

ليقيموا عليه حجتهم ، في وجود اساس للجفاء الذي كان كامنا في نفس عائشة أم المؤمنين . فظهر في حربها للامام في موقعة الجمل وتأليب الناس ضده .. بينما شهدت عائشة بعد انتهاء المعركة ، شهادة عدل وحق في حق الامام ، حين قالت لمن كان معها : ان عليا من الاخيار ، وان كانت قد اعترفت بوقوع خلاف او جفاء بينهما ، مما يقع بين المرأة واحمائها ..

* * *

وهكذا كلما ثبت الاسلام في قلوب معتنقيه ، وازداد عدد من انضوى تحت لوائه ، ازدادت قوته وخطورته ، وتبعا لذلك ازداد عــداء قريش والمشركين جميعا للرسول ورسالته ، كيف لا ؟! وهو يجبّ ديانهم ، ويحطم اصنامهم ، ويهدد مراكز تجارتهم .. وكانت اليهود وقد اخرج بنو النضير من ضواحي المدينة ، وطردوا الى خيبر ، قد بدأوا بما كان منتظرا منهم ، من بث الاكاذيب واثارة الاحقاد وتكتيل المشركين ضد النبي ، بكل وسيلة ممكنة ، فلقد كان من مصلحة اليهود ان تفرّق بين القبائل قبل ظهور الاسلام ، وتعمل على دوام العنعنات بينها لتسود الفرقة بينهم فيكون لليهود مجال العيش ودوام الربح والبذخ والبقاء ..

ولــكنهم وقــد رأوا الخطر يأتيهم من جــانب الاســلام وهو يتسع وهم يضــيقون ، اخــذوا هــذه المــرة يعمــلون علــى جمــع شــتات القبائل ولو الى حين لتقف في وجه محمد ورسالته التي اخذت تتقدم هنا وهناك وتضرب اليهود وتحصرهم في خيبر ... فافلحوا فيما رموا اليه ، فدفعوا المشركين نحو المدينة بجيش كثيف من عشرة الاف مقاتل بينهم أشهر صناديد العرب المملوئين حقــدا .. وكان على المسلمين وقد علموا بذلك

وبتأهب ذلك الجيش الضخم الذي توجه الى المدينة في اكبر حملة من الاحزاب والقبائل المؤتلفة ، ان يتأهبوا هم ايضا ، وكانوا قلة وفي عسرة من المتاع والمؤونة ، وكان لا بد للقلة من حيلة ، تعتمد فيها بوجه المكثر المتجبر المقبل بخيله ورجله •• فأشار « سلمان » بحفر الخندق •• ولم تكن هذه الوسيلة من وسائل الدفاع ، معروفة في الجزيرة العربية أو كانت غير معمول بها •

وشرع أهل المدينة بحفر الخندق ، وكان عليهم ان ينجزوا ذلك في ستة ايام وكان ذلك كل ما لديهم من الوقت لحفر الخندق ، اذ كان جيش المشركين الكثيف قد خرج من مكة ، قبل اربعة أيام من شروع المسلمين بحفر الخندق. والمسافة بين مكة والمدينة عشرة ايام••• وليس من شك في ان المسلمين ، وكانوا يعرفون انهم امام معركة حاسمة هذه المرة ، هي معركة البقاء او الفناء، وكان الشجعان منهم في قلق ، فلم يكن أي تكافؤ عددي بين الفئتين ، وكانت قلوب مشاهير الفرسان ، ترتجف هلعا كلما اقترب موعد اللقاء •• وكان الامام في هذه المعركة كما في سواها ، يوطن نفسه لخوض أعنف معركة متوقعة ، فبقي على شجاعته هاشا مؤملا بالنصر ، كبير الثقة بالغد ، يعاود تراب الحفر ، ويتصبب عرقه وهو يضرب في الارض ، ويوسع في مجال الاخدود ما وسعه الامر ••• وانتهى المسلمون من ذلك • في الايام الستة التي كانت في يدهم ، وانجزوا حفر الخندق عندما لاحت طلائع الجيش الكثيف القادم من بعيد •

وما كان بوسع أهل المدينة ، حتى لو قاموا بالعمل ليل نهار ، وكان عددهم ضعف ما كان ان ينجزوا حفر الخندق ، لو كان يدور حول المدينة كلها • فلحسن الحظ ان الامر تطلب حفر الخندق ، في موضع الضعف ، من خط الدفاع عن المدينة • ذلك ان المدينة كانت محاطة في معظم اطرافها بالاشجار

والنخيل ، ودورها مشيدة بتراصف ، بينها آطام هي اشبه بالقلاع ، مبنية من المدر والحجارة ، فكان كل ذلك يؤلف سورا حصينا في معظم جوانبها. ولم يكن الخطر ليحدق بها الا من مدخلها •

والان لنواجه ارض المعركة ، وقد بلغت قريش واحزابها وحلفاؤها ، بعشرة الاف مقاتل ، مشارف المدينة ، وكلهم يأتمرون بإمرة قائدهم الاعلى « أبي سفيان صخر بن حرب بن امية » •

* * *

أقبلت قريش فنزلت بمجتمع الأسيال ، ونزلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد جانب «احد» ، وخرج الرسول الى سفح «سلع» ، وهو جبل يطل على المدينة ، فجعل سلعا خلف ظهره ، والخندق بينه وبين القوم ، فإلى حدّ ما كان المسلمون في مأمن من جوانب المدينة ، فالخندق أمامهم ، وهو المكان الوحيد الذي يمكن ان تقتحم المدينة منه ، وقد استحال على جيش المشركين عبوره ، فلم يجدوا سوى المرابطة امامها ومحاصرتها وتبادل النبال، والتراشق بالحجارة عبر الخندق ، وكانت الارض بين الخندق وسلع ، سبخاء فسيحة ، فهي ميدان صالح للكرّ والفر والطراد ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ، لان الخندق كان قد اعجز فرسان المشركين عن عبوره • لكن المسلمين لم يكونوا في مأمن من مؤخرتهم ، صحيح ان مؤخرتهم كانت تستند الى سفح « سلع » ، ولكن الخطر في الواقع كان يأتي من هناك ، فهناك كانت اليهود ، وهم ثلاثة بطون : بنو قينقاع وبنو النظير وبنو قريضة ، وكانت لهم عدتهم وفوارسهم • وكان كل من بني قينقاع وبني النضير ، قد نقضوا عهدهم مع النبي قبل معركة الخندق ، ونقضت قريظة عهدها بعد الخندق أي اثناء مرابطة قريش في مواجهة المسلمين في الجانب الآخر من الخندق ،

ولسنا في مجال التوسع في تفصيل ذلك . فكانت تلك البطون أو القوى اليهودية تؤلف خطرا على مؤخرة المسلمين من ناحية « سلع » .

واذ طال حصار المشركين للمدينة ، رأى النبي ان يغري غطفان فيصرفها عن حلف قريش ، بأن يعرض عليها ثلث ثمار المدينة ، ثم رجع عن ذلك على اثر معارضة سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، فامتد الحصار اياما أخرى .. وضاق بعض فرسان المشركين من طول البقاء وخوفا من فتور حماس من معهم فأقبلت فئة من ابطالهم لشق الحصار ، وعبور الخندق ومنازلة المسلمين أمام مدينتهم . وكان أول من عبر عمرو بن عبد ود وابنه حسل ، ومعه عكرمة ابن ابي جهل ، ونوفل بن عبدالله بن المغيرة وهبيرة بن ابي وهب ، ومنبه ابن عثمان بن عبيد العبدري ، وضرار بن الخطاب الفهري ، وقد اختاروا من الخندق موضعا ضيقا فأكرهوا خيـولهم على اجتيازه ، فلما صاروا في ميدان المعركة وعلى بوابة أو مدخل مدينة المسلمين ومعقلهم ، اخذوا يصولون ويجولون ويطلبون المبارزة والمناجزة ... وكان الامام وقد رأى موضـع الضعف من الخندق ، قصد اليه مع نفر من المسلمين ، ليسد الثغرة في وجوه غيرهم ، في الوقت الذي ازداد فيه عمرو بن عبد ود استكبارا وتحديـا للمسلمين في كافة ابطالهم ، فلما لم يخرج اليه أحد أقبل الإمام علي على النبي يستأذن في منازلة عمرو ، واذ لم يجد النبي من لبى الخروج اليه ، أذن للامام بذلك ، فباركه ودعا له بالنصر ، وهو في كل ذلك قلق عليه حزن ، وكان لهذا ما يبرره ، فان عمرو بن عبد ود ، كان فارسا معروفا بقوة البأس وشدة البطش وقوة الضرب ومتانة الساعد ، وكان يعرفه بفارس «يليل» وهو موقع اشتهر فيها بوقعة عظيمة . وكان عمرو حانقا مغضبا موتورا ، جاء ليسترد مجدا دبّ اليه الشك ، بعد ان كان قد اصيب في غزوة بدر ،

فأثنته جراحه عن المشاركة في غزوة أحد ، فكان عليه ان يثأر فيسحق ويقتل ويجندل عددا من المسلمين لارواء غليله وغضبه ، فلما أقبل الإمام نحــوه وعرفه تردد في منازلته .

كان عمرو بن عبد ود في العقد السابع من عمره والإمام في العقد الثالث، فقال عمرو بن عبد ود متصنعا الرفق والمودّة ، ارجع ! فقد كان بيني وبين ابيك خِلّة ، وما أحب ان اقتلك . فقال الإمام ! ولكني والله احب ان اقتلك ما دمت آتيا للحق . فغضب عمرو ونزل عن فرسه وأقبل على الإمام مصلتا بسيفه وهو يقول ــ اتقتلني ؟ وبدره بالسيف ونشب القتال بينهما طويلا الى ان وجد الإمام مكانا لضربته القاتلة .

وتقول الرواة انه لما رأى عكرمة وهبيرة وضرار مصرع عمرو ، وهو أشجعهم وأثبتهم جنانا ولّوا هاربين ، واقتحموا الخندق لايلوون على شيء .. وحزّ الامام رأس عمرو وجاء به الى الرسول ثم تبع المنهزمين بعد ذلك ... ويبدو لي ان الامام قد ترك جثة عمرو في مكانها ولاحق الفارين عندما فرغ من قتل عمرو ، بدليل انه ادركهم عند الخندق وهو راجل ، فقتــل « حسلا » ابن عمرو ، ولحق هبيرة فقتله ، وقتل نوفلا في الخندق . أما عكرمة وضرار فقد نجوا عن طريق عبور الخندق ، وكانت قتلة نوفل فظيعة: فلقد تورط في الخندق ولم يستطع عبوره أو تسلقه فرموه بالحجــارة ، فنادى متوسلا : « يا معشر العرب قتلة احسن من هذه » فنزل اليه الإمام فقتله في الخندق .

ولا بد من أخذ رواية اخرى في هذه المعركة بنظر الاعتبار ، فهي أثبت للحقيقة، ذلك ان الفرسان الذين جاءوا مع عمرو بن عبد ود، كانوا من شجعان العرب وفرسانهم ومن وزن عمرو ، ولو لم يكونوا كذلك لما كانوا في رفقته

في اقتحام الخندق . ومثل هؤلاء لابد ان يقاتلوا قبل ان ينهزموا أو يقتلوا . فقد خرجوا لذلك ، وهكذا نرى ان ضرار بن الخطاب وهبيرة بن ابي وهب قد تصديا للامام فقاتلهما ، ولا بد ان ذلك قد استغرق وقتا ، فإن «ضرار» قد هرب بعد حين ، وثبت له هبيرة وعاركه فارا الى ان ادرك الخندق وبذلك استطاع كل من « منبه وعكرمة وضرار » الوصول الى المعسكر ، يروون لهم خبر الواقعة وما أبداه الإمام من بطولة منقطعة النظير .

ولعل أفضل واصدق وصف لهذه المعركة ، وما كان عليه المسلمون من هلع واضطراب ، ما ورد في القرآن الكريم عنها في قوله تعالى : « ... إذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك أبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » !

فنحن نرى في هذه الآية المجسّدة لحال أهل المدينة ورجالها ، في أي موقف مهول كانوا ، وقد شاعت بينهم البلبلة والفزع ، وانبث المنافقون يؤلبون الناس على النبي ، ويكذّبون وعوده ، ويتطاولون عليه بالتهمة والملامة ، الى حد انهم وصفوا ما وعدهم الله ورسوله من النصر بوعد الغرور !! ولكن الله قد صدق وعده ، ودفع المشركين عن المدينة وردهم عنها دون قتال ، بما سلط عليهم من جو عاصف لم يشهدوا مثله عرا واكفهرارا ، وما اوقع بينهم من خلاف قبل ان يباشروا المعركة وقد اعياهم طول الحصار ، فتفرقت الاحزاب .

وعاد المشركون هكذا الى مكة ، دون ان يحققوا شيئا مما شدوا الرحال اليه ، واكتفوا من الغنيمة بالإياب « وكفى الله المؤمنين القتال » .

* * *

ان جميع الحروب والغزوات التي خاضها المسلمون ، كانت ضرورية

لتثبيت كيان المسلمين ، فهي اما : مهاجمة لفك حصار ، أو لتوسيع مجال النفوذ ، أو تصفية لجيوب شريرة قريبة من المدينة تتهددهم ويأتي منها خطر عليهم ، او لدفاع عن النفس ورد حملات المشركين ...

ولما كانت القوة في رأس ما يهاب العدو ، فكان على المسلمين ان يكونوا اقوياء ، وقد أمرهم الله بذلك ، فأوصاهم أن يعدوا لاعدائهم ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل ، يرهبونهم بها او يجلونهم عن مواقعهم .

ولما كانت للامام مواقع مشهورة في جميع تلك الغزوات والحروب ، كان علينا ان نذكرها واحدة بعد الاخرى كما فعلنا حتى الان ، لنتبين موقفه منها ومركزه فيها ، وكلها مراكز أمامية عليها تبعة النصر والهزيمة ، ومع ذلك فلم نتوسع أو نفصل ما جرى في تلك الحروب ، ونعدد من جندلهم الإمام من الابطال ومن حملة الرايات ، وما اصاب للمسلمين من غنائم واسلاب وسبايا بحد سيفه وشجاعته ، لان شرح كل صغيرة وكبيرة يتطلب المزيد من البحث والاستقصاء ويستغرق اكثر من مجلد ..

فنحن ، بعد ما تقدم ، أمام غزوة جديدة للاسلام ، ينهض بها تحت مبررات من مستلزمات واقعه يومئذ ، وهذه الغزوة هي غزوة « بني قريظة » وكان تاريخ حصولها في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

لقد مر بنا أن بني قريظة ، قد نقضت العهد الذي كان بينها وبين النبي في وقعة الخندق ، بتحريض وتشجيع من «حيي بن اخطب» سيد بني النضير .. فلما انتهت معركة الخندق ، وقفل المشركون ، وعاد النبي من سلع الى المدينة ، أُوحي اليه ان يسير الى بني قريظة ، فسار اليهم في ثلاثة الاف ، أي بجميع من كان معه في مواجهة المشركين يوم الخندق ، وفي هذه المرة كما في غيرها اعطى رايته الى الإمام ، فتقدم الجيش في ثلاثين من الخزرج ،

فلما بلغحصونهم ، سمع منهم سبابا وقذعا وهجوا للنبي ، وهم في حصونهم المنيعة وخلف جُدُرهم وأسوارهم . فعاد الإمام الى جيش المسلمين ، وطلب الى النبي ان يعسكر بعيدا عن السور ، اشفاقا عليه من سماع قذفهم وسبابهم له ، ولكن الرسول كان قد دنا من الحصن وسمع منهم الكثير من الكلمات المؤذية . فحاصرهم خمسة عشر يوما فأجهدهم الحصار ففتحوا له الابواب ...

واشك ان تكون المؤونة والذخيرة تنقصهم بحيث يظهر عليهم الخَوَر في مثل تلك المدة الوجيزة ، ولكن السبب الحقيقي على ما أرى ، يعود الى ما شهدوه من كثافة جيش المسلمين ، الذي كانوا يتوقعون ابادته في معركة الخندق مع قريش واحزابها .

وعلى هذا وجدوا جيش المسلمين الذي يحاصرهم ، في القمة من القوة والمنعة وكثافة العدد ، وأنهم لا بد ان يدركوا السور مهما طال الانتظار .. فلما فتحت الابواب لجيش المسلمين ، أرجع النبي أمرهم الى سعد بن معاذ، فحكم هذا بقتل الرجال ، وتقسيم الذرية والنساء ، وان تكون الديار للمهاجرين دون الانصار ..

رجع جيش المسلمين من هذه الغزوة منتصرا ، ومعه بنو قريظة ، وفيهم رئيسهم «كعب بناسد » ، وكان قد دخل معهم « حيي بن اخطب »رئيس بني النضير وفاءا منه لبني قريظة الذين وعدهم بالنصر ، حين شجعهم يوم الخندق على نقض العهد بينهم وبين النبي .

وبلغ المسلمون المدينة ، فصاروا في سوقها ، وخندقوا فيه خنادق ، فأمر النبي عليا نزولا على حكم سعد بن معاذ ان يضرب اعناقهم في تلك الخنادق ، فأخرج اليهود ارسالا وقتلوا وفيهم « حيي بن اخطب » رئيس

بني النضير و « كعب بن اسد » رئيس بني قريظة كما تقدم . ويختلف القول في عددهم فقيل انهم كانوا بين الستمائة والسبعمائة ، وبين الثمنمائة والتسعمائة ، وكان يقتل منهم من انبت ، أي من بلغ مبلغ الرجال .

ونرى من المناسب ان نثبت هنا محاورة قصيرة جرت بين الإمام و « حيي بن اخطب » فما كاد « حيي » يصل الى الخندق ويصبح بين يدي الإمام حتى قال — قتلة شريفة بيد شريف » .

فقال الامام — ان خيار الناس يقتلون شرارهم وشرارهم يقتلون خيارهم، فالويل لمن قتله الاخيار الاشراف ، والسعادة لمن قتله الاراذل الكفار .

قال حيي — صدقت ، لا تسلبني حلتي !..

فقال الامام — هي اهون عليّ من ذلك .

فقال حيي — سترتني سترك الله ... فقتله الامام ولم يسلبه .

* * *

وخاض الإمام معارك اخرى تالية ، كانت حملات يمكن اعتبارها حملات ضيقة، لسرعة الانتصار فيها او تسليم العدو والخصم ومنقض العهد ، وكان الامام ينتقل فيها من نصر الى آخر ، فلم يخذل فيها مرة واحدة ، ولم يقع له لواء او راية ..

واذ بلغ المسلمون ما بلغوا من القوة والمكنة ، تاقت نفوس أهل المدينة ومن فيها من المهاجرين الى مكة ، فقصدها النبي في «عمرة» ومعه ما بين الف واربعمائة والف وستمائة من المسلمين ، غير قاصدين قتالا ، وليس معهم غير السيوف في القرب ، تعبيرا عن روح المسالمة، واداء واحدة من المناسك. وكان لواؤه مع علي هذه المرة كذلك ، وقد ساق النبي هديا من سبعين بدنة.

واذ علمت قريش بمقدم المسلمين ، جمعوا لصد النبي ومنعه عن دخول مكة ، فأرسلوا خالد بن الوليد بمئتي فارس ، وكان المسلمون عند مهبط الحديبية اسفل مكة ، فكرّت عليهم خيل قريش تنذرهم بالعودة . فتراجع المسلمون حتى نزلوا مياه الحديبية وعسكروا هناك ، وتولى الامـــام صف المسلمين للقتال واعدادهم وتأمير القادة عليهم ، غير ان الله اراد للناس سلما ، واتفق الفريقان على الصلح .

فأرسلت قريش سهيل بن عمرو وجماعة معه ، للتداول في امر الصلح مع النبي ، فتوصل الفريقان الى صلح امده عشر سنوات ، وتضمنت شروط الصلح : وضع الحرب عشر سنين ، على ان يرجع المسلمون عن قصدهم ، فلا يدخلون مكة في ذلك العام ، حتى اذا كان العام القابل سمح للمسلمين بدخولها ، والبقاء فيها ثلاثة ايام ومعهم سلاح الراكب ، السيوف في القرب .. وكان ذلك يقتضي كتابة الصلح عهدا وموثقا على الطرفين يلزمان به ، فاستدعى النبي الإمام واملى عليه وثيقة الصلح ، وقد بدأها هكذا :

هذا ما صالح عليه رسول الله سهيل بن عمرو ..

فاعترض سهيل وقال — لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ، ولكن اثبت اسمك واسم ابيك ! فقال النبي للامام اكتب — هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو ...

وقد تجلت حمية الامام في هذا الموقف ، كما في غيره من المواقف ، مما يمس او يخص رسول الله ، فلقد تردد أو امتنع عن الكتابة بدون صفة الرسالة في الرسول ، حتى قيل : انه امتنع عن محوها من الوثيقة ، فطلب النبي ان يدله اين هي فمحاها بنفسه ...

واميل الى ان محوًا لم يقع في الوثيقة ، وانما كتبت اخرى خالية من

عبارة « رسول الله » ونسخة مثلها امضاها الطرفان ، فعاد المسلمون الى المدينة منتظرين العام الذي يليه •

فنحن نرى من هذا ، ان الإمام كان محل ثقة الرسول في كل شيء ، سواء كان ذلك في الحروب ومدلهمات الخطوب ، أو في مفاوضات ومداولات الصلح ، وكتابة الوثائق وارسال الكتب ••

واذا كان المسلمون قد شعروا بشيء من المضاضة والحزن ، حين ردتهم تلك الوثيقة عن « العمرة » عامهم ذاك ، فان صلح الحديبية كان عاملا من عوامل انتصار المسلمين في غزوة مكة الحاسمة دون حرب ، ذلك ان قريشا كانت قد نقضت هذا العهد سرا ، فحق للنبي ان يغزو مكة ، واهلها على غير أهبة للقتال ، مطمئنين في سرهم الى وثيقة الصلح ، فأخذوا في تلك الغزوة على حين غرة •• وكتب النصر للمسلمين • ولولا صلح الحديبية ونقض قريش للعهد سرا ، لما وجد المسلمون مبررا لدخول مكة ، فاتحين على غير ما يتوقع أهلها • فكتب لهم فيها ذلك النصر الحاسم الذي كان نقطة تحول جديدة نحو بداية موطدة منطلقة بثقة الى أمام •••

* * *

ولما كانت رسالة الاسلام عامة للبشرية كافة ، وجب على المسلمين حملها الى أبعد مدى ، وكان ذلك يتطلب جهادا متصلا ، وانتصارا متتاليا ، لاقامة كيان الاسلام على أرض صلبة مأمونة ، تكون قاعدة للخروج بالرسالة الى أبعد فأبعد • وكان عليه ليصبح على شيء من ذلك ، ان يوطد نفسه ، ويأمن مواضع الخطر على كيانه ، وكان اليهود عقبة كبيرة وخطرا دائما على هذا الكيان ، بما كان لهم من نفوذ مالي ، ومن صداقات رؤسائهم مع رؤساء

القبائل العربية ، وبما كانوا يتمتعون به من حيلة ودهاء ، وتأليب قريش وغيرها ضد المسلمين المرة بعد الاخرى ..

واذا كانوا قد اخفقوا مرة أو مرتين ، وحتى عشر مرات ، فلم يكن اليأس ليدخل قلوبهم ، فهم في عمل دائب لتقويض كيان المسلمين في سبيل البقاء على كيانهم .

ولقد ازدادت هذه الخطورة ، على اثر النكسات التي منيت بها اليهود نما كاد ظلهم ينحسر عن مواقعهم ، ويتركوا قراهم جوار المدينة . حتى تجمعوا في « خيبر » . . فكانت معقلهم الاخير ، ففيها أقوى حصونهم ، وفيها أجمل واغنى بساتينهم وزروعهم وكرومهم ونخيلهم ، وفيها تزدحم أبطالهم ، وقد اقبلوا عليها بخيلهم ورجالهم ، وشدوا من قوتها وضاعفوا من صنعتها ، فراح رؤساؤهم يكيدون للمسلمين ، بما يؤلبون عليهم سرا من قبائل العرب يملأون اكف ساداتهم بالمال ، ويغرون ابطالها بالهدايا والعطايا ، وبما يخصصون لمحالفيهم من ثمار خيبر وغلتها .

فكان السكوت على ما يدور في خيبر ، ويبنى فيها ، لايدل على عقل أو تدبير .

وهكذا وجد النبي أن على المسلمين ان يفتحوا حصون خيبر ، فجهز لذلك حملة من ألف وربعمائة مقاتل ، ولما كان الامام أرمد في تلك لاثناء ، فقد حمل الراية أحد كبار الصحابة من المهاجرين ، فعادت الحملة المرة بعد الاخرى بأخفاق وما يشبه الهزيمة والارتداد . مع ان الراية اعطيت مرارا الى انصاري ومهاجري ، فلم يجد النبي الا ان يستدعي الامام ، وينيط به مسؤولية فتح خيبر ، فمسح عينيه وباركه وبعثه على رأس الحملة الجديدة .

ويبدو لي ، ان الحملة منذ بدايتها الى يوم فتحها على يد الامام ،

دامت ثلاثة أيام ، فلقد اخفق مهاجر في النصر في اليوم الاول ، واخفق انصاري في اليوم الثاني ، فيكون الامام قد استدعي من قبل التي في اليوم الثالث ، ولابد ان رمد الامام خلال ذلك قد خفّ ، سيما وقد مسح النبي على عينيه ، وفي ذلك ما فيه من تشجيع ، ينسى المرء ما فيه من سقم وما يشعر من ضيق ومرض •

وهكذا توجه الامام نحو حصون خيبر ، التي كانت قد حوصرت قبل تلك الحملات ، وأغلقت أبوابها •ومع ذلك فاناليهود كانوا يشعرون بالزهو، فقد كشفوا المسلمين عن مواقعهم مرتين ، وخرجوا اليهم من حصونهم الى الارض العراء ، فلما حمل عليهم الامام حملة من حملاته تلك ، تراجعوا من الارض البراح الى أبواب الحصن ، وتركوا للتصـدي للمهاجمين مقاتلهم وفارسهم الاول واشجع شجعانهم وبطلهم الوحيد الذي لم يخسر في موقعة وهو « مرحـب » ، فتناثرت عنه الشجعان فشقّ صفوفهم مرعداً مزبدا مرتجزا ، وعليه من سلاح الحرب أقواه وأثقله ، وطلب المبارزة ، فلم يدم له ذلك الزهو الا قليلا ، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع الامام ، فتبادلا القتال راجزين وطال بينهما النزال لينتهي بالضربة القاضمة ، ينزلها الامام ببطـل اليهود وأقوى شجعانهم ومدار فخرهم ، فيقدّه الى موضع الحزام ويطرحه أرضاً مضرجا بدمه ••••

والآن واليهود وراء حصونهم ، كان لابد للمسلمين من فـتح خيبر واذلال اليهود في أمنع قلاعهم ، وكان أمل المسلمين في هذه الحملة قويـا وهكذا كان •

ولقد أختلفت الروايات في كيفية فتح خيبر ، ومثلما كثرت وتناقضت بتناقض الروايات والرواة ، كثر التفسير والدحض فيهـا • على اننا نستطيع

ان نرى من خلال ذلك الكثير ، الذي نقل وقيل في غزو خيبر — ملامح واضحة منها .

ذلك انها على قصرها كانت ملحمة ، تركت سجلا عريضا للبطولة على مسرى تاريخ الفتح الاسلامي ، الذي كان بداية الانطلاق والخروج من حدود الجزيرة وحواليها ، الى أبعد ما استطاعت ان تصله خيل الاسلام .

وليس عندي من شك في ان يهودا قاتلت جيش المسلمين في المرتين خارج الاسوار ، دل على ذلك أرتداد المسلمين في المرتين دون ظفر . . . وكان الامر كذلك في المرة الثالثة التي كانت فيها الحملة بقيادة الامام ، ولكن اليهود قد عادوا الى حصونهم وتركوا « مرحبا » يواجه القتال على أساس النزالات الفردية ، وكانت اليهود تعتقد انه ما من بطل يستطيع ان يقف في وجه بطلها « مرحب » .

وكانوا قد حفروا حول حصون خيبر وأسوارها ، خندقا تعلموه من واقعة الخندق ، فعبر جندهم على جسر بين باب خيبر والارض الفلاة أمامه، وارى ان حين سقط مرحب صريعا بسيف الامام ، اندفع المسلمون نحو الحصن ، يتقدمهم الامام ، وأرى ان اليهود حين دخلوا حصونهم قدتركوا جسرا لم يقطعوه ، ليعود عليه مرحب الى الحصن .. وسواء كان باب خيبر مغلقا بإحكام ، أم قد ترك في ساعة ذهول وخوض غير محكم ، فلقد كان النصر في هذه المعركة عزيزا ، وكان من أبلغ الانتصارات ، لأهمية الموقع الذي كانت فيه حصون خيبر .

واذا كان علينا ان نأخذ بوجهات النظر الاخرى ، او غير ما تقدم من الوقائع والامور ، فيجب ان نقول : ان اليهود ما كادت تعلم ان الامام على رأس جيش المسلمين هذه المرة ، حتى دخلوا الحصن واغلقوه باحكام قبل

وصول جيش المسلمين الى ميدان المعركة ، تاركين خارج الاسوار بطلا من أبطالهم هو الحارث « أخو مرحب لينازل من ينازل ، ولابد ان ذلك كان استخفافا من جانب مرحب » الذي كان يعتقد ان ليس في جيش المسلمين من هو أهل لمنازلته !!

وقد التقى الامام « بالحارث » فقتله على مشهد من مرحب ، فلما رأى ذلك ، ثارت ثائرته فترك الحصن غاضبا محنقا موتورا ، فأصطدم بالامام بمبارزة طويلة شاقة انتهت بضربة قاضية من ضربات الامام شطرته الى حد الحزام ...

ولقد كان مرحب بطلا صنديدا ، لم يعط حياته جزافا وبسهولة ، فلقد قاتل الامام مقاتلة طويلة ليس اشق واصعب منها ، فأطاح بترس الامام ، فتترس بباب قريب وظل يدافع به ويحارب الى ان صرع « مرحب » .

وعلى أساس هذه الرواية ، فان بوابة خيبر يجب ان تكون مغلقة ، او انها اغلقت بعد خروج مرحب من الحصن لمقاتلة الامام ، الذي صرع الحارث قبل ذلك . فلما صرع مرحب بسيفه الامام تقدم نحو الحصن فأعاقه الخندق فألقى الباب الذي تترس به فجعل منه جسرا على ضفتي الخندق عبر عليه المسلمون وهو في مقدمتهم .

وأرى ان الباب الذي تترس به الامام ، كان الجسر الذي عبر عليه مرحب عند خروجه من الحصن ، فبقي هكذا الى ان احتاجه الامام فأمسك به . ولابد ان يكون ترس الامام قد طرح بعيدا عنه، او طرح في الخندق ، لأن المعركة كانت تدور من حوله وعلى مقربة منه ، والا وصل اليه الامام واستعاده ، أو ان الباب كان أكثر حماية للامام من الترس ، فوجد ان يحمله فلا يعود الى ترسه .

وعلى كل حال ، سواء كان ما تترس به الامام باباً أو جسرا ، فان عمله ذلك يدل على قوة جسمانية خارقة جدا ، فإن جسرا يعبر عليه فارس مثقل بالحديد على فرسه ••• ثم يعبر عليه المسلمون ثقيلا متينا ضخما ••• وهذا لايناقض ما روي عن الامام من انه دحا باب خيبر ••• فلقد كان في المقدمة ، وهو الذي عالج باب الحصن بالقوة والمهارة حتى قلعه ، ففتح بذلك المجال لدخول المسلمين •••

ولكي يُعطى هذ العمل أهميته ، يجب ان نذكر ان اليهود لم يبقوا متفرجين بعد مصرع « مرحب » ، فلقد أخذوا يصبون السهام والنبال من صياصيهم وابراجهم على من حول السور ، والباب ثقيل مستعص ••• حتى قيل ان اليهود كعادة الرومان فيحروبهم وحصارهم ، كانوا يصبون الرصاص الذائب على من كان قرب الاسوار ، والماء الحار المغلي •••

ومهما يكن الامر فان القضاء على سلطان اليهود في أقوى معاقلهم ، وتجريدهم من مصادر قوتهم وثرائهم ، وقد اعطى المسلمون قوة جديدة، قوة ضاربة صارت فيما بعد ذات شأن اي شأن •

وبفتح حصون خيبر على ما أرى ضعفت شوكة الاحلاف التي كانت قائمة مع اليهود ضد المسلمين ، وصارت كل فئة من المشركين تؤثر السلامة وتخفى العداوة ، بعد أن كانت تجهر بذلك وتفخر ! •••

فأفضى ذلك الى ندم قريش على نقضها طرفا من معاهدة الحديبية سرا، فأرسلت أبا سفيان الى المدينة تسترضي الرسول ، وتظهر الندامة على ماوقع فيها • • • •

ولم يكن مثـــل هذا ليقع من قريش لولا النصر المبين ، الذي أحرزه المسلمون في خيبر ••• وهو مافت في عضد قريش ومن في حلفها •••

فبعد ان كانت قريش على رأس حملة من عشرة الآف مقاتل في موقعة الخندق ، وهم يصولون ويجولون مهــددين بمحو الاسلام من جذوره ، إذا بهم بعد ذلك يرسلون كبير سراتهم « أبا سفيان » ، وهو قائدهم عندما اقبلوا على المدينة في عشرة آلاف ... اي ان القائد الذي أعد لدك المدينة اولا ، عاد معتذرا يطلب عفو المسلمين ، عما وقع من نقص جزئي لمعاهدة او صلح الحديبية ! .. حتى بلغ ابو سفيان من الذل ، أن راح يتلمس الناصر والشافع له ، لكسب رضا الرسول وصفحه ! ! فأستشفـع الامام وفاطمة والصحابة لاسترضاء النبي . وبالتالي فان انتصار المسلمين في خيبر ، كان السبيل الواضح امام المسلمين لدخول مكة غازين فاتحين ، في اول أمتداد كبير لشوكة الاسلام ... ولم تكن قريش ومن معها لتصل ذلك الدرك من الهوان والتشتت الا بعد القضاء على خيبر ، مركز الدسائس ضد المسلمين ، بل مركز التحويل لرؤساء القبائل وجمعهم تحت راية واحدة لمقاتلة المسلمين، والتصدي لهم للقضاء عليهم او اضعافهم .. . فلما انتهت مكائد اليهود وانقطعت أمتداداتهم بالمال والثمرات لرؤساء القبائل والشجعان من الفرسان، تراخت اسباب الحلف ... فدب الوهن بذلك الى صف المشركين ... ورجحت كفة المسلمين ...

فنحن اذن نرى من هذا ، كم كان فتح خيبر هاما وضروريا لحياة المسلمين ومستقبلهم ؟ ؟ .. .

والآن تتجه حملة المسلمين الجديدة نحو مكة ، فلقد بلغت طلائع الجيش مشارفها ، وكانت تسير متكتمة . على قدر المستطاع ، لتفاجىء القوم على غير أهبة ، مطمئنين الى موثق صلح الحديبية ، الــذي عاد ابو سفيان من المدينة في حينه وهو لا يعلم أرضى المسلمون وصفحوا ، أم أصروا واعتبروا

الصلح ملغيا لنقض المشركين له ! !

فلما ساروا على قليل منهـا ، أعطى النبي الراية الى سعد بن عبادة وأمره ان يدخل مكة ، أمامه . وما كان سعد يأخذ الراية حتى هزته الحمية فأظهر ما في نفسه على القوم من حنق وهو يرتجز :

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة !

فلما سمع النبي بذلك ، وعلم ما كان يجيش في نفس سعد من حنق . قد يأتى على الكثير في ساعة الحماس ، طلب الى علي ان يصل اليه ويأخذ الراية منه ، فأدركه وبلغه بأمر رسول الله ، فلم يمانع في دفع الراية اليه ،مع انه كان رئيس الانصار وسيدهم ، لكنه لم يجد غضاضة في دفع الراية الى الامام ، ولو كان ذلك غير الامام لما دفعها مهما كلفه الامر .. ولكن وجد من الشرف ان يعطيها الامام ..

وأرى من خلال دراستي أن حماس سعد بن عبادة وغليانه لم يـكن وحده المسبب في أخذ الراية منه ، فان الحماس كان مطلوبا ، وليس ببطل من يحمل راية ولا يبدي حماسه واهليته لحملها ... ولكن السبب الاساس هو أن النبي رأى ان تكون راية فتح مكة في اهل بيته ، وفي ذلك مافيه من دلالة ، لاعداد الامام لقيادة المسلمين ابتداءً من فتح مكة ...

وقد قتل عند دخول المسلمين مكة ، عدد قليل من المشركين الذين لاذوا ببيوتهم ، ودخل بعضهم دورا أمنّها رسول الله ، واحتمى عدد منهم في دار ام هاني اخت علي بن أبي طالب ....

وكان في من قتل من اهل مكة ، الحويرث بن نفيل بن كعب .. وكان ممن يؤذي النبي في مكة قبل الهجرة ، وكان قتله على يد الامام ،كما قتلت قينتان ، كانتا تغنيان بهجاء النبي ومراثي أهـل بدر ، قتلت أحداهن

بسيف الامام •

ودخل رسول الله المسجد وفيه ثلثمائة وستون صنما ، فطلب من الامام كفاً من الحصى رماها بها وهو يقول : « قل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » • وأخرجت تلك الاصنام بأمره وكسرت وبددت خارج المسجد ، ثم بعث بلالاً الى عثمان بن طلحة ليأتي بمفاتيح الكعبة ، فجاءبه •

وفي رواية انه امتنع عن اعطائها واعتصم بعض الوقت في سطح الكعبة فصعد اليه الامام وانتزعها منه •

ودخلت كلمة الاسلام الى الكعبة لتصعد الى ابعد الافاق على انقاض الوثنية والشرك والفساد •

* * *

فنحن من خلال ما تقدم ، نرى بوضوح ورؤية كاملة ، مكانة الامام في الاسلام وأثره فيها ، مكانة لايستطيع بلوغها سواه ، ليس بسبب صلة الامام بالنبي وقرابته له، انما لفضلهوبفضله وحميته واخلاصه لدينه ولشجاعته وعفته واقدامه • • •

وليس من شك ، في أن اي انسان بمثل الصفات التي كان عليها الامام ، لابد ان يتبوء المكان الرفيع الجدير له في أي فئة أو مكان او مجتمع ••• لان الامام قد جمع كل ما يجب ان تكون لدى القائد والحاكم والقاضي والفارس ••• والخطيب والمربي •

ولقد كان الامام مرة أخرى عادلا ، لم يتخل عن العدالة مرة في سبيل نفسه أو لأمرة قوي او متنفذ •

ورفقته الطويلة للفقراء ، ومشاركته لهم في حياتهم الضيقة ومتاعبهم،

وعدم الانفصال عنهم طبقيا فكرة وعملا ،وعمله على كل ما يسعدهم ويرغدهم ويرفه عنهم ، قد جعله ذلك ... أماما في جميع مراحل رجولته حتى يوم مصرعـه ...

لقد خلق الامام وفي اعماق نفسه : بذرة الخير،وكرم النفس ، والترفع عن صغائر ما تخدع صغار النفوس ....

ولقد ورث عن النبي ، احسن ما يمكن ان يترك نبي لما بعده من علم وفقـه ...

ولقد كان الامام متفتح العقل ، ففهم جوهرالاسلام ، واسترشد بسيرة النبي ، فأخذه هدى حياته ونبراسها . فبرزت مواهبه وسجاياه العالية في أحلك الاوقات ، واشد الازمات ، واكثر العهود تنكرا له وعقوقا به،وما من فضل اكثر من هذا .

واذا لم أقل الكثير في هذا مباشرة ، فلقد تركت ذلك للقاريء يراه من مجرى حياته وواقعه ، الذي اكتظ بكل مكرمة .

وما من قاريء على شيء من الانصـاف ، وهو يرى تلك المشـاهد والمواقف ، وتلك اليد البيضاء التي اسداها للاسلام في أدق واحلك مراحله. إلا ويعترف بالفضل ، ويقف اجلالا واعجابا بتلك الجلائل من اعماله ، وكلها جليلة الشأن ، ظاهرة المكان في صدر الاسلام ومنطلقة الى النهاية .

ولما كانت حياة الامام ، المكتظة بالمكارم والاصرار في الحق ، جزءا من مسيرة الاسلام منذ نشوئه ، الى بوادر التحول عن كثير من مبادئه نحو دنيوية زائلة الظل ، انتهت بملكية وراثية على غير ما ارادت الرسالة ، فيجب ان نمضي مع حياته أبعد ، لنقف على الحقائق القاسية الاخرى ، والمواقف الاكثر امتلاءا بالمرارة والتجني على الحق .

وعليه ، ففي المرحلة التالية من حياة الامام ، سنرى : عبقرية وجدانه ، وقوة حجته ورفيع بيانه ، وسلامة منطقه ، وصلابة ايمانه .

لقد نمت شخصية الامام وسط عجاجة المعارك ، وفي ظلال السيوف ، ومخاضات الدم ، وعلى رؤوس الأسنة .

واستوت مستكملة الاطراف في رجولة الثبات ، وحنان الابوة ، وحصافة العقل .

ووقفت بأكملها ، وبجميع ما ورثت ، واكتسبت من مزايا ، كصارية مضيئة ، تشير الى طريق العدل والحق ، وتظهر ما كمن واختفى من جوهر الاسلام ، واصالته ، بوقائع وأعمال مشهودة ليس الى جحودها من سبيل.

* * *

اذا كانت القبائل اليمانية قد صارت للمسلمين قوة أي قوة ، وجعلت للاسلام شوكة امتدت شرقا وجنوبا ، فاضفت عليه قوة فوق قوة ، فان اكثر الفضل في ذلك يعود الى الامام .

واذ نقول هذا لا نلقي الكلام على عواهنه ، فان امامنا ما يبرر ذلك دون ما غلواء أو تحيز .

فلقد استعصت معظم القبائل اليمانية الكبيرة على الاسلام ، وعز الوصول اليها ، واحجمت عن الدخول فيه ، واخفقت الوفود والكتب في اقناعها واسترضائها .

وكان من تلك الوفود وفد خالد بن الوليد الذي ذهب بكتاب رسول الله الى اليمن ، يدعو قبائلها الى الاسلام ، فلم يجد اذنا صاغية او رضى وقبولا .

لقد مكث خالد بن الوليد في اليمن ستة شهور ، ينصح ويعظ ويهدد

ومعه رهط من المسلمين المخلصين ، في الدعوة للاسلام ...

وكان هذا الابطاء في الاستجابة مقلقا للرسول ، فلم يجد بدا من ارسال الإمام الى اليمن ، ليرجع خالد بعد ان ظهر اخفاقه في مهمته ، وقد طلب النبي الى الامام ان يستبقي معه من يريد البقاء ، ممن كان مع خالد من المسلمين .

فاتجه الإمام الى « همدان » التي اعجزت خالدا طوال وجوده في اليمن ، فقفل خالد ، وعقب بعض من كان معه ، وكان ممن عقب « البراء ابن عازب » ، ولقد روى لنا البراء كيف اسلمت همدان على يد الامام ؟!

قال : لما انتهينا الى اوائل أهل اليمن ، وبلغ القوم الخبر تجمعوا له ، فصلى بنا « علي » الفجر ، ثم تقدم بين ايدينا ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قرأ على القوم كتاب رسول الله ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد .

فكتب الإمام بذلك الى النبي ، فلما بلغه الكتاب خرّ ساجدا شكرا لله تعالى ، ثم رفع رأسه وقال : السلام على همدان . وكرر ذلك ثلاثا .

فنحن نرى مما اظهر الرسول ، من بوادر السرور والابتهاج بإسلام همدان ، أهمية ذلك في حياة الاسلام واتساع رقعته .

ذلك ان همدان كانت من القبائل العربية القوية . فما كادت تدخل في الاسلام حتى تبعتها قبائل اخرى كثيرة ، دخلت في دين الله افواجا فزادت في عزة الاسلام عزة .

وكانت بعثة الإمام هذه في آخر السنة الثامنة من الهجرة ، ولم يعرف الكثير عمن كان مع الامام من المسلمين . ويخيل اليّ انهم كانوا قلة ، لانهم كانوا وفدا يعرض رسالة ، وينشر الدعوة بالسلم والحجة .

وأردّ ذلك الى سببين : اولهما : ان النبي مع ما بلغ الاسلام يومئذ

من قوة ، لم يشأ انصدام بقواته الرئيسة الكبيرة ، بالقبائل اليمانية الشديدة البأس فيضعف جيشه ، وقد يظاهر عمله ذاك القبائل اليمانية كلها ضده ، فتتجمع بدواعي القبلية تحت حلف جديد ، كما وقع مع قريش ، فيـلحق ذلك بالمسلمين خسائر باهضة •

وثانيهما : ان النبي رأى — والاسلام قد امتد ذكره وعُرفت بعض مبادئه — ان يجرب الموعظة بالحسنى ، ويدفع بالتي هي احسن ، فأفلح الإمام في ذلك مع همدان ، حيث اخفق خالد بن الوليد ••

ولكن يجب ان نتساءل ونحن أمام هذا •••؟ لماذا اخفق خالد حيث افلح الإمام ؟! وكيف أسلمت همدان في يوم واحد أمام الامام ، واعجزت خالدا عن بلوغ ذلك ستة شهور ؟

انني لا أجد جوابا منطقيا لذلك الا في هذين :

اولا : ان سلوك الإمام وهمته كانت قد سبقته الى آفاق الجـزيرة العربية ، وصارت عفته وحميته مضرب المثل ، وما من شك وقد وصل همدان بكل تلك الحصيلة من السمعة الطيبة ، والورع والبسالة ، قد أثر في همدان وجعلها تميل اليه ، مأخوذة بفصاحته وصدقه وشجاعته •

ويخيل اليّ ان همدان لم تسلم في يوم واحد ، هكذا دون ابطاء ، بمجرد قراءة كتاب النبي، فقد سبق لخالد ان تلا عليها مثل ذلك ، بل أعزو إسلامها الى فراغ حجتها أمام منطق الامام ، وجدله العقلي ، وقوة اقناعه، وتبسطه في شرح مباديء الاسلام على حقيقتها ، وجعل همدان على بينة تامة من حقيقة الاسلام ، فلم تجد في ذلك غضاضة ، بل وجدت نفعا وعـدلا وسماحة ، فأسلمت وتبعتها القبائل الاخرى مقتدية •

ثانيا : ان همدان على ما لها من قوة وبأس وسعة ، كانت تحسب لقوة

المسلمين حسابا ، فلما رأت مقدم الإمام هذه المرة وهو يحمل كتابا جديدا من النبي ، عرفت ان الامر جد ، وان النبي داعيهم الى رسالة الاسلام حقا ومصمم عليه ، فهي اذا امتنعت عليه هذه المرة زحف اليها جيش المسلمين محاربا ، والحق بها ما لا يرضيها ، فرأى عقلاء همدان وكبراءها ان يسلموا، مكرمين بذلك النبي ومن بعثه وهو من أقرب الناس اليه .

ولقد كان تأثير الامام على همدان عميقا ، وعن طريقه عرفت فضائل الإمام ، والقيت في ارضها اولى بذور المحبة الصادقة بينـــه وبينهم ، حتى قال الامام عن همدان يخاطبها في صفين : انتم رمحي ودرعي . ولم تخيِّب همدان رجاء الامام فيها .

ومن دلائل هذه المحبة ، ان الإمام ايضا قد أحب اليمن ، وآثرها على كثير غيرها من اطراف الجزيرة ، وعرف النبي ذلك فيه ، فبعثه المرة بعـــد الاخرى الى اليمن ، مقاتلا باسلا لاخضاع قبيلة بني مذحج ، وموفدا كريما الى نصارى نجران ، ليأتي بما تصالح عليه النبي معهم وهو « ألفا حـُلـّة من حلل الاواقي ، قيمة كل حلة اربعون درهما ، يؤدون الفاً منها في صفر والفا منها في رجب ، وعليهم اربعون دينارا مثواة من يرسل لاخذها منهم ».

أما حصافة الإمام، وألمعيته الفكرية ، وسعة افقه ، واستنباطه الاحكام العادلة ، فلقد تجلت بأبهى مظاهرها عندما ولاه النبي القضاء في اليمن، وهو في تلك السن المبكرة .

ولقد دلت احكامه التي أصدرها ، وقضاياه التي قضى بها في اليمن ، على عقل نيِّر ، وأناة في الوصول الى ما هو عدل وحق ، فكانت كل قضية من قضاياه تصل الى النبي ، يؤمن على صحتها ويؤكدها ، وأكثر من ذلك كان يبتهج بها ، فلم ينقض له النبي امرا بتّ فيه ، أو قضية أفتى فيها ،

أو حكم أصدره في شأن من شؤون المسلمين ...

* * *

كانت حجة الوداع موسما مشهودا من أيام الاسلام ، فلقد نادى النبي بالحج ، فأقبلت العرب من كل حدب وصوب ، لتنال شرف الحج معه .

فاجتمع على صعيد مكة حشـد كبير من المسلمين اختلف الناس في عدده ، فبعضهم جعله أربعين الفا ، وبعضهم مائة الف ، وبعضهم قدر من حضر تلك الحجة بأكثر من ذلك ، وهذا جائز اذا اخذنا بنظر الاعتبار من شارك فيها من أهل مكة نفسها .

على ان حجة الوداع ، وقد كانت في السنة العاشرة من الهجرة ، قد اكتظت بالناس ، فلا غرابة أن يبلغ عدد من حضره تلك السنة مائة الف أو اكثر . وكان النبي قد أقبل من المدينة ، وساق هديا الى الحج ستا وستين بدنة ، وأخرج معه نساءه التسع في الهوادج وابنته فاطمة .

وكان الإمام قبل ذلك في اليمن ، وقد ارسله النبي اليها ليخمس ركازها ، ويقبض ما وافق عليه أهل نجران من الحلل وغيرها .

فكتب اليه النبي بالتوجه الى الحج ، فلما قارب النبي مكة من ناحية المدينة ، قاربها الإمام من ناحية اليمن ، وسبق الامام صحبه في اللقـاء بالنبي ، فألتقاه واخبره بما معه .

وهكذا اشترك الإمام في حجة الوداع ، وكان قد ساق في طريقه هديا من اربعة واربعين بدنة ، وبذلك صار هديه مع هدى النبي مائة بدنة ، نحر منها النبي بيده ثلاثا وستين ، وأمر الإمام فنحر الباقي ، وقال له ـ اقسم لحومها وجلودها وجلالها بين الناس ، ولا تعط جزارا منها شيئا ، وخذ لنا

من بعير جذبة من لحم ، واجعلها في قدر حتى نأكل من لحمها ونحسو من مرقها •• ففعل !••

واتنهى الحج وقفل النبي راجعا الى المدينة ، ومن ورائه كل ذلك الحشد ممن اموا الحج ، فلما بلغ الموضع المعروفه بـ « غدير خم » نزل فيه ، وليس هو بالموضع الصالح للنزول ، فما فيه من مرعى ولا ماء ، وكان الوقت صيفا وفي الحمارةمنه ، فلابد ان يكون هذا لامر ذي أهمية ، أو لحكمة مقصودة •

أما الحكمة في اختياره ذلك الموضع للنزول ، فلأنه كان يفضي الى دروب عدة ، تتفرق فيها العرب عائدة الى ديارها ومواضعها فاذا اجتازه تفرقت العرب ، وهو يريد أن يبلغها امرا من الاهمية بمكان •••

واقيم للنبي منبر من رحال وضعت بعضها فوق بعض ، ثم امر مناديه فنادى في الناس : الصلاة جامعة فأقبلوا من رحلهم وحفوا بالنبي يصغون اليه ، وقد صعد على تلك الرحال وأصعد معه الإمام ، واقامه عن يمينه . فنعى نفسه الى الامة فقال : « اني قد دعيت ، واوشك ان اجيب وقد حان مني خفوق من بين اظهركم ، واني مخلف فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا من بعدي : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » ثم نادى بأعلى صوته : ألست اولى بكم منكم بأنفسكم ؟ قالوا: اللهم بلى • فأخذ بضبعي الإمام فرفعهما حتى بان بياض ابطيهما وقال :

« من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه • اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » •

ثم نزل فصلّى ركعتين ، وصلى بعدها صلاة العصر ، وجلس في خيمته، وأمر عليا ان يجلس في خيمة له بإزائه ، وأمر المسلمين ان يدخلوا عليه بأمرة

المسلمين ، ففعل الناس ذلك •

ثم أمر ازواجه وسائر نساء المؤمنين ممن معه ، ان يدخلن عليه ، ويسلمن عليه بأمرة المؤمنين ففعلن ••

وانفض هذا الاجتماع الحافل ، وهو يحمل عن النبي ما رأى وسمع ، والذي ترى فيه الشيعة عهدا بالوصاية للامام من بعده ، ويرى غيرها غير هذا •

وقد طال الجدل والخلاف حول هذه القضية ، وكثرت التأويلات وتبديل المعاني والمقاصد •

فمن يعارض في القضية ، ولا يرى فيها وصاية بالإمامة من بعده ، يرى ان ما قاله الرسول عن الامام في ذلك الموضع ، كان دعاءا وابانة بفضل الامام ومنزلته من قلب النبي •••

وعلى هذا القول يكون الامام مرشح رسول الله ، وعلى المسلمين ان ينفذوا ما أوصاهم به في حياته ، من تأميره عليهم ، واذا كان ثمة ما يلزم للشورى ، تحقيقا لمبدأ الاسلام ، فلتوكيد ما اختاره النبي • وكان من المؤمل والطبيعي ان يتم اختيار الإمام لخلافة النبي ، بالاكثرية الساحقة ، إن لم نقل الاجماع ، فلا تخذله ، لان النبي دعا بالنصر لمن ينصره ، وبالخذلان لمن يخذله •

ولكن ما وقع قد خيّب الآمال ، فتبددت وحدة المسلمين في أمر الخلافة ، فكل رئيس ووجيه يريدها خالصة لنفسه •

وسنرى ملامح واضحة من تلك المواقف والاتجاهات ، قبل وفاة النبي، ويوم وفاته ، وبعد وفاته ، بجلاء ووضوح ••



الفصل الثالث

الفصل الثالث

وفاة الرسول ، موقف الانصار في سقيفة بني ساعدة من أمر الخلافة ، بيعة الامام لأبي بكر ، نزاع فاطمة على ارثها ، مركز الامام في خلافة عمر ، وشخصيته العلمية والاجتماعية ، في عهد عثمان ، موقفه في الدفاع عن عثمان في أيامه الاخيرة ، معارضته المتحدية •

* * *

لقد بلغ الكتاب أجله ، وجاء أجل رسول الله ، وكان ذلك في شهر صفر وقيل في ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة •

مرض الرسول وثقل عليه المرض • كانت به حمى عالية ، وصداع شديد ، الزمه الفراش في أيامه الاخيرة ، ومع ذلك فلقد خرج الى المسجد مريضا مرتين •

احداهما عندما خرج عاصبا رأسه فاعتلى المنبر وقال : انفذوا بعث اسامة•

وكان «اسامة بن زيد» على رأس جيش كبير أعده النبي قبل مرضه ، وضم اليه كبار الصحابة والمجاهدين في حملة الى الشام ، يرد بها الروم عن اقتحام حدود الجزيرة من ناحية الشام • وكان اسامة قد عسكر خارج المدينة بأمرة النبي استعدادا للسفر •

وثانيهما عندما اختلف من كان حوله ، من أهله ونسائه ، على من يصلي الفجر بالناس ، فقطع الخلاف بأن خرج بنفسه ، منهكا بادي الوهن والاعياء ، فأخذ بيد الامام والفضل بن العباس ، فاعتمد عليهما ورجلاه

تخطان الارض من الضعف فبلغ المسجد وصلى بالناس جالسا .

وكان قبل ان تحضره الوفاة ،قد نقل من بيت زوجه « أم سلمة » الى بيت عائشة. وهناك انتقل الى الرفيق الاعلى ، ورأسه الى صدر الامام ، وحوله بعض نسائه .

فاذا أخذنا بنظر الاعتبار ، مفصل ما ورد في الروايات ، عمن كان قد حضر الوفاة ، انتهينا الى حقيقة موجعة ، هي ان النبي قد احتضر ، ورأسه الى صدر الامام . وقيل على صدر عائشة ... وقد احتضر وفي صدره غم، على ما كان ظاهرا له ، من خلاف يقع بعده .

ولقد أراد تفادي ذلك ، وهذا يفهم من الروايات التي تقول : انه طلب كتفا ودواة يكتب فيها وصية لن يضلوا بعدها ، فتباينت الآراء في تلبيـة الطلب ، فلما استفهم عن طلبه ثانية بعد صحوة من اغماءة غشيته . رفض ما كان قد طلبه وذلك لامتناع بعضهم عن اجابته اليه اول مرة ، فاستدار بوجهه عنهم ، حتى اذا ما علت الاصوات مختلفة ، بين جلب الكتف وتأجيله قال : ابعدوا عني ...

وفي رواية انه امتدح قبل ذلك نساءه الباكيات ، عندما لامهن لائم ، فقال : انهن خير منكم . وذلك لان نساء النبي الحفن ، وذكرن الحاضرين بطلب النبي للكتف والدواة .

ولم أجد جوابا لسؤال اعتلج في صدري ، وهو لماذا لم تخف احدى زوجاته الى دارها ، وتأتي بالكتف والدواة ، وليست بيوت النبي خالية من كتف ودواة ، او صفحة مما يكتب فيها ويراسل ... ولم يكن احضار الكتف بالامر العسير او بعيد المنال .. كما اتساءل لماذا لم يهب الإمام لتحقيق ذلك؟ واكبر ظني انه كان هناك ، لانه لم يفارقه خلال مرضه الا اضرورة !...

ومهما يكن السبب فقد حيل بين النبي وبين الوصية على الكتف ، حتى

زهد بذلك حين استفاق من غشيته ... ولم يكن احد ليعرف ماذا اراد ان يكتب الرسول ، وان مهد لذلك ، فقال : ائتوني بكتف اكتب لكم وصية لن تضلوا بعدها ..

فاذا لم يكن ما في صدر النبي في تلك اللحظة ، غير التوصية بمن يخلفه. فما من شيء غير مفصل في كتاب الله ، من امور المسلمين واحكام الاسلام.

فالرأي الصائب في هذا ، ان النبي أراد ان يبت في أمر من يخلفه ، بنص لا يختصم فيه من بعده الناس ..

ويبدو لي ، ان النبي رأى ان يجدد ما قطع في غدير خم للامام، وينوّه بما حصل ، ويثبت ذلك في ثبت مكتوب .. بعد ان اخذ له الامرة له في غدير خم من خيار المسلمين ، وبأوسع نطاق من العرب القادمين من كل حدب وصوب ، والممثلين للاسلام بنوع من الشورى الواسعة واكثر تمثيلا للعرب. خلافا لما جرى في المسجد ، وفي سقيفة بني ساعدة ، فقد استأثر بالكلام والترشيح نفر من الرؤساء ، كانوا طامعين بالخلافة ، مرشحين انفسهم لها بشكل من الاشكال !! وفي ايدي اتباعهم سيوف مشهرة ، وقد دب الخلاف بين الحاضرين ، حتى انقسموا الى خمسة احزاب سنتعرف عليها بعد حين ..

لقد توفي الرسول والامام في حجرته ، ان لم يكن رأس الرسول على صدره ، فترتب عليه ان يقوم بما تقتضيه الفاجعة ، ويشغل بها وهو مطمئن الى حقه ، ووفاء صحابة الرسول معه ميتا ...

وكان المتوقع ان يحضر الصحابة وكبار الرؤساء الى بيت الرسول ، ويسهموا بما يجب عليهم ، الى ان يوارى التراب ، ويعزى اهله في مصابهم. ولكن بدلا من هذا ، انشغل القوم في امر الخلافة ، ومن يجب ان يكون الخليفة ، والرسول مسجى لم يغسل بعد ، ولم تستكمل اسباب دفنه !!.

ولا اقتنع بالقول ان ذلك كان ضروريا لئلا يتشتت المسلمون . فان وفاة

النبي في الواقع لو نظر اليها في تلك اللحظة من الناحية العاطفية ، كان يمكن ان تكون مصدر اجماع واجلال ونسيان التراث ، بأن يهتف بالحاضرين انتظار دفن الرسول ، واجلال ذكراه وتقديس رسالته ... وكم تكن النخوة مفقودة ، بحيث لو ان خطيبا استفزهم ، وذكرهم بما يجب عليهم ، ان يظلو في سدرة غوايتهم وجشعهم ...

بل انه كان من الممكن ببساطة اثارة النخوة ، في سقيفة بني ساعدة وتخجيل امراء الانصار من الخزرج ، بما هم فيه ، مع ان واجبهم ان يكونوا في مسجد النبي ، حضارا لمراسيم غسله ودفنه وتوديعه والصلاة عليه ...

والا فان القول بالعكس يفضي بنا الى القول : ان الاسلام لم يكن قد تمكن في صدور من اعتنقه من السادة والكبراء ، وكان في وسعهم ان يقولوا ويفعلوا الكثير ... وهذا مالا نعتقده قياسا على ما بذل هؤلاء سيما الانصار من أموال وارواح ونصرة ، في سبيل الاسلام ! .

لقد قام الامام بغسل النبي ، والفضل بن العباس واسامة يحجبانه ويساعدانه ، فلما فرغ من غسله وتجهيزه ، تقدم فصلى عليه وحده .

واختلف من كان في المسجد ، في من يؤمهم في الصلاة على النبي ، فخرج الامام اليهم وحسم ذلك حين قال : ان رسول الله امامنا حيا وميتا ، فدخل عليه القوم فوجا بعد فوج ، يصلون عليه بغير امام ويتصرفون وجرت الصلاة عليه على هذا الترتيب ، فصلى الامام والعباس وبنو هاشم ثم المهاجرين فالانصار .

وجاء بعد ذلك دور انزاله الى القبر ، فدخل الامام والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس واسامة بن زيد ليتولوا دفن الرسول ، فطالبت الانصار عندئذ بحقها في هذا الشرف ، وتعالت اصواتها بذلك ، فقال الامام : ليدخل اوس بن خولي ، وكان رجلا بدريا فاضلا من بني عوف من الخزرج ،

فلما دخل اذن له الامام بالنزول في القبر ، فوضع الامام الرسول على يده ودلاه في حفرته .

فلما بلغ الجثمان الارض ، طلب اليه ان يخرج ، ونزل الامام فكشف عن وجه الرسول ، ووضع خده على الارض موجها الى القبلة على يمينه. ثم وضع عليه اللبن ، واهال عليه التراب ، وربع قبره ، وجعل عليه لبنا ورفعه عن الارض قدر شبر .

وبذلك انتهى الامر كله ، وانتهت حياة هذا النبي العظيم الذي حمل مشعل الحرية والعدالة بين الناس في اكثر العهود ظلما وظلاما وجهلا وانقساما . فجعل العرب خير امة اخرجت للناس ...

* * *

فلنعد الى المسجد فلقد وقع هناك ما بلبل الافكار ، وجعل الناس احزابا ، كل حزب يدعو لمرشح له او رئيس .

كان ذلك يجري ، عندما كان الامام وبنو هاشم مشغولين بتجهيزالرسول وحمله الى مثواه الاخير .

وقد ادى الخلاف الذي نشب بين الانصار والمهاجرين ، الى ان يشغل اكثر الناس بتلك القضية،فلم يحضر اكثرهم دفنه والالتفاف حول بيتهوتوديعه!

ويفصل الطبري في تاريخه هذه الحال ، تفصيلا دقيقا ، حمل للمتأخرين صورة كاملة عما كان يجري في تلك الساعة ، من جدال وخصام للحصول على الامرة. والعرب في مأساة ، فلننظر الى ما نقله الينا الطبري وملخصه : ان الناس انقسموا بشأن الخلافة الى خمسة احزاب كل حزب يدعو لمرشحه وكانت تلك الاحزاب هي :

١ً — حزب سعد بن عبادة رئيس الخزرج وهو رئيس الانصار.

٢ً — حزب المهاجرين يترأسهم ابو بكر .

٣ً — حزب الامـام علي وهم بنو هاشم وبعض المهاجرين وكثير من الانصار بينهم الزبير بن العوام .

٤ً — حزب بني امية على رأسه عثمان ، يناوئه ابو سفيان .

٥ً — حزب سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة وقد اجمع كثير من الانصار ، او كل من كان قد حضر سقيفة بني ساعدة على اختيار سعد بن عبادة للخلافة ، وهو مريض ، فكان ابنه قيس يبلغ كلامه الى الحاضرين ،وقد أيدهم في ماذهبوا اليهفي جعل الخلافة فيهم.

وكان سعد بن عبادة هذا رجلا مطاعا في قومه ثرياً وسخيا ، كثيرا ما كان يرسل الهدايا والاحمال من التمر والاعناب واللحوم الى النبي ، لإقراء الوفود ويسهم في تموين المجاهدين بما يستطيع ، وكان من كبراء القوم الذين أسرعوا لنصرة المسلمين وايوائهم في هجرتهم من مكة ...

فلما بلغ الخبر الى ابي بكر — وهو في المسجد — خفً الى سقيفة بني ساعدة ، ومعه عمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح ، وهناك دارت مخاطبات ومنازعة في الامر والمفاضلة فيه ....

وظهر بين الخزرج من سعَّرها ، وأحيا العنعنات التي كان قد أنامها الاسلام ، وابعدها عن سورة النفوس بعض حين ... حتى تحولت الخطب الى حدة وتهديد بامتشاق السيوف ...

وقال الانصار بحثا عن حل وسط : منكم امير ومنا امير !

فقال ابو بكر — منا الامراء ومنكم الوزراء ...

فقام الحباب بن المنذر خطيبا عن الانصار،فقال — يامعشر الانصار — امسكوا على أيديكم ، فان الناس في فيئكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على

خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رأيكم ـــ انتم أهل العز والثروة والعدد والنجدة . وانما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، انتم أهل الايواء والنصرة ، واليكم كانت الهجرة ولكم في السابقين الاولين مثل مالهم ،وانتم اصحاب الدار والايمان من قبلهم. والله ما عبدوا علانية، الا في بلادكم ، ولا جمعت الصلاة الا في مساجدكم ، ولا دانت العرب للاسلام الا بأسيافكم ، فأنتم اعظم الناس نصيبا في هذا الامر ، وان أبى القوم فمنا امير ومنهم امير ...

فقال عمر بن الخطاب ـــ هيهات لايجمع سيفان في غمد واحد . انه والله لا ترضى العرب ان تؤمركم ونبيها من غيركم .ولكن العرب لاتولي هذا الامر الا قريشا . من ينازعنا سلطان محمد ، ونحن اولياؤه وعشيرته ، الا مدلٌ بباطل ، او متورط في هلكه ؟ ...

فقام الحباب بن المنذر فقال ـــ يامعشر الانصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ، فان أبوا فأجلوهم عن بلادكم ، وولوا عليكم ووعليهم من أردتم ، اما والله ان شئتم لنعيدنها جذعة ،والله لايردُ عليَّ أحد ما أقول الا حطمت انفه بالسيف.

ومع ذلك فقد قام ابو عبيدة بن الجراح ، فقال : يامعشر الانصار، انتم اول من نصر وآوى ، فلا تكونوا اول من يغيِّر ويبدل ...

واعقبه على الاثر بشير بن سعد ، وهو من سادات الانصار فانحاز الى المهاجرين ، فقال : يامعشر الانصار ، لئن كنا اولي الفضيلة في جهاد المشركين والسابقة في الدين ، ما أردنا ان شاء الله غير رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، وما ينبغي ان نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغي به عرضا من الدنيا ، ومحمد رجل من قريش ، وقومه احق بميراثه وتولي سلطانه ...

وفي رواية بن هشام عن عمر بن الخطاب ان خطيب الانصار قال : أما بعد ، فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام ، وانتم يامعشر المهاجرين رهط منا ٠

فقال ابو بكر — : اما ما ذكرته من خير ، فأنتم له اهل ، ولن تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، هم اوسط العرب نسبا ودارا ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا ايهما شئتم ! وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ٠

فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ثم الانصار ، وكان في مقدمة من بايع من الانصار « بشير بن سعد » ٠٠٠

وعاد عمر بن الخطاب الى المسجد ، فقال للمجتمعين فيه : مالي أراكم مجتمعين حلقا شتى ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته ، وبايعته الانصار ٠

فقام عثمان ومن معه فبايعه ، وقام سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف ومن معهما من بني زهرة فبايعوه ٠٠٠

أما علي والعباس ومن معهما من بني هاشم ، فقد امتنعوا عن البيعة ؛

وقيل : ان هذا الامتناع امتد ستة اشهر فلم يبايع الامام أبا بكر ، الا بعد وفاة فاطمة الزهراء ، وكانت وفاتها بعد ستة شهور من وفاة النبي ٠٠

وهناك أقوال غير هذه : فمنهم من قال : ان بني هاشم قد بايعوا في المسجد مع الاخرين أو بعد ذلك بقليل ٠ ،

***

ومنهم من قال : انهم لم يبايعوه الا بعد مبايعة الامام له ٠

وبغض النظر عمن بايع ابا بكر من بني هاشم ومتى كان ذلك ، فأنني أرى ان الامام لم يبايع أبا بكر ، الا بعد وفاة فاطمة الزهراء ، التي كانت أثيرة عنده حبيبة الى قلبه ، مثلما كانت حبيبة الى قلب النبي ، وذلك ان

خلافا قد نشب بينها وبين أبي بكر بأرثها من ابيها ، وبـ « فدك » الذي كان نحلها أياه في حياته ، وبسهم ذوي القربى ٠

اما الارث فرده عنها بما رواه عن النبي ٠٠ أنا معاشر الانبياء لانورث. ماتركناه صدقة ٠٠٠

وأما فدك فطلب منها البينة فشهد لها علي وام أيمن فقال : قد علمت يابنت رسول الله ، انه لايجوز الا شهادة رجلين او رجل وامرأتين ٠

أما بشأن سهمهما في الخمس فقال لها ــ لم يبلغ علمي ان هذا السهم من الخمس مسلم اليك كاملا ، بل انفق عليكم منه ، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين ، فلم تذعن وخرجت غاضبة وخرج علي معها غاضبا ٠٠٠

ولقد ترك ذلك أثرا عميقا في قلب فاطمة ، وآذاها واوجعها ٠

فلما أستقر بهما المقام ، توجهت الى الامام في يوم مرير ختمته هكذا «افترشت الذئاب وافترشت التراب ، ما كففت قائلا ، ولا اغنيت طائلا ٠ ولا خيار لي ٠ ليتني مت قبل ميتتي ودون ذلتي ٠ عذيري الله منك عاديا وفيك حاميا ويلاي في كل شارق ٠ ويلاي في كل غارب ، مات العمد ووهت العضد ٠ شكواي الى ابي ، وعدواي الى ربي اللهم انك أشد قوة وحولا واخذ بأسا وتنكيلا ٠

فقال لها الامام : لاويل لك ، بل الويل لشانئك ٠ نهنهي عن وجهك يا ابنة الصفوة ، وبقية النبوة ، فماونيت عن ديني ، ولا اخطأت في مقدوري فان كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون ، وكفيلك مأمون وما أعد لك أفضل مما قطع عنك فأحتسبي الله ٠

فقالت : حسبي الله وامسكت ٠٠٠

فنحن نرى مما تقدم ، انه كان من المستبعد ان يقوم الامام ، فيبايع

أبا بكر ، وفاطمة في مثل تلك الحال من الغضب والحزن والوجع على ما أصابها .

فلما توفيت ، وكان ذلك بعد ستة اشهر من وفاة النبي كما تقدم ، ذهب الامام فبايع ابا بكر ...

* * *

لقد تتالى اخفاق الامام في بلوغ الخلافة ، المرة بعد الأخرى ، وهو في كل مرة يرى ان الحق صائر اليه وان الابصار ما دامت شاخصة اليه ، مؤيدة لما يقول ، مؤمنة بحقه ، مجمعة على فضله وعدله ، فهو أهلها وصاحبها ...

وكانت المرة بعد الاخرى تفلت منه لامور مدبرة مسبقا ، أو لأمور او ظروف طارئة لم تكن في الحسبان ، ولا نريد ان نتعمق في ذلك لما يورث من هم ، وتجديد حزن او إثارة بغضاء ، لان التطرق الى كل ذلك بأسهاب، وتشخيص الاسباب والمسببات والمسببين ، يقتضي ذكر الاشياء باسمائها واعطاء كل امر قدره من المسؤولية والتبعة ، وتحميله ما عمل من عمل وادى الى وزر .

لذلك رأينا ان نصير في البحث الى ما صار اليه الامام وسلكه ، وهو صاحب الحق فيما انتزع منه قبل ان يصير اليه ...

فلقد رضي الامام في حياته بما وقع ، ولكن رضاءه لم يكن رضاء استسلام وقنوع ويقين بصحة ما وقع ، بل كان صمته احتجاجا ينم عن السخط والمرارة ... هذا الى جانب انه كان يظهر ما غلب فيهوماأخذ منه صراحة ... ويحمل على من خذله وحبا بها غيره ... فكان يثبت بذلك

حقه فلا يتراخى فيه ، ولا يرى في خروجها الى غيره ، الا عـدوانا على حقه فيه ...

ومع ذلك ، اعني : مع ذلك الشعور المحزن بالفشل الذي مني به دون حق ، والحق به دون مروءة ، فقد قضى اربعا وعشرين سنة بعيدا عن الخلافة وهي المدة الواقعة بين يوم السقيفة وآخر خلافة عثمان ، فلم يدخل مع القوم في امارة او حرب او يدنو من منصب او يواجه خليفة لمغنم شخصي وزلفى...

ولم يكن بحاجة الى جاه ، فقد كان جاهه رفيعا مرموقا في المجتمع الاسلامي كله ، وليس في المدينة وحدها ، وكانت الرسل تسعى اليه في نشدان الخير والمعرفة ، وتأتيه الوفود للوقوف على رأيه في مقلقات الامور العويصات من القضايا ، في الحقوق والمواريث واقامة السنن وما يخفى على الناس من أمور دينهم .

فيصغي ويسمع ويحاجج ، ويدلى بما يجب ان يكون عليه حل الامور وما قصد من أجله الناس .

وهو الى ذلك متابع للدرس والتأمل : يقرأ ويتفقه في الدين والعلم والانساب والسير والتفسير ، ويعمل بهدوء وصبر كل ما يعود على الاسلام بالخير والثبات ، فكان يدعم الحق بالحجة والمنطق والاقرار والوصية والشهادة ويثبت جليل الآراء في كتب او رسائل تضم اعمق الاراء واجلها واجلاها والتي كانت من البلاغة في لبابها وذراها .

ولم يكن ليقصد خليفة في شأن مالم يكن بداع من العدل ، ولمنفعة عامة ، او يرد ظلامة وتبيان حق ودحض كذب وفضول ، او لتقويم عوج وما يراد من الانحراف عن طية الاسلام ووجهته .

واذا ما حضر مجلس الخليفة ، فبدعوة منه ، لقضية مهمة جديدة يلقى

عليها ضوء الحكمة والمعرفة ، ولم يكن هذا بغريب عنه ، وهو حامل علـم رسول الله في فقه الدين وشريعة المسلمين ...

وقد كثر هذا في خلافة عمر ، وكان عمر يقول في كل قضية عويصة تعرض عليه : قضية وليس لها ابو الحسن ... متحديا بذلك كل معضلة. فيطرحها أمام الامام فيبت فيها ويحسمها على أصوب واصدق الوجوه .

لقد كان الامام في خلافة أبي بكر ، اكثر ابتعادا عن مجلس الخلافة . وعن المجتمع ، وتحاشيا للالتقاء بالخليفة ، ومن حوله ، من المقربين اليه من خاصته ، فقد كان الجرح الذي أحدثه حجب الخلافة عنه ، عميقا في نفسه بطيء البرء ، وزاد في ذلك ما نشب من خلاف بين فاطمة الزهراء والخليفة بشأن ارثها .

ولكن شعور المرارة هذا ، قد خف في خلافة عمر ، فزايله الغضب وخف عنه الحزن ، وكأنه رأى في ذلك قدرا مقدورا ، لامرد له الا بيومه .

وكانت اراؤه في عهد عمر محل تقدير وتقرير ، ومقترحاته وتنبهاته محل الصدارة والاخذ .. وكان رزقه ايضا مكفولا من مال له يأتيه في ينبـع وبساتين وعيون وزروع في البغيبغة وابي نيزر ، كفته الحاجة وافردت له جوا مكفولا بشيء من الدعة والرخاء ، قطعه بالدرس والتأمل واسداء المشورة والموعظة والتأليف .

ولم يكن سكوته سكوت استسلام عن حقه ، بل كان مصابرة وجلدا واحتسابا . فلم تقل حدته في الذود عن الدين وردّ كل عوج عنه وافتئات عليه . فكان ينبه الى مواطن الخطأ ، ويلحف في تقويم العوج ، واقالة العثرة واثابة المحسن ، فيؤازر من يأتي من الامصار بطلب او شكوى ، حتى صار بعض الوافدين على الخليفة ، في خلافة عثمان ، يقصدون اليه قبل ان يرفعوا

ظلامتهم وكُتُبَهم الى الخليفة ، فكان يأمر بالرأي الصواب ، ويسند الطلب بالحجة والمنطق، ويطلبعند الظنة والشبهة الدليل ، فاذا وجدهآزره ، وركن اليه ، وناضل من اجل ازالة السوء ، الذي يلم بالناس ، والظلم الذي يلحق بالمستضعفين ..

وفي غضون ذلك يتحين من الوقت ما يقضيه بشيء من السفر أو الدعة بالانشغال بملكه في خيبر وغيره ، فيعمل في بساتينه لاستصلاحها واستنباط عيون الماء لها ، حتى انه رؤي مرارا وهو يعمل في تنقية بئر وتغويرها عمقا للوصول الى مصادر عيونها ، مع من اقامهم عليها من مواليه. يعمل عملهم ويرفع الطين معهم ويجر الحبال ويسوي الاخاديد ، ثم يأكل مما يأكلون معهم جنبا الى جنب ، وما عندهم في الغالب الجشب من الطعام والرخيص من الاكل ..

فلا يترفع ولا يتقزز ولا ينفر ، بل كانت حياته في أوج اتساعها ، وشخصيته في ذرى تكاملها واحدة ،احتفظت بانبل ما في الانسانية من نبل، وهو التواضع والرأفة ومشاركة الآخرين ما هم فيه من شظف وبأساء .

ولقد ظلت احب كناه اليه « ابو تراب » ، وهو ما كنّاه به النبي حين وجده نائما ، يفترش ارض المسجد وتحت دوحة قبيل معركة وبعدها ، وقد تترب ظهره وصدره ..

وكان واحدا في تواضعه ، اذا صار الى خفض ، او حل به ضيق ، أو ارتفع به دخل جديد ...

فلقد رؤي في احد الاسواقيعرض درعه للبيع ، ليشتري ثوبا يستبدل به ثوبا باليا ، حتى ظهر من اقرضه المبلغ لشراء الثوب ، اشفاقا من بقاء بطل الاسلام وحسامه دون درع ..

وقد كان براً بزوجه ، وكانت الزهراء مأمله وحبه وكفايته من النساء حتى توفاها الله ، فتزوج وعدد في الازواج ، فكان مجموع ما انجب منهن ثلاثا وثلاثين من نسله الطيب .

* * *

وحين طعن عمر بن الخطاب تلك الطعنة القاتلة ، أوجد جديدا في أمر الخلافة ، فاجتهد للمسلمين اختيار الخليفة في شورى من ستة اشخاص ، اختارهم بين العديد من الصحابة والمشايخ والسلف ، وارتأى فيهم الخير لاختيار من يخلفه على سلطان المسلمين ، لان الرسول مات وهو عنهم راض .

ومع ذلك فلم يبريء احدهم من عابة أو خصلة رآها فيه ، فذكر لكل واحد خصيصة غير حميدة ، فلم يجد ما يقوله في الامام سوى انه امريء ذو دعابة !

ومع ان الدعابة كانت قد غادرت الامام ، ازاء ما اعتكر عليه من صفو الحياة ، وما البت عليه الايام من عقوق ، فان الدعابة من صفات الاذكياء ، قرينة بالسماحة وطيبة النفس عند من لا يؤذي في دعابته احدا ، ولا يقصد بها غير تفريج غم وازالة حزن ومواجهة الحياة بما فيها من حلو ومر وجمال وألم ...

وفي ما اجتهد فيه عمر للخلافة ، بإصارة أمرها الى ستة ، حصل نوع من التوسع النسبي في أمر الشورى بالنسبة الى ما اتبعه ابو بكر ، الذي اوصى على وجه التعيين بعمر خليفة من بعده ، دون أي شورى من احد من أهل الرأي والصحابة، ولسنا في محل جدل في هذا ، لما يثير من حساسية. ولكن نرى في ما اجتهد فيه عمر نوعا من السعة والديمقراطية بالنسبة الى ما اتبع ابو بكر في امرها ..

وهكذا نحن نرى ان أمر الخلافة ، تقلب في عدة وجوه وصار الى عدة مذاهب ٠

فلقد جرى اختيار ابي بكر بشيء من الشورى على نطاق واسع وعلني، بما دار من جدل وخطب ومفاضلة بين المرشحين فيها في سقيفة بني ساعدة، ثم غاب كل هذا عندما استخلف ابو بكر عمرا لخلافته ٠٠٠ وطرح عمر الشورى لاختيار خليفة المسلمين في جو ضيّق بما اشترط فيه ٠٠٠

ومع اننا لا نريد الجدل ، في هذا الذي تم اختياره الخليفة بمقتضاه . وفق اجتهاد عمر ، فانتهى الأمر الى عثمان بن عفان ، إلا اننا نرى ان ما وقع قد ترك اثارا بعيدة المدى في خلافة الإمام ، أقضّت عليه مضجعه . وسببت للمسلمين الكثير من الخسارة والمتاعب ، وذلك عندما انشق على طاعته طلحة والزبير بن العوام وكان كلاهما من ضمن الستة الذين اختارهم عمر لاختيار الخليفة من بعده ٠ فكان جراء ذلك ان وجد كل منهما نفسه مؤهلا للخلافة جديرا بها واصلح لها ٠ فطالب بها تحت أنواع متعددة من البراقع والاعذار ، فكانت معركة الجمل افجع ما انتهى اليه حب الإمرة والخلافة ، لدى من وجد نفسه أفضل من سواه وأجدر ، ما دام بين الستة المؤهلين لذلك ٠

والمرء مهما تجرد من الانانية وركن الى التواضع ، مجبول على حب الذات وايلائها قدرا كبيرا من الأهمية ، وإعلاء الشأن بمجد مرموق ومكانة رفيعة وصوت مسموع ٠

فنحن إذن من هذا الكتاب ــ في أوج الاكتظاظ بالاحداث والفواجع والانقسامات والمعارك ، فانه العهد الذي امتلأ بالمفارقات والمنغصات ، وتكامل الغضب ضد واقع قاس يفيض بالخيبة والمرارة ، لم يتوقع المسلمون ان

يصيروا اليه ...

لقد انتهت خلافة عمر بتلك الطعنة القاتلة من يمين أبي لؤلؤة ، وصارت الخلافة الى عثمان عن طريق الستة المختارين أو الناخبين ، وفيهم من تأول اليه الخلافة أي انها حصر بأحدهم .

وكان عهد فيه للخلافة شدة فالولاة والعمال في فزع دائم من مركز الخلافة ، وفي تقشف عمر ما أسكت الناس عما كانوا يصيرون اليه ، بين الحين والحين ، من شظف وضيق وبؤس في المقام .

وكان الخليفة يومئذ يستشير ويأخذ بالرأي الصواب ، ويسد مواطن الضعف والوهن بقوة البأس ... وكانت للامام علي في عهد الخليفة عمر كلمة مدوية ونصح مسموع ..

فلما أقبل عهد عثمان اقبلت الفتن كقطع الليل ... حفَّت به أمية تنشد الدنيا في كنفه وتغطي ضلال مطامعها بوقار الخليفة وسلامة قلبه ، وعطفه على أفراد اسرته وبني قومه والمقربين اليهم ، ثم طمع مستشاروه في لينه وضعف كبرته ، حتى استفحل الأمر ضده ، وارتفع الضجيج وصار موجا متدفقا ، سدَّ عليه آفاق المدينة بالرماح من المقبلين عليها من أمصار المسلمين ، يريدون عدلا ، وينشدون اقامة ما تأمر به الشريعة من حقوق ، واقالة الجائرين من العمال والولاة ، وإنصاف المساكين والفقراء في رزقهم ..

وقد وجد الناس — والامر كما وصفنا — الأمل كل الامل في شخصية الإمام ، التي تكاملت علما وعرفانا ، لتتوج بكهولة ناضجة في ظل المعرفة والشجاعة والثبات .

فكان الامام يومئذ أمام مسؤولية كبيرة ، فلقد صار الشخصية الاولى التي تشخص اليها الابصار ... أبصار المسلمين الساخطين على جور بني

أمية،وهم الوزراء والعمال وأصحاب الكلمة، وعلى مظالم مروان بن الحكم، وقد صار المستشار المستجاب عند الخليفة . وفي محل الصدارة في الرأي ، كلمته قانون ، ورأيه فقه ، وما يدلي به صواب ، وإن افضى الى كل موبقة شريرة ...

واذ صار الإمام أمام تلك المسؤولية الهائلة ، الثقيلة بتبعاتها وبواعثها، صار في الوقت ذاته محل عتب الخليفة ، مثلما صار ملاذه ومرجعه عندما تشتد عليه الصروف والخطوب ، وما تجره عليه تصرفات مروان ، فيلجأ الى الإمام يلتمس منه العون ، فإذا ناله ، حملّه تبعة الغضب ، وسبب ما وقع من إقدام الاخرين عليه من كل حدب وصوب ، في شكاة من ولاته وعماله.

فلندع هذا بعض الوقت ، لنصل ما انقطع من الكلام في أمر اختيار عثمان للخلافة ، على ضوء ما اقترح واجتهد عمر لمصلحة المسلمين ..

* * *

لما طعن عمر في أواخر سنة ٢٣ هـ ، حصر الشورى بين ستة هم : علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن ابي وقاص وعبدالرحمن بن عوف ، واستدعى ابا طلحة الانصاري فقال ينظم طريقة الاختيار : كن في خمسين رجلا من الانصار حاملي سيوفهم ، فقف على باب البيت الذي فيه هؤلاء الستة ، ليتشاوروا ويختاروا واحدا منهم ، فان اتفق خمسة وأبى واحد فأضرب عنقه ، وان اتفق اربعة وأبى اثنان فأضرب أعناقهما ، وان اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة التي فيها عبدالرحمن بن عوف ، فارجع ما اتفقت عليه ، فإن أصرت الثلاثة الاخرى على خلافها فاضرب اعناقها ، وان مضت ثلاثةأيام ولم يتفقوا على أمر ، فأضرب اعناق الستة ، ودع المسلمين ليختاروا لانفسهم ، أي انه اصار الى المسلمين انفسهم اختيار خليفتهم اذا ما اخفق

هؤلاء وقطعت اعناقهم !

أما ما في هذه الشورى من قسر وإرغام عن طريق السيف ، الى الانتهاء من أمر ليس لهم رأي الى من خارجهم ، وقد يكون هناك من هم في بعض أهل الشورى هوى أو حدس أو ثقة فيه ـ فأمر لا اميل الى مناقشته فهذا أمر قد انتهى ...

فلما دفن عمر بن الخطاب ، جمعهم ابو طلحة ووقف على باب البيت، في خمسين من الانصار حاملي سيوفهم .

فقال طلحة : قد وهبت حقي من الشورى لعثمان .

فقال الزبير : قد وهبت حقي لعلي .

فقال سعد بن ابي وقاص : وانا وهبت حقي من الشورى لابن عمي عبدالرحمن .

فقال عبدالرحمن لعلي وعثمان : أيكما يخرج نفسه من الخلافة ويكون اليه الاختيار ؟ فلم يتكلم منهما أحد .

فقال عبدالرحمن : أشهدكم انني أخرجت نفسي من الخلافة على أن أختار أحدهما .

فقال لعلي : ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين .

فقال : بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي ، وقيل انه قال: أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي، وقيل أيضا انه قال : على جهدي من ذلك وطاقتي .

فعدل عبدالرحمن الى عثمان فقال : ابايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين .

فقال : نعم .

فبايعه وقال : السلام عليك يا امير المؤمنين !

فقال عليّ : حيوته حبورهن ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

فقال عبدالرحمن : يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا ..

وهكذا تمّ اختيار الخليفة الثالث والامام غاضب ساخط ، فلقد نحّي عن الخلافة للمرة الثالثة على التوالي ، وكان في كل منها يرجو ان يصير حقه هذه المرة اليه !

* * *

وما من شك عندي في ان الإمام ، كان قد عرف منذ اختيار اصحاب الشورى ، ان الامر سيخرج من يده ، وكان هذا واضحا لغيره ايضا .

ذلك انه لم يكن في واقع الحال للامام ، غير صوتين من الاصوات الستة : صوته وصوت الزبير .

أما اصوات الاربعة الباقية فلم تكن الى جانبه ، فطلحة لا يريده ، وعبدالرحمن بن عوف كان صهر عثمان ، وسعد بن ابي وقاص لا يخالف عبدالرحمن لانهما من بني زهرة ، وسعد لم يكن له هوىً في علي ..

وحتى لو ظفر الإمام بنصف الاصوات فان الأمر كان ينتهي الى الجهة التي فيها عبدالرحمن ..

لقد رأينا من ذلك عبر هذه الفسحة من حياة الإمام امورا كثيرة تستوقف النظر ، وأول ذلك ما حجب عن الامام من أمر الخلافة بعد وفاة النبي ، مع وجود وصيته به في غدير خم ... فكان الامر يلزم على الاقل ان يصار الى ما أوصى به الرسول ، وان يكون ذلك موضع كلام فيه ، اذا لم يكن مبتوتا فيه على رأي من اعترض عليه ...

فالاحتجاج بأن أمر المسلمين شورى ، وان الشورى هو الذي يقرر الخليفة ، ولا تصح الوصية أو الاستخلاف من قبل النبي، لان أمر ذلك الى شورى المسلمين ، فلماذا كان ذلك لابي بكر ، حين أوصى بخليفة معين من بعده ، وخصَّها بعمر بن الخطاب دون الرجوع أو ترك ذلك الى الشورى؟.

ثم لماذا كان من حق عمر بن الخطاب ان يرشح ستة ، يتم اختيار واحد منهم وعن طريقهم للخلافة ، أي انه يكون في النتيجة قد رشح وخص شخصا بعينه ليس للشورى فيه غير حد ضئيل ، هو حق اختيار واحد من ستة !

واذا قيل : ان انتظار الشورى ، والتطويل في أمر الاختيار عند وفاة الرسول ، كان يفضي الى بلبلة ، فلماذا لم تر الجماعة التي تولت الأمر ذلك ? فتقطعه بالرجوع الى استخلاف النبي عليا ، أو ايصاؤه به ، وترشيحه لها في حياته في أقل الفروض والاحتمالات ?! ثم لماذا لم تقع هذه البلبلة مع رجال الشورى الستة ، وقد امتد أمرهم ثلاثة أيام ، والمسلمون بدون خليفة ، فلم يتم اختيار عثمان الا في آخر اليوم الثالث ، وهو اليوم الذي كان ينتهي الامر بقطع رؤوسهم اذا لم ينتهوا مما عهد اليهم وأوكلوا به ..

وأرى لو ان الخلافة بعد النبي قد بُتَّ فيها ، ولم يحل احد بين النبي وكتابة الوصية ، بحجب الكتف والدواة عنه ، لصار الامر الى أفضل مما صار اليه من خلاف وجدل وضغائن وأحقاد وطمع بالرئاسة ، حتى ان بعضهم عاش ومات وهو لم يبايع الخليفة ، كسعد بن عبادة مثلا .

ولكن كان ما وقع ليأخذ التأريخ الاسلامي مجراه على النحو الذي جرى فيه ...

وجاءت خلافة عثمان ، فاشتدت معارضة الإمام تبعاً لما كان يقع في عهده من مخالفات ، يقوم بها الولاة والعمال وهم آمنون من كل مسؤولية. ولهم حماة في مركز الخلافة .

وكان بُعدُ العهد عن حياة النبي ، وما وقع من تراخ في بعض شؤون المسلمين ، قد جمع المستضعفين على الشعور بالظلم لانهم كانوا ضحيته . وقد تجمع هذا الشعور من المضاضة والحزن ، الى أن صار حقدا وغضبا ومطالبة بالعدل بحد السيف ، أو الخروج على الاسلام وعدم الاذعان لأوامره ونواهيه .

وتدفقت المعارضة على المدينة ، لا لأن الخليفة فيها ، بل لان الامام هناك واليه مرجع الشكوى ؛ فهو وجه من ألمع الوجوه الاسلامية ، وأكثر شخصياتها قوة ومنعة ومكانة ، بل قد صار أقوى من أي وقت آخر بمن تجمع من حوله ، حتى صار اليه من كان ضده يوم السقيفة أو لم يذكره .

ولقد صار هؤلاء وهؤلاء في صف الامام ، عندما وجدوا بالتجربة ما صار اليه أمر المسلمين في أمصارهم ، وما ابتدع مشاورو الخليفة من بني أمية ، من أسباب لجعل الحكم حكما مطلقا وتبرير الظلم ، فاستقطب المال والثراء مرة اخرى لدى فئات قليلة باغية تجمعه بالاثم والعدوان ، وتحرم من زكاته الاكثرية البائسة الجائعة ، وقد جاء الاسلام لانصافها ، فحرمت النصفة ليشتد غضبها تحت الحاح من بؤسها وحرمانها .

واذ وقف الإمام ما كان يقتضيه منه الاسلام ، ورفع شكاوى الناس ، والمضي قدما بالمطالبة بتحقيقها بالذات ، وتحديه كل ما هو جائر ومخالف ، جعل كل ذلك من الامام خصما تجاه الفئةالحاكمة المستبدة المستمدة سلطانها من سلطان الخليفة !

ولم تكن السلطة تستطيع ان تفعل لمعارضيها شيئا . فلقد كان قويا بنسبه ومكانته وفضائله وسابقته ، وقد ازدادت هذه القوة بما تجمع حولها من معارضة ناقمة ، فلم يسع الفئة الحاكمة الا ان تغض الطرف ، فتحاول معه المصانعة من دون جدوى !

ولقد قويت معارضة الامام للخليفة ، حتى ظهرت علانية مكشوفة في تحد شجاع ، عندما منع الخليفة ما هو من حق المسلم على المسلم في السفر من مساعدة وتوديع ومصاحبة .

من ذلك ان الخليفة — وقد أمر بنفي أبي ذر الغفاري من المدينة — قد أمر ألا يكلمه أحد في خروجه فنادى المنادي بذلك ، وأمر مروان ان يخرج معه الى ظاهر المدينة ، فتحاماه الناس الا عليا ،وعقيلا أخاه وحسنا وحسينا وعمار بن ياسر ، فأنهم خرجوا معه يشيعونه ، فجعل الحسن يكلمه فقال له مروان : ايهاً يا حسن ! ألا تعلم ان أمير المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل ؟ فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك . فحمل عليّ على مروان فضرب بالسوط بين اذني راحلته ، وقال : تنحّ لحاك الله الى النار !.. فرجع مروان مغضبا الى عثمان فأخبره الخبر فتلظى على عليّ .

ووقف ابو ذر فودعه القوم ، ومنهم أبو ذكوان مولى أم هانيء بنت أبي طالب . وقال الامام في وداعه لابي ذر : يا أبا ذر انك غضبت لله ، وان القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فامتحنوك بالقلى ، ونفوك الى الفلى ؛ والله لو كانت السماوات والارض على عبد رتقا ، ثم اتقى الله جعل له مخرجا . ثم نصحه فقال : يا ابا ذر لا يؤنسك الا الحق ، ولا يوحشك الا الباطل . ودعا بعد ذلك اصحابه وقال — ودّعوا عمكم . فودعوه باكين .

ولم يكن الامر الذي قام به الامام بالهين ، وهو يتحدى أمر الخليفة . ويتصدى لمبعوثه بالاهانة ، في وقت اشتد غضب الخليفة وأوغر صدره عليه. وهناك من يضاعف أسباب القطيعة والخلاف هنا وهناك .

اذن هكذا صارت الحال بين الخليفة والامام ، واذا كانت هناك من مساع حميدة للصفاء بين الرجلين ، فما أسرع ما كان يتعكر بعد حين ،كلما تجددت المخالفة هناك والمعارضة هنا . حتى اشتدت النقمة وكبرت ، وساق الغضب ناسا من مصر والكوفة والبصرة يأتون راكبين راجلين مساحين . يبتغون حلا استعصى فلا يجدون غير السيوف يقوّمون بها ما اعوج ومن حنث.

وجدو الامام نفسه في مركز حرج دقيق :

فهو بين غضب الجماهير الوافدة والقائمة ، تنشد النصفة ، وتطالب بحقوق هي لها بمحكم الكتاب ، وترى فيه أملها في اصلاح ما تشكو منه . وهذا ما يقتضي منه ان يقف ضد الخليفة ، الذي لا يستجيب لمطلب حتى يعود فيرجع عنه ، وعندما يعود الناس الى أوطانهم مؤملين خيرا ، محملين وعودا الى الولاة ، اذا بالكتب تسبقهم ، تطلب الى العمال والـولاة انزال كل كيد ونكر ، بمن قدم المدينة أو حمل الشكوى ..

وبين الخليفة الذي يعاتب ويغاضب ، ثم يهدأ حين يخلو بنفسه بعيدا عن مراوغات المراوغين ، ودسائس مروان ، فيسعى الى مرضاة الامام فيفلح حينا ويخفق حينا .

ان بعض المؤرخين والكتاب لم ينصفوا الامام كما يقتضي الانصاف ، لانهم أما جهلة أو مغرضون ، لان من يدرس وضع الامام ومركزه ذاك ، يشعر بكثير من القلق عليه مع الاعجاب به، وبتصرفه الحكيم ، وتوفيقه ما استطاع الى التوفيق ، بين الخليفة والغاضبين سبيلا .

لقد بلغ غضب الناس حدا ملأ المدينة ضجة توشك ان تنفجر ثورة ، ومل القادمون من الامصار طول الاقامة . ودب فيهم عدم الاطمئنان فاندفعوا يحاصرون الخليفة ويهددون دمه .

فلا يكاد الامام يصلح شأنا حتى يفسده وزراء الخليفة من بني امية ، وها هم هذه المرة مثل كتل الجبال على باب الخليفة ..

قال الواقدي : لما أجاب الناس على عثمان ، وكثرت القالة فيه خرج ناس من مصر في ألفين ، وكان هواهم في علي ، وناس من الكوفة في ألفين وكان هواهم في الزبير ، وناس من أهل البصرة لم يذكر عددهم وكان هواهم في طلحة ، فنزل المصريون ذا خشب ، والعراقيون ذا المروة .

وروى الطبري قال : لما نزل المصريون ذا خشب ، يريدون قتل عثمان، ان لم ينزع عما يكرهون ، وعلم عثمان ذلك جاء الى منزل علي فقال : يا ابن عم ، ان قرابتي قريبة ، ولي عليك حق ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وهم مصبحي ، ولك عند الناس قدر ، وهم يسمعون منك ، واحب ان تركب اليهم وتردهم عني ، فإن دخولهم علي وهناً لأمري وجرأة علي .

فقال علي : على أي شيء أردهم ؟

قال : على أن اصير الى ما اشرت به ورأيته لي .

فقال علي : اني قد كلمتك مرة بعد أخرى . فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع ، وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبدالله بن سعد فأنك اطعتهم وعصيتني .

فقال عثمان : إني اعصيهم واطيعك .

فأمر علي الناس ان يركبوا معه ، فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين والانصار ، فأتوا المصريين فكلموهم . فكان الذي يكلمهم علي ومحمد بن

مسلمة : فسمعوا منهما ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر ، ورجع علي حتى دخل على عثمان ، فأشار عليه ان يتكلم بكلام يسمعه منه ، ليسكتوا الى ما يعدهم به من النزوع ، وقال له : ان البلاد قد تمخضت عليك ، ولا آمن ان يجيء ركب من جهة اخرى ، فتقول : يا علي اركب اليهم ، فان لم افعل رأيتني قد قطعت رحمك ، واستخففت بحقك .

فخرج عثمان فخطب الخطبة التي اعطى الناس فيها من نفسه التوبة ، وقال لهم : أنا أول من اتعظ واستغفر الله عما فعلت . وتاب اليه ، فليأتني اشرافكم فليروا رأيهم وليذكر كل واحد ظلامته لاكشفها وحاجته لأقضيها . والله لاعطيتكم الرضا ولأنحيّن مروان وذويه ..

فلما نزل ، وجد مروان وسعدا ونفرا من بني أمية في منزله ، وقد بلغتهم الخطبة ، فقال مروان : أأتكلم أم اسكت فقالت نائلة بنت الفراقصة امرأة عثمان : لا بل اسكت ، فأنتم والله قاتلوه وميتّموا اطفاله .

ودارت مشادة بينها وبين مروان ، فأعرض عثمان بوجهه عنه بعض الوقت ، ثم عاد اليه وقال : تكلم !!

فقال : بأبي انت وامي ، والله لوددت ان مقالتك هذه كانت وانت ممتنع ، ولكنك قلت ما قلت ، وقد بلغ الحزام الطبيين . ما زدت على ان جرأت عليك الناس .

قال عثمان : ان الفائت لا يرد ولم آل خيرا .

فقال مروان : ان الناس قد اجتمعوا ببابك امثال الجبال ، قال : ما شأنهم ؟

قال : انت دعوتهم ، فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل ..

قال : فأخرج انت اليهم فكلمهم ، فأنا استحي ان اكلمهم وأردهم ، فخرج مروان الى الناس .

فقال : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شاهت الوجوه ! أتريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا ? اغربوا عنا ! وتهددهم .

فرجع الناس خائبين يشتمون عثمان ومروان ، وأتى بعضهم عليا ، فأخبره الخبر ، فأقبل علي على عبدالرحمن بن الاسود الزهري ، فقال : أحضرت خطبة عثمان ?

قال : نعم .

قال : أفحضرت مقالة مروان للناس ?

قال : نعم .

فقال : أي عباد الله ، يا لله للمسلمين ، اني ان قعدت في بيتي ، قال لي تركتني وخذلتني ، وان تكلمت فبلغت ما يريد ، جاء مروان يلعب به حتى صار سيقة له ، يسوقه حيث يشاء ، بعد كبر السن وصحبة الرسول.

وقام مغضبا من فوره ، حتى دخل على عثمان فقال له : أما يرضى مروان منك الا ان يحرفك عن دينك وعقلك ، فأنت معه كجمل الظعينة ، يقاد حيث يسار به .

والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا عقله ، واني لأراه يوردك ثم لا يصدرك ، وما انا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، افسدت شرفك وغلبت على رأيك .. ثم نهض ، فدخلت نائلة فقالت :

قد سمعت قول علي لك ، وانه ليس براجع اليك ولا معاود لك، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء !

قال : فما أصنع ?

قالت : تتقي الله ، وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك . وليس لمروان عند الناس قدر ولا هيبة ، وانما تركك الناس لمكانه ، وانما رجع عنك أهل مصر لقول عليّ . فأرسل اليه فاستصلحه ، فان له عند الناس قدما وانه لا يعصى ...

فأرسل الى علي فلم يأته ، وقال : قد أعلمته اني غير عائد .

قال الطبري : فجاء عثمان الى علي في منزله ليلا ، فاعتذر اليه ووعد من نفسه الجميل وقال : اني فاعل واني غير فاعل .

فقال علي : أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله (ص) ، واعطيت من نفسك ، ثم دخلت بيتك ، فخرج مروان الى الناس يشتمهم على بابك ؟!

فخرج عثمان من عنده وهو يقول : خذلتني يا ابا الحسن وجرأت الناس عليّ ! فقال علي والله اني لاكثر الناس ذبا عنك ، ولكن كلما جئت بشيء أظنه لك رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله ، وتركت قولي .

ولم يعد علي الى نصر عثمان ، الى ان منع الماء ، واشتد الحصار عليه. فغضب علي من ذلك غضبا شديدا وقال لطلحة : أدخلوا عليه الروايا ..

فكره طلحة وساءه ، فلم يزل علي حتى ادخل الماء اليه .

وروى الواقدي والمدائني وابن الكلبي وغيرهم : ان عليا لما ردّ المصريين ، رجعوا بعد ثلاثة ايام ، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص . وقالوا : وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف بـ « التويت » على بعير من ابل الصدقة ، ففتشنا متاعه لإنا استربنا أمره فوجدنا فيه هذه الصحيفة ، ومضمونها : أمر عبدالله بن سعد بن ابي السرح «عامل مصر من قبل عثمان» بجلد عبدالرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وحلق رؤوسهما ولحاهما وحبسهما ، وصلب قوم آخرين من أهل مصر .

وجاء الناس الى علي وسألوه ان يدخل الى عثمان فيسأله عن هـذه الحال ، فجاء فسأله ، فأقسم عثمان بالله : ما كتبته ولا علمته ولا امرت به.

فقال محمد بن مسلمة : صدق ، هذا من عمل مروان .

فقال : لا ادري .

فقال المصريون : افيجترىء عليك ويبعث غـلامك على جمـل من ابل الصدقة وينقش على خاتمك ، ويبعث الى عاملك بهذه الامور الفظيعة وانت لا تدري ؟!

قال : نعم .

فقالوا : ان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به بغير حق ، وان كنت صادقا استحققت الخلع لضعفك .

وكثرت الاصوات واللغط ، فقام علي واخرج أهل مصر معه وخرج الى منزله .

قال الواقدي : وأحاط المصريون والكوفيون والبصريون بعثمان وحصروه وخرج عثمان يوم الجمعة ، فصلى بالناس ، وقام على المنبر فقال : ياهؤلاء ان أهل المدينة يعلمون انكم ملعونون على لسان محمد (ص) ، فامحوا الخطأ بالصواب ، فقام محمد بن مسلمة فصدقه ، فأقعده حكيم بن جبلة ، وقام زيد بن ثابت فأقعده قتيرة بن وهب ، وثـار القوم فحصبوا النـاس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صرع على المنبر مغشيا عليه فأدخل داره .

وأقبل علي وطلحة والزبير ، فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته ويتألمون له ، وعند عثمان نفر من بني أمية منهم مروان بن الحكم ، فقالوا لعلي : أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت ، والله ان بلغت هذا الامر الذي

تريده ليمرن عليك الدنيا ، فقام مغضبا ، فخرج وخرج الجماعة الذين حضروا معه الى منازلهم •

وروى الطبري : ان عمرو بن العاص كان شديد التحريض والتأليب على عثمان ، وكان يقول : والله إن كنت لالقى الراعي فأحرضه على عثمان . فضلا عن الرؤساء والوجوه • فلما سعّر الشر في المدينة خرج الى منزله في فلسطين ، فبينما هو في قصره ومعه ابناه ، اذ مرّ به راكب من المدينة ، فسألوه عن عثمان فقال قتل ، فقال عمرو : انا ابو عبدالله اذا نكأت قرحة ادميتها •

وروى الطبري في تاريخه : ان عليا كان في ماله بخيبر لما حصر عثمان . فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة ، قال : كان لطلحة في حصر عثمان اثر ، فلما قدم علي ، أتاه عثمان وقال له : ان لي حق الاسلام وحق الاخاء والقرابة والصهر . ولو لم يكن من ذلك شيء ، وكنا في جاهلية ، لكان عارا على بني عبد مناف ان يبتز بنو تيم أمرهم •

فقال له علي : أنا أكفيك ، ثم خرج الى المسجد ، فقال له يا طلحة . ما هذا الامر الذي صنعت بعثمان ؟

قال : يا ابا حسن بعد ان مسّ الحزام الطبيين •

فانصرف علي حتى اتى بيت المال ، فقال : افتحوا ! فلم يجدوا المفاتيح ، فكسر الباب وفرق ما فيه على الناس • فانصرفوا عن طلحة حتى بقي وحده ، وسُرّ عثمان بذلك •

وجاء طلحة الى عثمان تائبا • فقال : ما جئت تائبا بل مغلوبا ، الله حسيبك •

وقد روى الطبري ايضا عن عبدالله بن عياش بن ابي ربيعة المخزومي . قال : دخلت على عثمان ، فمر طلحة ، فقال اليه ابن عديس البلوي فناجاه ثم رجع ابن عديس ، فقال لأصحابه : لا تتركوا أحدا يدخل الى عثمان ولا

يخرج من عنده .

فقال لي عثمان : هذا ما أمر به طلحة لهم ، اكفني طلحة ، فانه حمل هؤلاء القوم والبّهم عليّ ، والله لأرجو ان يكون منها صفرا وان يسفك دمه .

وقال الطبري في مقتل عثمان : كتب عثمان الى معاوية وابن عامر وامراء الاجناد يستنجدهم فتربص به معاوية ، وكان عثمان قد استشار نصحاءه في أمره فأشاروا ان يرسل الى علي ، ويطلب اليه ان يرد الناس ويعطيهم ما يرضيهم ، ليطاولهم حتى يأتيه الامداد .

فقال : انهم لا يقبلون التعليل وقد كان مني في المرة الاولى ما كان .

فقال مروان : اعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فانهم قوم قد بغوا عليك ولا عهد لهم .

فدعا عليا وقال له : قد ترى ما كان من الناس . ولست آمنهم على دمي ، فأرددهم عني ، فاني أعطيهم ما يريدون من الحق من نفسي ومن غيري .

فقال علي : ان الناس الى عدلك أحوج منهم الى قتالك ، وانهم لا يرضون الا بالرضا ، وقد كنت أعطيتهم من قبل عهدا فلم تف به ، فلا تغرر في هذه المرة فاني معطيهم عنك الحق .

فقال : اعطهم فوالله لأفيّن لهم .

فخرج علي الى الناس فقال : انكم انما تطلبون الحق وقد اعطيتموه ، وانه منصفكم من نفسه ، فسأله الناس ان يستوثق لهم ، وقالوا إنا لا نرضى بقول دون فعل .

فدخل عليه فأعلمه ، فقال : أضرب بيني وبين الناس أجلا .

قال : لا اقدر على تبديل ما كرهوا في يوم واحد .

فقال علي : اما ما كان بالمدينة فلا أجل فيه ، واما ما غاب فأجله وصول

امـــرك .

فقال : نعم ، فأجلني فيما بالمدينةثلاثة ايام ، فأجابه الى ذلك . وكتب بينه وبين الناس كتابا على رد كل مظلمة وعزل كل عامل كرهوه ، فكف الناس عنه ، وجعل يتأهب سرا للقتال ، ويستعد بالسلاح ، واتخذ جندا .

فلما مضت الايام الثلاثة ولم يغير شيئا ثار به الناس ، وخرج قوم الى من بذي خشب من المصريين فأعلموهم الحال فقدموا المدينة .

قال الطبري : ثم ان محاصري عثمان اشفقوا من وصول اجناد من الشام والبصرة تمنعه ، فحالوا بين عثمان وبين الناس ومنعوه كل شيء حتى الماء. فجاء علي في الغلس ، فوقف على الناس فوعظهم وقال : ان الذي تفعلون لا يشبه امر المؤمنين ولا امر الكافرين وان الفرس والـــروم لتأســر فتطعم وتسقي ، فالله الله لا تقطعوا الماء عن الرجل ، فأغلظوا له وقالوا : لا نعم ولا نعمة عين .

فلما رأى منهم الجد رمى بعمامته الى دار عثمان ، يعلمـــه انه قد نهض وعاد .

وقال الطبري : وبقي عثمان ثلاثة ايام لا يدفن ، ثم ان حكيم بن خزام وجبير بن مطعم كلـّما عليا في ان يأذن في دفنه ففعل ، فلما سمع الناس بذلك قعد لهقوم في الطريق بالحجارة ، وخرج ناس يسير" من أهله ومعهم الحسن ابن علي وابن الزبير بين المغرب والعشاء فأتوا به حائطا من حيطان المدينة يعرف بحش كوكب خارج البقيع فصلوا عليه ، وجاء ناس من الانصـــار ليمنعوا من الصلاة عليه ، فأرسل علي فمنع من رجم سريره ، وكفّ الذين راموا منع الصلاة عليه .

ولقد فصـّل الامام أمر عثمان بهذه العبارة الجامعة القوية البليغة فقال

« استأثر فأساء الاثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع .. » فكان في هذه العبارة ، الموجزة البليغة ، تاريخ الرجل ومأساته ، ودعوى من حفبه ومن تأمر عليه ، ومن صرعه من هؤلاء وهؤلاء .

* * *

فنحن نرى في مجريات الحوادث في عهد عثمان ، ان شخصية الامام كانت في تلك الايام في اوجها من القوة ، ومن حولها القوى الساخطة على الخليفة ، سخطا جعلهم يتكتلون على باب منزله كأمثال الجبال . ويمنعون عنه اسباب الحياة ...

وتبعا لذلك كان الإمام في مركز دقيق جدا ، فهو أمل الساخطين القادمين من الامصار ، بثورة يبغون بها هذه المرة شيئا لا بد منه ، ولا مناص من تحقيقه قبل رجوعهم ، ولا بد ان يكون السخط على الخليفة ، عن طريق اسواء عماله في الامصار ، قد بلغ الذروة بحيث قاموا الى السلاح يبغون به ما لم تنفذ معه الكتب والشكاوى والرسل والوفود ..

واذا كان الامام قد اصبح في نظر هؤلاء القادمين الناقمين ، الامل والمرجع ، فقد صار عليه ايضا عبء حماية الخليفة ، وردهم عنه بكل ما في مستطاعه ففعل :

نصح الخليفة وعلمه ما يجب ان يعمل .. فأسند مركزه بما له من مركز مرموق ومكانة ومهابة ، عرّضها جميعا للخطر والانتقاص ، أمام اسلحة تقعقع في أيدٍ لا تصغي الى موعظة ، بعد ان أعياها اليأس وطول الانتظار .

فكان الامام اذا ما ردم هوة واحدة في طريق التفاهم ، حفر مشاورو الخليفة من بني أمية مائة حفرة ، لايقاع من أريد مصالحتهم ودفعهم عن الخليفة .

ولقد صار الإمام عرضة لنقد الناقمين . بسبب وعود اعطاها الخليفة ولم يف بها . وهم بعدُ حُضّار في المدينة لم يشرقوا أو يغربوا الى ديارهم .. وحتى سبقتهم كتب مزوّرة بختم الخليفة ، تأمر بصلب كبرائهم وقادتهم، وحاق انحاهم والسخرية بهم وحبسهم ..

وحين لم يجد الإمام ما يرد به ، من حفّ بالخليفـة من خصـوم ، يتجمعون لدى طلحة في بيته ، ووجهتهم دار الخليفة ، أسرع الامام وفتح أمامهم بيت المال ، وحتى كسره ليوزع ما فيه ؛ وبذلك استطاع أن يفرّق جمع من كان مع طلحة في داره ، يأتمرون بالخليفة مهددين .

وأريد ان أقف بعض الوقت ، عند هذا العمل الذي قام به من أجـل حماية الخليفة ، وهو كسر ابواب بيت المال وتوزيع ما فيه ، فان ما قام به الإمام على ما اتسم به العمل من رأي وحكمة ، لصالح الخليفة ، ورد الكيد والشر عنه ، فلم يكن من حق أحد ان يحطمّ اقفال بيت المال ، ويوزع ما فيه على الساخطين ، لينفكوا عن تجمعهم عند طلحة ، وقد تحقـق ما اراد الامام فتفرّق الناس عن طلحة . فان ما في بيت المال هو حق من له حـق فيه ، وقد لا يكون بين من أصاب منه شيئا كثيرا ، من له حق في جزء مما أُخذ ! فهو مال اليتامى والارامل والمجاهدين في سبيل الله وابن السبيل . وبالمعنى المعاصر : مال الشعب ، كل الشعب المسلم اينما كان ، لانه جمع من أجله . ولا يجوز نثره هكذا بين أيدي هؤلاء ، لرد ثورتهم وغضبهم عن الخليفة ، ولو لم يقترن العمل بعد ذلك بموافقة الخليفة ، لـكان على الامام أن يرد كل ذلك المال الى بيت المال من كيسه .

فليس من حق أحد ، مهما سمت منزلته وعفته، ان يوزعه كيفما اتفق. ولمستحقيه وغير مستحقيه ...

ولا أدري ماذا يقول بعض من ينسب الى الإمام ، التهاون والتقاعد عن نصرته ، عند مهاجمة داره ، أمام هذه الفعلة الخطيرة التي تدل وحدها، على مقدار ما بذل الإمام من أجل الذود عن الخليفة فأغراهم بالمال، عندما عجز عن رذهم عن غير ذاك الطريق . وعندما رآهم يسدون عليه الابواب والطرق ، في مثل الجبال كتلا ، من البشر الحانق الغاضب الجائع .

وكيف يكون الدفاع عن الخليفة ، وهو يخترق حصار الثائرين الساخطين ، فيصل اليه بالروايا ما قدر ، فيعظهم ويؤنبهم ويذكرهم بعملهم الذي لا يشبه عمل الفرس والروم لاسراهم ؟..

وكيف يكون الدفاع عن الخليفة وقد ارسل الإمام ولديه الحسن والحسين مسلحين لنجدته، فردهما مع من رد ، لانه لم يرد اراقة دم الاخرين في سبيله ..؟

وعدا ذلك فان مقتل عثمان ، جرى عن طريق ناس من القادمين الى المدينة ، تسوروا عليه الجدار ونزلوا فصرعوه في محل وجوده ، وكثير من الذادة عنه واقفون في الباب لمنع الداخلين عليه . — فلم يعرف بعضهم من فرط اللغط والهياج بمصرع الخليفة الا بعد تمامه !

لقد ألقى الإمام بكل ثقل شخصيته في المعركة — معركة الدفاع عن الخليفة — ورد الكائدين له ، وابعاد من رام قتله وخلعه .. فعمل وتوسط واستكتب ووعظ ، واخذ عن الخليفة عهدا ، اسكت هذه الزمرة واقنع تلك ، فخرج وعاد ، وعاد وطلب اليه الخليفة ان يخرج .

ركب لاقناع المصريين وابعاد الكوفيين .. نصح طلحة وآخذه . . اجتمع بمن يستطيع ان يرد عن الخليفة ما بيت له من شيء ، جراء مكائد وشرور من كان يحف به ..

ولقد نهض الإمام بكل ما يلزم ، للذب عن الخليفة حيا وميتا ، حين عمل على دفنه ، والصلاة عليه بعد أن منع دفنه ثلاثة ايـام ، وكف أذى المتطاولين على نعشه وسريره ، ومنع حاصبيه ، وأتاح الفرصة أمام مشيعيه للصلاة عليه قبل دفنه ، وكان ذلك من الصعوبة بمكان .

ولقد انتهى الرجلان ، كل بعمله ، والله تعالى هو الحكم العدل فيما وقع ، فقد كان الامام في موقفه الدقيق المؤلم ، منصفا مع الخليفة محسنا اليه ، وجزاء الحسنة عند الله عشرة امثالها ...

* * *

وبمقتل عثمان بلغ الاضطراب والقلق أوجه ، حتى صار أمر وجـود القادمين من الامصار خطرا أي خطر . ولقد لاحت بوادر ذلك في أكثر من فتنة ، وقد شاعت الشائعات وراجت الاكاذيب وانتشرت المخاوف ، وبلغ سمع رجال الامصار مقدم جيش من الشام بعث به معاوية في اربعة الاف رجل ، لمساعدة عثمان فملأوا الارض بالغضب والضجيج ..



الفصل الرابع

الفصل الرابع

كان طلحة في مقدمة من أثار الناس على الخليفة ، وهو الذي كان قد كتب الى الامصار يستحث المسلمين على المجيء الى المدينة ، والنظر في ما صار اليه أمر خليفتهم .

وكان من في الامصار يعرفون ذلك ويقاسون منه في أمصارهم ، فوجدوا في الدعوات الآتية من المدينة ، المحرضة على نوع جديد من الجهاد ، في سبيل تقويم دين الله ، وقد انحرف به وزراء عثمان ..

ولا شك عندي ان طلحة بعد مقتل عثمان قد اطمأن بعض الشيء الى انه بالغ ما كان يهوى ، وأنه صائر الى الخلافة .. فاذا كانت قد فاتته يوم الشورى وصارت الى عثمان ، فهو اليه اليوم أقرب !

ولكن الناس كانوا لا يرون ما يراه هو في نفسه ، وكانوا يعرفون الرجل الذي يجب أن تصير اليه ، بعد ان حجبت عنه المرة بعد الاخرى .

فقد خفَّت الوفود والوجوه نحو بيت الامام ، وازدحم الناس على بابه ، ينادونه ويهتفون له بالبيعة ، ويمدون ايديهم اليه بحرارة .

في حين كثر اللوم والتلاوم على طلحة والزبير ، فدافع طلحة عن نفسه في خطاب اوجز فيه السبب ، وبرر ما وقع ، وكانت نفسه لا تزال في هوى الخلافة ...

أما الزبير فكان تصرفه ينم عن عقل وحكمة ، فقد رأى اضطراب

الناس وانفضاضهم عن طلحة ، وظهور من يلومه على ما وقع للخليفة ، كما رأى ان الرأي في شبه اجماع على اختيار الامام علي للخلافة ، فنهض واقفا وقال : ايها الناس ان الله قد رضي لكم الشورى فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا عليا ، فبايعوه . وأما مقتل عثمان فأنا نقول فيه ان امره الى الله وقد احدث احداثا والله وليه فيما كان .

« فقام الناس فأتوا عليا في داره ، فقالوا : نبايعك فمد يدك ، لا بد من امير فأنت أحق بها . فقال : ليس ذلك اليكم ، انما هو لاهل الشورى وأهل بدر ، فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة »

وأعاد الناس الكرّة على الامام ، فلقد خشوا ثــورة كل امريء في ناحية ، فلا تؤمن العاقبة على المسلمين ! وقدموا عليهم الاشتر النخعي ، فقال : ابسط يدك نبايعك .

وحف به الناس يلحفون ويتوسلون ويصورون ما سيصــير اليه أمر الناس في المدينة وفي الامصار ، فمد يده فبايعوه ، وكان الاشتر في مقدمتهم . ثم اتوا طلحة فقالوا له : اخرج فبايع ..

قال : من ؟

قالوا : عليا ..

فامتنع عليهم أولا .. ثم بايعه بلسانه ويده الشلاء وكانت بيعته للامام في المسجد بعد ان اسقط في يده ، وبعد ان رأى الاكف تتساقط بالبيعة للامام وهو في مزدحم من الناس .

وكان أول عمل قام به الامام ، ان دعا الناس ، وأمر بطلب مروان فهرب ، وطلب نفرا من بني أمية وابن ابي معيط فهربوا ، ثم جاء الى امرأة عثمان ، فقال لها : من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدري ، دخل عليه رجال لا اعرفهم الا

ان أرى وجوههم ..

فما كادت عائشة تسمع بمقتل عثمان وهي في طريقها من مكة الى المدينة ، حتى صاحت باكية : قتل عثمان ؟ رحمه الله !

فقال لها عمار : بالامس تحرضين عليه الناس واليوم تبكينه ؟!

وخرج طلحة من المدينة ولقي عائشة ، فقالت له : ما صنع الناس ؟

قال : قتلوا عثمان .

قالت : ثم ما صنعوا ؟

قال : بايعوا عليا ثم أتوني فأكرهوني وليّبوني حتى بايعت !..

قالت : وما لعلي يستولي على رقابنا ؟! لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان .. ورجعت من توّها .

وهكذا قوبلت خلافةالامام منذ البداية .. بيعة بالاجماع من المسلمين من القادمين من الامصار أو الموجودين في المدينة ، ونفر قليل شذ لغاية ومطمح أو عداوة ..

واتجهت عائشة الى مكة ، تثير الناس في عجاجة كثيفة من العداء ، والخطب الحماسيةالمثيرة ، تعتليجملها وهو لها مقامومنبر ، تبكي وتستبكي وتثير الناس ...

وأقبل طلحة من المدينة ليكون الى جانبها في دعوتها بدم عثمان والثأر له .. وقد جاءت الفرصة التي كان يتوق اليها .. وهكذا نزع بيعته بعمله وموقفه العدائي كما توقع منه الامام ذلك ..

وما كاد نبأ مقتل عثمان وتولي الامام الخلافة يصل الامصار ، حتى دب الفزع الى الولاة من بني أمية .. فتصلب منهم من استطاع التصلب والتحدي مثل معاوية في الشام ، وهرب من استطاع الهرب مثل « يعلى بن

منبه » عامل عثمان على اليمن .. لا ليهرب حسب بل يحمل معه كل ما كان في بيت مال المسلمين من مال ، وقد عد ستمائة الف دينار ..

فأقبل المعارضون والذين توقعوا ان تنال منهم عدالة الامام في عدالة الاسلام ، يتجمعون في مكة ، يحفون بعائشة ويجمعون الانصار لمحاربته ، في حجة واهية هي مطالبتهم بدم عثمان من قاتليه ، وليس لهم حق في هذا ، فحقه صائر الى إمام المسلمين وعليه ان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ..

ولم يفسحوا له من الوقت ما يستطيع ان يحقق ويدقق ويبحث ويلاحق في وقت كان على الإمام ان يقوم بالكثير فيهدىء من في المدينة ، ويطمئن العائدين الى أمصارهم الى دينهم وحقهم في دنياهم وحقوقهم .. وأهم من ذلك ان يبدّل في العمال والولاة وهم أصل ما اصاب المسلمين في ديارهم من جور ، وما أدى اليه من سخط ، انتهى بما انتهى اليه أمر عثمان ..

وفي وسط تلك المشاغل الكثيرة الثقيلة من تبعة ملؤها المشاق ، وفي جو لا يزال يعج بالاضطراب وبوادر الفتنة خرجت عائشة عليه بمعارضتها ، وقد بهرها أن تجد سَمَعة وصاغية : في طلحة وهو طامع .. وفي « يعلى ابن منبه » وهو هارب بمال المسلمين من صنعاء، وقد نثره بشيء من اللوعة والسخاء ، يجهز به أو ببعضه رواحل لمن ليست له راحلة ، ويشتري سلاحا لمن ليس له سلاح . ويكتب طلحة الى البصرة بمقدمه وشخوصه اليها ، ويراسل من فيها من وجوه وعليّة وشيوخ قبائل ... في وقت يرفع فيه معاوية عليه راية العصيان ، ويعد له جيشا عرمرما لينتزع الخلافة تحت شعار المطالبة بدم عثمان من قتلته .. وقد حانت فرصته التي كان يرنو اليها ويتوق ، ودنت المناسبة التي يتحدى فيها الخليفة وينتزع منه ملكا يقيمه لنفسه وذريته في الشام ، وكان خلال عمالته لها ، وهي عمالة طويلة قد

كسب قلوب أهل الشام ، واغدق على سراتها والمتنفذين فيها الكثير من مال ليس لهم حق فيه ..

وهكذا تشابكت المطامع في جو حادثة مريعة لم تكن تحصل ، لو كان نصاح الخليفة القتيل وزراء نصح وعدل واسلام ..

وما كان هذا ليقع لو أن معاوية سحب اليه مروان بن الحكم ، وهو أكثر المؤثرين على عثمان في حياته ، واكثرهم افسادا لأمره .. ولكن مروان كان عينا لمعاوية في مركز الخلافة .. وكانت بنو امية حزب معاوية الحاكم الحقيقي في المدينة .. وكان الخليفة من أمرهم في قلق ، يتبعهم وهو مصدق لهم . وينأى عن الإمام الناصح له ولمركزه ودينه فلا يطيع الا ليخلف تحت وقع مشاوريه من امثال مروان !..

ولقد انتظر معاوية مثل هـذا الموقف ، بل وكما يقول بعض النقـاد والمؤرخين ، ان لمعاوية يدا أي يد في مقتل عثمان ، لتصـير اليه الفرصـة الذهبية يلج منها الى ملكه .. ويخلع على نفسه كل مظاهر الملكية ويستقل ببلادالمسلمين على المدى البعيد .. فمما لا شك فيه ان معاوية قـد تلكأ ، وتربص في ارسال المعونة الى الخليفة من الشام لفك الحصار عنه ، ونجدته في مركزه الضعيف .. فلم يتحرك جنده في النجدة الا والامر قد انتهى أو كاد .. فقد بلغه مصرع الخليفة وجنده لم يغادر الشام الا قليلا .. فأمره بالعودة ليستجمع قواه كلها استعدادا لمواجهة الخليفة وقد نشر أمامه لواء العصيـان !

وسار جيش عائشة وطلحة الى البصرة .. وهو يلم في الطـريق كل شارد وتائه ممن لا عمل له . فيعطي سيفا ويحمل على راحلة حتى استقام من هذا وذاك جيش كثيف نزل البصرة ..

فماذا يصنع الامام ؟. كيف يعالج أمر المسلمين ويقوّم ما اعوج وانهار وانحرف ، ما لم يبسط اولا سلطان المسلمين . وأمر خليفته في بقاع ارض الاسلام ؟ وكيف يستطيع احقاق حق واقامة عدل وادانة منهم وقصاص قاتل أو جارح ، دون ان تكون له الامرة والكلمة الحاسمة فيها ..؟

اذن فقد كان طبيعيا ان يتصدى لهؤلاء الخارجين عليه بالحرب يردهم الى جادة الصوب بالسيف بعد ان سخروا بالحجة ، ومضوا الى غاياتهم دون تفكير ، بما سيقودون اليه المسلمين في عملهم هذا وذاك !

وكان عليه ان يواجه أحد الخصمين المتأهبين لقتاله . فعمل الفكر ، ودرس الاوضاع ، وقارن بين المعسكرين من جميع الوجوه ، فرأى ان يتوجه الى البصرة ، يرد من وصل اليها بالحجة ما استطاع ، فأخذ طريقه الى الكوفة يستزيد فيها من قوة جنده بما اضافه اليهم من عسكر الكوفة ..

وكان الامام دون ريب على حق ، وبعيد نظر في اختياره اخماد فتنة المتجهين الى البصرة ، لسببين جوهريين : اولهما أن جيش طلحة كان مع ما تجمع حوله ، قليل العدد بالنسبة الى جيش معاوية وتنظيمه ، وكان طلحة على ما له من نفوذ لدى بعض سادات البصرة ، قليل الحظ في حب الناس له هناك .. وكن مركز قوته وجود عائشة في ركبه ، وكان هذا مقلقا له ، فاذا افلحت عائشة بما عرفت به من لباقة في الخطاب يستهوي الاسماع ، ولما لها من مركز في قلوب المسلمين ربما افلحت بمكائد طلحة ان تكسب البصرة وتنحدر الى الكوفة .. وتستولي على العراق .. وهذا ما كان ينشده طلحة ، ــ ففي العراق كما قال الامام ــ المال والرجال .. وهل نجاح الحرب الا في هذين !..

والسبب الثاني ان معاوية كان بحاجة الى وقت ، فهو صابر على

مضض ، الى ان يتمكن من اعداد الناس واثارتهم لمحاربة الخليفة ، وقد وصله قميص عثمان المدمّى ، فوضع في أعلاه أصابع نائلة المقطوعة ، ونشره لواءا لاستثارة حمية أهل الشام ، وأقام في دمشق المناحات ، واستأجر الشعراء والنادبين والنادبات ، يبكون الصريع الشهيد الذي يجب الا يذهب دمه هدرا !..

وكان تقدير الامام لهذا العامل في مكانه ، بل كان مصيبا ، حتى في مقدار ما يحتاج فيه معاوية الى التجمع والاعداد ، فسارع الى البصرة ليقضي او ينهي عصيان طلحة بأسرع ما يمكن ، ليعود الى مواجهة معاوية في الشام ، قبل أن يستفحل أمر دعوته ويستجمع شتات الناس ، وينهض بهم الى القتال طلبا لدم عثمان ، ووصولا بذلك الى خلافة كان يستعد لجعلها ملكية وراثية ، على خلاف ما تأمر به شريعة الاسلام !..

فلننظر الى ما وقع في البصرة وقد بلغها الطرفان . فمن خلال ما وقع نستطيع ان نرى بوضوح وحياد دواعي القتال في كلا الطرفين .. وشخصية الامام واثرها في الكلام والخصام والحرب التي انتهت لمعسكر طلحة وعائشة بهزيمة ما بعدها هزيمة ..

* * *

ونحن في الحقيقة لا نؤرخ لهذه الاحداث ، الا بقدر ما له من أثر في موقف الامام من هذه الحرب ، والا ففي الكتب المؤلفة متسع للتفصيلات ولاسماء الاشخاص والأعوان والمثيرين والخطباء والشعراء في كلا المعسكرين . ولا نريد اعادة ما هو مفصل في معظم كتب التاريخ عن هذه الواقعة .

فنظرتنا اليها اذن نظرة من حيث هي قضية مؤلمة ، شقت في صفوف المسلمين شقا كبيرا ، لم يردم عبر قرون . وادى في حينه الى كثير من

الويلات والخسائر في الاموال والارواح ، ما كان اغنى المسلمين عنها لو لم تقع ، وما كانت لتقع لولا الطمع في الخلافة من جانب طلحة ، ثم الطمع في الولاية والعمالة ، وقد اخفق في الوصول الى الخلافة .

وطمع الزبير مثل طمع طلحة بالولاية وقد منعهما الامام من ذلــك . وأراد الاحتفاظ بهما معه للاستشارة برأيهما كما قال . وهل من منزلة أكبر من ذلك ، لو بقيا الى جانب الامام في المدينة ، في مشاركة واضحة معه في الحكم ، عن طريق اسداء المعونة والمشورة بما لهما من وجاهة وسابقة !؟.

ولكنها حب الامارة . وما تجذّر وكبر في نفس طلحة من طمع ، بعد ان وضع في زمرة الشورى فوجد نفسه أولى من غيره في الامر ..

وهل كان طلحة فقيرا الى مال ؟ ابدا ، كان من أغنى اغنياء المسلمين .. وهل كان بحاجة الى مجد وجاه وهو من المقربين الى الخليفــة ، وفي سابقته ما فيه كل كفاية لمجد يتوق اليه قليل الصبر كبير الطمع !

والزبير ما شأنه وهو من حواري رسول الله ومن العشرة المبشرة بالجنة .. وهل هو فقير الى جاه أو ثروة ؟ لا ، ابدا ، فلم يكن ليشكو من أي ضيق ، بل كان في سعة من العيش وفي رخاء وبلهنية . فلماذا جاء الى البصرة في رأس ذلك الجيش العدواني ، الذي خرج على الاجماع ليقاتل خليفــة المسلمين دون حق أو حجة ، والحجة الى جانب الامام ، والحق اليه في أخذ الحقوق ؟. وهل كان الزبير يجهل ذلك ؟. هل كان قليل معرفة بما سيؤدي اليه الخصام ؟.. وهل كان ضعيفا في دينه ، حتى تغريه الدنيــا ، فيذهب وراءها الى حد امتشاق الحسام وخوض المعركة الى نهايتها المريرة ؟..

وأم المؤمنين عائشة ما خطبها ؟.. ألم تثر الناس على عثمان ، حتى حرّضت على قتله علانية ، حين قالت : « اقتلوا نعثلا فقد فجر » !.. فلما

قتلوه‌على دعواها وفتواها ، لماذا هبّت تطالب بدم‌المقتول مظلوما !؟ فركبت على رأس جيش عبر أميال وأيام ، تقصد قتالا ، وتتمركز ضد الخليفة في البصرة ، فتثير فيها فتنة دامية بين المسلمين ، وهم‌يستقبلونها في البصرة بين ساخط غاضب لخروجها ، وبين مؤازر ومؤيد تحت سورة من حمية الدين ليقتل الاخ أخاه ، والقبيل قبيله ، ويهلك ابن العشيرة الواحدة في أهول حرب خاضها المسلمون وتكبدوا فيها ما لم يتكبدوا مثله في أشق حروبهم ضد المشركين وفي أي بلاد فتحتها سيوفهم !

وماذا كان يجب على الامام ان يفعل ؟ أمامه كتاب الله وسنة رسوله وأعظم تراثه ، وما من أحد أكثر امانة وحرصا على حملها والحفاظ عليها منه .. انه الخليفة والامام ، وهم فئة خارجة على الاسلام وعلى الخليفة .. أقبلوا لقتاله دون حجة ، وتجمعوا لحربه دون سند من عدل او ايمان ، سوى دوافع النفس وقد ذهبت بهم الى أحلك المسالك !

ماذا على الخليفة ان يفعل مع رعية خارجة عليه ؟ ورعيته هي رعية الله .. وهو القائد الرائد ، والملاذ العادل ، في كنفه القوة والحق والعدل. وفي رأسه نور الله ونور شريعته السمحاء ..

لم يأت الامام للبطش بالناس ، أو توزيع المناصب والامارات على الطامعين ، ولم تصل الخلافة اليه متأخرة الا ليكون حمله أشق وادق ممن سبقه .. فهل يسكت على اللص والمختلس ؟..وعلى الطامع والجائر والفاسق والهارب المتملص عن الحد ؟.. وعن المتنفذ الخارج على الطاعة ؟!

وقد حمل الى البصرة حملا ، وسيق اليها قسراً ، وتحت إلحاح من من الضرورة‌لاقامة الأمن واعادة الخارجين على حكم الاسلام الى سلطانه ..

وكان على الامام ان يحتج ، ومن يغلبه وهو على حق ، ومن يقف أمام

حجته المدعمة بأسمى ما في البلاغة من سحر وقوة .. وأين الحجة في المعسكر الآخر وليس معه سوى غلوائه ومطالبته بدم عثمان .. وهؤلاء هم آخر من يحق لهم مثل ذلك !..

فاقد ألبّ طلحة على عثمان أهل المدينة ، ومن في خارجها ، وجعل من داره ملتقى القادمين ، ومنع الماء عن الخليفة ، وقطع سبل الوصول الى نجدته .. وشاركه الزبير في هذا ، فلم يرد متطاولا ، ولم يهب الى نجدته، ولم يركب لمعونته ، ورد القادمين من الامصار عن باحته .. وكيف تصبح عائشة قيّمة على المطالبة بدم الخليفة وقتلته ؟ وقد نقمت عليه في حياته ، وجعلت الناس اكثر نقمة منها عليه !..

ولكن هذا ما وقع لسوء الحظ ، ليأخذ التاريخ عبرة هـذه المأساة ، يحملها الى من تأخر ، ليروا فيها كل هذا الذي نراه ونحن على أشـد ما نكون من حزن ولوعة .. ولم تكن حالنا لتختلف في تلك الفتنة ، عن حال من كان في البؤبؤ والجؤجؤ منها ، ومن تلظى نارها وذاق بلواها لو كنا هناك !

وعلى كل حال ، فلقد وقع ما ليس من وقوعه بد ، وها هم : أولاء طلحة والزبير ، وجيش عائشة ، والجمل يهدر بها ويرغو .. والرسل تفشل والحجة تسكت بالقعقعة والسنان والهياج ..

والتقى الجمعان .. على استعداد للمعركة ، وقد انهارت كل مفاوضة، وتداعت كل حجة بيّنة لانهاء القتال ، وحسمت عائشة كل أمل للامام في الصلح وفض الخلاف ، حين أجابت على آخر رسالة اليه تقول : « جـل الامر عن العتاب والسلام » !

وبواضح العبارة انه لا سبيل للتفاهم فاقلع عن المحاولة والمكاتبة .. فلم يكن أمام الإمام الا القتال ، وقد فرض عليه بعد ان استنفذ كل وسيلة

معقولة وشريفة لتفاديه ..

فهكذا تعبأ جيش عائشة على الوجه التالي :

الحرب للزبير ، وعلى الخيل طلحة ، وعلى الرجالة عبدالله بن الزبير ، وعلى القلب محمد بن طلحة ، وعلى المقدمة مروان ، وعلى رجالة الميمنة عبدالرحمن بن عبادة ، وعلى الميسرة هلال بن وكيع . فلما فرغ الزبير من التعبئة قال :

ايها الناس وطنوا أنفسكم على الصبر فانه يلقاكم غدا رجل لا مثيل له في الحرب ولا شبيه ، ومعه شجعان الناس .

فلما بلغ الامام تعبئة القوم عبأ الناس للقتال على الوجه التالي :

استعمل على المقدمة عبد الله بن عباس ، وعلى الساقة هند المرادي ، وعلى جميع الخيل عباس بن ياسر ، وعلى جميع الرجالة محمد بن ابي بكر، ثم كتب الى طلحة والزبير :

« أما بعد فقد علمتما اني لم أرد الناس حتى ارادوني ؛ ولم ابايعهم حتى بايعوني ، وانكما ممن أراد وبايع ، وان العامة لم تبايعني لسلطان خاص ، فان كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل ، باظهاركما الطاعة واسراركما المعصية ، وان كنتما بايعتماني طائعين فارجعا الى الله من قريب . أنت يا زبير لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ؛ وانك يا طلحة شيخ المهاجرين ، وان دفاعكما هذا الامر قبل ان تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد اقراركما به ، وقد زعمتما اني قتلت عثمان ، فبيني وبينكما فيه بعض من يحلف عني وعنكما من أهل المدينة . وزعمتما اني آويت قتلة عثمان فهؤلاء بنو عثمان فليدخلوا في طاعتي ثم يخاصموا الى قتلة ابيهم . وما انتما وعثمان ! ان كان قتل ظالما

أو مظلوما ؟ ولقد بايعتماني وانتما بين خصلتين قبيحتين : نكث بيعتكما واخراجكما أمكما ...

وحاج عائشة في الامر فكتب اليها يقول : « أما بعد فانك خرجت عاصية لله ولرسوله ، تتطلبين أمرا كان عنك موضوعا ، ما بال النساء والحرب والاصلاح بين الناس ؟

تتطلبين بدم عثمان ، ولعمري لمن عرضك للبلاء وحملك على المعصية أعظم اليك ذنبا من قتلة عثمان . وما غضبت حتى اغضبت وما هجت حتى هيجت ، فإتقي الله وارجعي الى بيتك » .

فأجابه طلحة والزبير بما يدل على المضي في القتال وختما كتابهما اليه بالقول « فلست راضيا دون دخولنا في طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها ابدا ، فاقض ما أنت قاض » . وكان من رد عائشة ما سمعنا من قولها — جل الامر عن العتاب !..

وبذلك لاحت نذر الحرب دانية اقرب الى الناس من حبل الوريد .

* * *

وحتى الى تلك الدقيقة الحاسمة في الموقف ، لم يفقد الامام حلمه وأناته وأمله في ان يعود القوم الى محجة الصواب ، ويرجعوا عن ضلال وقعوا فيه ..

كانت نفوس القوم في هياج وغليان ، وقد اضطرب الناس فصار بعض من كان في معسكر الامام الى معسكر عائشة ، وتسلل نفر من معسكرها فانضم الى الامام .. وتدخلت القبائل تساند هذا الجانب أو ذاك أو تقف على الحياد وقد امتلأت نفوسها بالمرارة والحزن ..

« خرج طلح والزبير وعائشة وهي على جمل عليه هودج قد ضرب

عليه صفائح الحديد ، وبرزوا حتى خرجوا من الدور ومن أفنية البصرة ، فلما تواقفوا للقتال ، آمر علي ان ينادى في اصحابه : لا يرمين أحد سهما ولا حجرا ولا يطعن برمح حتى اعذر الى القوم ، فاتخذ عليهم الحجة البالغة. فكلم علي طلحة والزبير قبل القتال ، فقال لهما : استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله عليها أربع خصال ان تصدق فيها : هل تعلم رجلا من قريش أولى مني بالله ورسوله ؟ واسلامي قبل كافة خلق الله اجمعين ؟ وكفايتي رسول الله كفار العرب بسيفي ورمحي ؟ وعلى براءتي من دم عثمان • وعلى اني لم أستكره احدا على بيعة ، وعلى اني لم أكن احسن قولا في عثمان منكما ؟!

فأجابه طلحة جوابا غليظا، ورق له الزبير ، ثم رجع الى أصحابه فقالوا: يا امير المؤمنين بم كلمت الرجلين ؟

فقال علي : ان شأنهما لمختلف : أما الزبير فقاده اللجاج ولن يقاتلكم، وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل ، ولقيته باليقين ولقيني بالشك، فوالله ما نفعه حقي ، ولا ضرني باطله ، مقتول غدا في الرعيل الاول •

ثم خرج علي بغلة بين الصفين وهو حاسر ، فقام الزبير فخرج اليه حتى اذا كان بين الصفين اعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكى ثم قال علي :

يا ابا عبدالله ما جاء بك الى ههنا ؟

قال : جئت أطلب دم عثمان •

فقل علي : قتل الله من قتل عثمان ، انشدك الله يا زبير هل تعلم مررت بي وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكيء على يدك ، فسلّم عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك لي ثم التفت اليك فقال لك يا زبير انك تقاتل عليا وأنت له ظالم ؟

قال : اللهم نعم •

قال علي : فعلام تقاتلني ؟

قال الزبير : نسيتها ، والله لو ذكرتها ما خرجت اليـك ولا قاتلتك • فانصرف علي الى أصحابه فقالوا يا امير المؤمنين مررت الى رجل في سلاحه وانت حاسر •

قال : أتدرون من الرجل ؟

قالوا : لا •

قال : ذلك الزبير بن صفيه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم • أما انه قد أعطى الله عهدا انه لا يقاتلكم ؛ اني ذكرت له حديثا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو ذكرته ما اتيتك •

فقالوا : الحمد لله يا امير المؤمنين ما كنا نخشى في هذا الحرب غيره ولا تتقي سواه ، انه لفارس رسول الله صلى الله عليه وسـلم وحواريه ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب ، فاذا قد كفانا الله فلا نعد من سواه الا صرعى حول الهودج •

* * *

لقد حاج الإمام كل من اصغى الى حجة ، وأقنع كل من اوتي شـيئا من الحلم والنزاهة وقوة الايمان •• فذكر الزبير بما نسيه •• ذكره بما قاله رسول الله عنه وانه يقاتل عليا وهو ظالم له •• فترك ذلك في نفسه خشية فدخل على عائشة فقال : يا أماه ما شهدت موطنا قط في الشرك ولا في الاسلام الا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن فانه لا رأي لي فيه ولا بصيرة ، واني لعلى باطل !••

فقالت عائشة : ابا عبدالله ، خفت سيوف بني عبدالمطلب ؟

فقال : أما والله ان سيوف بني عبدالمطلب طوال حداد يحملها فتية انجاد.

فقال الزبير لابنه : لا تعد هذا مني جبنا فوالله ما فارقت احدا في جاهلية ولا اسلام .

قال : فما يردك ؟

قال : يردني ما إن علمته كسرك ، فقام بأمر الناس عبدالله بن الزبير.

ولننظر الى نهاية الزبير وما جره وفاءه عليه من نهاية مؤلمة :

لما انصرف راجعا الى المدينة ، اتاه ابن جرموز ، فنزل به فقال :

يا ابا عبدالله احييت حربا ظالما أو مظلوما ثم تنصرف ؟! أتائب انت أم عاجز ؟.

فسكت ..

ثم عاوده فقال له : يا ابا عبدالله حدثني عن خصال خمس اسألك عنها،

فقال : هات !

قال : خذلك عثمان ، وبيعتك عليا واخراجك أم المؤمنين ، وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك عن الحرب .

فقال الزبير : نعم ، أما خذلي عثمان فأمر قدر الله فيه الخطيئة واخر التوبة ، وأما بيعتي عليا فوالله ماوجدت من ذلك بدا ،حيث بايعه المهاجرون والانصار وخشيت القتل ، واما اخراجنا امنا عائشة فأردنا امرا وأراد الله غيره ، واما صلاتي خلف ابني فانما قدّمته عائشة أم المؤمنين ولم يكن لي سوى صاحبي آمر ، واما رجوعي عن هذا الحرب فظن بي ما شئت

غير الجبن •

فقال ابن جرموز : وا لهفاه على ابن صفيه ! أضرمها نارا ثم اراد ان يلحق بأهله ، قتلني الله ان لم اقتله ••

واحتال ابن جرموز هذا ، على الزبير حتى استطاع اخذ فرسه ودرعه . وشاور الاحنف بن قيس في أمره •

فقال له : اقتله قتله الله مخادعا ، فلما اصبح الزبير عاريا سار معه ابن جرموز ، فلما انتهى الى وادي السباع استغفله فطعنه ، ثم رجع برأسه وسلبه الى قومه •

فقال له رجل من قومه : يا ابن جرموز فضحت والله اليمن بأسرها قتلت الزبير ورأس المهاجرين ؟

فقال — والله ما قتلته الا لله ، ما اخاف فيه قصاصا ، ولا ارهب فيه قريشا ، وان قتله عليّ لهين •

* * *

وبهذا انتهى أمر احدهم•• كان الامام قد اعاده الى محجة الصواب. بالحجة والتذكير والذكرى ، فترك القوم عائدا ، فأدركه جرموز حتى احتال عليه وجرده من سيفه وفرسه ، ثم اقتاده أو سار به الى وادي السباع فاغتاله وعاد برأسه وسلبه الى قومه ••

ولكن حدة المعركة لم تخفت ، وذهاب الزبير لم يخفف من غلواء طلحة ، وتصميم عائشة على قتال امير المؤمنين •

بل ان طلحة وجد بانسحاب الزبير ، خطوة اخرى تدنيه من امانيه ، فان انسحابه ، حيا او ميتا نصر لطلحة في تفرده بالخلافة في تلك البقعة من الارض ، والا فما اكثر شداتها في المدينة والشام وفي بعض الامصار ! وكأن

تلك الرغبة الملحة لم تنهض في احد ، ولم تدفعه للخلافة الا في خلافة الامام أي عندما صارت الى احق الناس بها .

وقبل الدخول في قتال ، خاطب الامام طلحة ، فقال له يضع الحجة امامه ويلفح بها وجهه : اخرجتم امكم عائشة ، وتركتم نساءكم ؟ فهذا اعظم الحدث منكم . أرضى هذا لرسول الله ان تهتكوا سترا ضربه عليها وتخرجوها منه ؟!؟

فقال طلحة : انما جاءت للاصلاح .

قال الامام : هي لعمر الله الى من يصلح لها امرها احوج .

أيها الشيخ أقبل النصح وارض بالتوبة مع العار قبل ان يكون العار والنار .

فلم يرضخ طلحة للحجة والبيان المبين فارتضى لنفسه ، ما رآه له الامام العار والنار .

* * *

واذ لم يكن بد من القتال فقد نشب اواره ، ولم يتخل الامام عن طيبته وسجيته الرفيعة .

فقال يعظ جنده : « ألا لا تتبعوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا الدور » .

ودارت المعركة بكل ما فيها من هول وقسوة ، والتحم الجيشان وجها لوجه .. وقيل : ان المعركة دارت بين مائة الف مقاتل ، وقيل بين خمسين الف ، وعلى كل حال اذا اخذنا قتلاها بنظر الاعتبار ، وقد جاوزوا عشرة الاف ، فلا بد ان يكون العسكر في الجانبين كثيفا جدا ، وكل جهة متحمسة لقادتها ولما اقبلت من اجله . وكان جيش الامام حين بلغ البصرة ١٢٠٠٠ مقاتلا ، ولا بد ان مثل هذا او بعضه قد انضم الى جيشه من عشائر ورجال البصرة ، وعلى كل حال فان المعركة بكثافتها كانت من أقسى الحروب التي

خاضها المسلمون ، ولقد اشتد هولها وفظاعتها بما تلازم فيها من عنعنات قبلية: فكانت الجماعة أو القبيلة لا تترك محلها وتنجو الى ان تباد او تنتصر .

ونادى الامام ابنه محمدا وأعطاه الراية ، ولبس هو درع الرسول وحزموه بعمامة من اسفل سرته وركب فرسه ، وقال لابنه تقدم .. وتضعضع الناس عندما علموا بتحركه نحو القتال .

وكان الامام قد عبأ الناس اثلاثا : فجعل مضر قلب العسكر ، واليمن ميمنته ، وربيعة ميسرته . وأشتد القتال فهزمت يمن البصرة يمن الامام ، وهزمت ربيعة البصرة ربيعة الامام ، فلما رأى الامام أصحابه يتهزمون . ويقتلون ، صاح بإبنه محمد ومعه الراية ان اقتحم ! فأبطأ وثبت ، فأتى الامام من خلفه وأخذ الراية من يده ، ثم حمل فدخل عسكرهم والميمنتين والميسرتين تضربان ، في احداهما عمار وفي الاخرى عبدالله بن عباس ومحمد ابن ابي بكر ، فشق الامام في عسكر القوم يطعن ويقتل ، ثم اعطى الراية لابنه وقال : هكذا فاصنع ، فتقدم محمد بالراية ومعه الانصار حتى انتهى الى الجمل والهودج وهزم ما يليه ، واشتد القتال ، واخذ عسكر طلحة يضرب في الاطراف والركب ، مبالغة في القسوة ، فأخذت المعركة أشد انواع القسوة في الحروب ، فتطايرت الاذرع والارجل ، وتساقطت قطعا مبددة في أرض المعركة ، وسالت الدماء أنهارا تضرج اجسام الموتى والاحياء على حد سواء .

وحمل الاشتر النخعي بكل قوته يريد عائشة ، فلما رأت ذلك ، ارسلت الى عبدالرحمن بن عتاب وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وطلبت اليهما ان يثبتا ، وحرضت الناس على القتال .

وقد استمرت هذه المعركة الضارية سبعة أيام ، لا يفرق بين المقاتلين

الا حاول الظلام ، فلا تكاد صلاة الفجر تؤدى حتى ينشب القتال ..

وانتهت المعركة بانتصار الامام في اليوم الاخير ، وكان هـذا بتدبير الامام فلقد عظم عليه ان يرى الناس تتساقط من حول الجمل وقد صار شعار جيشها ، فأخذ من حولها يمسك بخطام الجمل كأنـه الراية ، فـلا يسقط دونه فارس الا واخذه الاخر ، حتى قتل على الخطام الاسود بن ابي البختري وعمرو بن الاشرف مع ثلاثة عشر من أهل بيته ، وجرح مروان بن الحكم ، وجرح عبدالله بن الزبير سبعا وثلاثين جراحة من طعنة ورمية !

ثم ضاع خطام الجمل فتزاحم الناس حوله ، فنادى الامام وهو يرى كـل تلك الضحايا تتساقط من حول الجمل ، أعقروا الجمل فانـه ان عقر تفرقوا » فضربه رجل فسقط وقتل من بني ذهل خمسة وثلاثون رجلا دونه .

عقِر الجمل واجتثت ساقه ، وسقط بالهودج المسلح وكان فيه ما لا يعد من النبال حتى كان اشبه بالقنفذ مما نبت عليه من سهام .

فأمر الامام نفرا ان يحملوا الهودج من بين القتلى ، وامر اخاها محمد ابن ابي بكر أن يضرب عليها قبة ، وقال : انظر هل وصل اليها شيء من جراحة ؟ فأدخل رأسه في هودجها .

فقالت : من انت ؟

فقال : ابغض اهلك اليك .

قالت : ابن الخثعمية ؟

قال : نعم . قالت : الحمد لله الذي عافاك .

ثم ابرزوا هودجها فوضعوها بعيدا عن الناس ، واتاها الامام .

فقال : كيف أنت يا أمّاه ؟

قالت : بخير ..

قال : يغفر الله لك ...

قالت : ولك ..

وحملها أخوها في الليل الى البصرة ، وانزلهـا دار عبدالله بن خلف الخزاعي ، وكانت من أعظم دور البصرة •

وأقام الامام في ظاهر البصرة ثلاثا ، وأذن للناس في دفن موتاهـم فخرجوا اليهم فدفنوهم •

وطاف الامام في أرض المعركة فلما رأى عبدالرحمن بن عتاب ، قال : هذا يعسوب القوم • ومر على طلحة بن عبيدالله وهو صريع ، فقال يرثيه : « لهفي عليك يا ابا محمد ! إنا لله وانا اليه راجعون ، والله لقد كنت اكره ان أرى قريشا صرعى • » وصلى على القتلى من أهل البصرة والكوفة ، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء ، وأمر فدفنت الاطراف « الايـدي والارجل والرؤوس » في قبر عظيم ، وجمع ما كان في المعسكر من شـيء وبعث به الى مسجد البصرة ، وقال : من عرف شيئا فليأخذه •

وكان جميع القتلى من أهل البصرة عشرة آلاف ، نصفهم من أصحاب الامام ونصفهم من أصحاب عائشة ، وقتل من أهل الكوفة خمسة آلاف ، وقتل من ضبة الف رجل ومن بني عدي حول الجمل سبعون رجلا •

وكان انتهاء المعركة في يوم الخميس لعشر خلون من جمادي الاخـرة سنة ٣٦ هجرية •

وسرح الإمام عائشة بحاشية من النسوة ألبسهن ثياب الرجال حتى لا يترك لها معتبة توقعها ، فعتبت حين لم تعلم انهن نساء واسفت ، واعتذرت حين كشفن عمائمهن بعد وصولها • وجهز لها اثني عشر الفا من المال ، وزاد عليه عبدالله بن جعفر من ماله • ولم يكن قد اصابها ضر سوى خدش من سهم • وخرج الامام وشيعها اميالا وسرح بنيه معها يوما فانصرفت الى مكة ، وأقامت بها الى الحج ، ثم رجعت الى المدينة وكان عمرها وقتئذ ٤٥ سنة •

ودخلت البصرة كلها في البيعة راضية . وقد اسبغ عليها الإمـام من رفيع خلقه وسجاياه ما ملأ قلوبهم اعجابا به ومحبة ، فلقد اكتفى ببيعة أشد الناس عداوة له وتأليبا عليه وكان يظن الناس انه قاتلهم ..

وانتهى الامام من أمر البصرة فولى عليها ابن عباس ، وولى زيادا على الخراج وبيت المال ، وأمر ابن عباس ان يسمع منه ويطيع ، وقفل الى الكوفة.

* * *

ان معركة الجمل أكثر من معركة . كانت في الواقع واحدة من الملاحم التاريخية الكبرى ، ويستقيم للكاتب من احداثها وحوادثها أكثر من كتاب فخم ، ولكننا لم نرد ذلك لان فحوى هذا الكتاب ليس التاريخ وحده ، بل الامام في مسرى التاريخ ومنطلقه في مرحلة من أعجب وافجع مراحـل التاريخ الاسلامي . ولقد حاولنا أخذ الاطراف المهمة من المعركة : مدخلها ونتائجها ، ومكان الامام فيها وهو ابرز مكان ..

فنحن من خلال القليل الذي ذكر ، نرى الامام في مجالي الخطـاب والمحاجة وفي قلب المعركة يدفع بالراية ويشق نواحي الصفوف المزدحمة . واحدا في بسالته وشجاعته وثقته بنفسه ، وبايمانه العميق بصواب منهجه وتغلب تقواه على نزعاته كانسان حتى ابتعد به عما في الانسان من نزعات الاثرة والسوء والانتقام والقسوة ...

لقد كاتب الإمام وفاوض وأرسل الرسل الى معسكر عائشة ، ولـم يكتف بهذا حسب بل دخل بكل شخصيته ومقامه ميدان السلم والعاقبـة للاخرين .. فقصد الى الزبير فذكره واقنعه واخرجه من المعركة ، معركـة العدوان على حق الخليفة ، وكلم طلحة كلام العاقل الحصيف القوي وحاجه وجادله وافحمه فلم يقتنع .. كان طامعا في الخلافة مكابرا ، لم يتزحزح

عن لجاجته أمام منطق الامام القوي . وكلامه المهذب ورفقته الطويلة ...
فقتل طاحة في المعركة . وقيل : قد أصابه مروان بن الحكم أو اجهز عليه .
وبشر أبناء عثمان بما فعل .

وعادت عائشة مثقلةبالمال والهدايا مشيعة باجلال ، يمشي وراءها خليفة المسلمينوهو إمام منتصر وخليفة غالب .. أعاد ما سقط من القوم في ارض المعركة الى المسجد ، ليأخذ منه من يعرف شيئا . وحرم على جيشه نساء المغلوبين ، وأعطى المرأة فيقتال البصرة مكانة جديدةحين اخرجها من السبي .. وصفح في المسجد عمن أساء اليه ، وصلى على من قاتله . ودفن ضحايا القتال من أعدائه ، وشدد على ولاته في طلب الحرص على اموال المسلمين.

كان في هذه الموقعة الرهيبة الفاصلة ، في هذا المقطع من تاريخ الامة الاسلامية ، إماما وليس قائدا محاربا متغطرسا ..

كان اماما للمسلمينبحق . وكان يرى في نفسه مسؤولا عن كل جارحة وكل مال ، حتى لوكان يعدل قلامة ظفر ..

وكانت حياته قدوة للصلاح ، تجلت فيها المرة بعد الاخرى ، جميع سجاياه وخلقه وترفعه ..

وكان عفا بارا سمحا .. صفح للجاحد ، واستغفر للقتيل ، وترحم وصلى على اعدائه ، وعاد الى الكوفة يحف به النصر وتمشي بين يديه ما ترك فيها من احدوثة المجد وجلال الامامة .

فلم يكد يصل مشارف الكوفة ، حتى تنفس الصعداء ، وقال ملؤ جوانحه الحب : ويحك يا كوفان ، ما اطيب هواءك واغذى تربتك ، الخارج منك بذنب والداخل اليك برحمة ، لا تذهب الايام والليالي حتىيجيء اليك كل مؤمن ، ويبغض المقام بك كل فاجر ، وتعمرين حتى ان الرجل من

أهلك ليبكر الجمعة فلا يلحقها من بعد المسافة » ٠

وقيل ان مقدمه الكوفة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٣٦ هـ ، بعد ستة شهور من مقتل عثمان ٠٠

فلم ينزل دارا أو اقام في قصر ، بل نزل الرحبة ، ثم أقبل حتى دخل المسجد الاعظم ، فصلى ركعتين ٠

فكان الامام أول خليفة دخل الكوفة ،وجعلها مركزا لخلافته ، وصلى فيها أول جمعة ، وخطب في الناس خطبة بليغة ، حثهم على التقوى ، فقال في آخرها : فلا تغرنكم الدنيا فانها غرارة لأهلها ، والمغرور من اغتر بها والى فناء ما هي ٠ وان الاخرة هي دار القرار ، نسأل الله منازل الشهداء ومرافقة الانبياء ومعيشة السعداء فانما نحن به وله ٠

* * *

واذا كانت واقعة الجمل قد انتهت بنصر الامام كما رأينا، واذا كانت تلك المعركة قد كلفت المسلمين ثمنا باهضا ، بما انزلت من خراب ودمار، وما اوغرت في القلوب من احقاد واحزان ، فان شيئا اوجع من هذا وذاك القى بذوره المرة في البصرة لتؤتي ثمارها مرارة مثل بذرتها وجذوتها بعد ذلك ٠

وعلى ضوء دراستي لماجريات الاحداث في تلك المعركة ، ان ارضها بعد النصر ، قد تحولت الى مزرعة لافكار جديدة لم تكن لتظهر هكذا بسرعة لولا تلك المعركة التي فهم القارىء من دون اطالة وشرح للمبررات ، دواعيها الحقيقية لدى من قصد البصرة مقاتلا دون حق ٠٠ فسفك من اجل دم عثمان، وهو السبب الظاهر للمقاصد الخلقية والخفية ، دم أكثر من عشــرة الاف قتيل وصريع عدا الجرحى ٠٠ ولم يرتو هؤلاء الذين قصدوا البصرة في حملة

باطلة متمردة ، بل هرب من الهزيمة من هرب من هؤلاء وهؤلاء ، فصاروا الى الشام يجدّدون قوة العدوان ، ليواجهوا العالم الاسلامي بسفك جديد للدم في معركة صفين !..

أما البذور الجديدة المرة ، التي طرحت في ارض المعركة في واقعة الجمل ، فهي افكار جديدة متطاولة ، نجمت تحت الحاح من الانانية ، ساق نفوسا كثيرة الى العوج والانهماك فيما ليس وراءه من طائل نافع ..

ففي اعقاب معركة البصرة ظهرت بوادر المعتزلة لتصير فيما بعد فلسفة ، هي في الواقع فلسفة التبرير للانسحاب والاعتزال .. فكان لمن ترك المعركة قبل نشوبها ، فاعتزل عائشة واعتزل الامام ، ان يقوم باظهار وجهة نظره لرد عار الانسحاب عنه ..

فما كان يومئذ مكان لمتفرج .. وكان التبرير بحاجة الى سند من الدين ، وقوة يستمد حجتها من العقل والكتاب .. وأدى ذلك الى البحث عن الاخطاء ، أو حتى خلقها ، لاعطاء الاعتزال قيمة محترمة ، تحت ضوء تلك المبررات المستندة الى ما تقدم ، من تأويل وتفسير ومحاجة من نوع جديد لم يكن مألوفا في الاسلام .

وعندي لهذا السبب ، ان بذور الفلسفةدخلت الاسلام او انبثقت منه، قبل ورود الافكار اليونانية الى مجتمع الفكر العربي عن طريق الترجمة والمناقشة والاقتباس ..

فكانت للمعتزلة طرائقهم الفكرية وحججهم ، وهي في الغالب تنم عن ذكاء واعمال ذهن وموهبة في خلق الحجج وتبرير المواقف الخاطئة .. وتخطئة المواقف السليمة ! فمع المعتزلة اذن ومن خلال المعركة في البصرة وبعدها نشأت بذور الفكر الاسلامي المجادل ، فتطلب ذلك ظهور المنطق

بشكل من الاشكال ..

ومن أرض المعركة في البصرة ايضا رأينا انطلاقة اخرى ، ولكنها كانت بذور أو منطلق هذه الانطلاقة عنيفة منذ البداية ، وشريرة الى حد كبير ، لما لفت حولها من تعصب وغضب ..

وتلك البذور المرة وحتى الدموية ، كانت بداية ظهور الخوارج ... فمن البصرة أطلت استفهامات حادة ، وتساؤلات لاذعة ، عما وقع في الاسلام ، وما كان يدور في المدينة حول الخلافة منذ وفاة الرسول ، من أحداث وتصرفات لم يكن لمن في الامصار يد فيها أو تأثير عليها .. فلما وقعت معركة الجمل ، ظهر من يطالب بالحساب .. وكان على الامام ان يفسر ويوضح ويجيب ، ويدفع حتى عما لم يكن له يد فيه ..

وكانت محاورات « ابن الكواء » في البصرة تلك المحاورات العقلية المشوبة بعدم الرضا ، بداية الخروج على الامام .. وهكذا رأينا ابن الكواء ، يواجه الامام في اطراف الكوفة بعد ذلك ، مع جماعة كبيرة متعصبة وقد جاءت بحجة جديدة لموقفها ، بعد معركة صفين وتحكيم المحكمين في الخلافة .

ولقد استنزف فلاسفة وكتاب المعتزلة كثيرا من الجهد ، وأحدثوا في الاسلام ما احدثوا من يقظة فكرية لم تعدم حظا من اذى تلحقه بالدين . واذا كان في هذا بعض نفع فتّح العقل الاسلامي على أفاق جديدة اضيئت من داخل المجتمع الاسلامي ومن ثنايا العقل العربي ، فان بذور الخوارج التي نبتت في بعض الصدور يوم الجمل ، لتخرج مرارتها في معركة صفين ، في نوع مؤلم من الهزيمة المقنعة ، نفعت معاوية كل نفع ، لم تعط الاسلام شيئا في حين اخذت منه كثيرا من الدماء ، واشغلت طويلا من وقت الامام في

معارك جانبية كانت تشتد وتلين ..

وتشجع المتقاعدون والمتقاعسون عن شد ازر الامام بما بث جموع الخوارج من رعب في اطراف الكوفة . بحيث كان كثير من الرجال يخشون ترك المدينة ، من هجوم الخوارج عليها . والفتك بالانفس والاموال والاعراض . بعد ان اضطربت في مجتمع الخوارج مبادىء ساذجة ، اخذت بمظاهر الاشياء ، وبقدر ما يعود عليها من نفع في ظل عقيدة يتوجها الاسلام في حدود فهمهم للاسلام !.

ومع ان هذا ليس اوان البحث عن الخوارج ، فقد كان لزاما ان تتطرق الى لمحة عنه ، ونأخذ بعض ما ترك من اسوأ الاثر . وما كان هذا ليكون لو لم تكن واقعة الجمل . ولو لم يركب طلحة ويتقدم الزبير لمقاتلة الامام والخليفة ، دون ان يكون لهم أي حق حتى من السبب الذي تذرعوا به ..

وعندي انه لولا معركة الجمل لمضى التاريخ الاسلامي في مسرى أفضل ولرسخت جذور الاسلام الحقيقية في أبعد الابعاد ، التي بلغتها خيل الاسلام . فلقد كانت هزيمة معاوية محتملة جدا ، بل اكيدة ، لولا معركة الجمل التي اضطرت الامام اضطرارا لخوضها كأمر حتمي ، والكف بسبب ذلك عن معاوية ، بينما كان الامام في الاصل ، آخذا طريقه اليه ..

واذا كانت لمعاوية من خلافة أو امارة ، وكان مركزه مع ما لديه من قوة الرجال ضعيفا ، فلقد عزله الامام فصار خارجا على الاسلام ، وكان على الامام ان يخضعه ويطارده . وقد فعل ، فصدته عن ذلك مؤامرة البصرة التي انتهت الى ما انتهت اليه ، وتركت عقابيلها بعد ذلك ملتوية مسنونة .

فخلال انشغال الامام بمعركة الجمل ، وجد معاوية فرصة ذهبية للتجمع والدعوة لنفسه تحت شعار المطالبة بدم عثمان ..

وقد فتح شرحبيل أمامه افقا لم يكن ليطمح فيه ، عندما ارسل له بيعة بالخلافة من حلب ! فقام بذلك بدور بارز في تثبيت أقدام معاوية ، الذي وجد في ما اقدم عليه شرحبيل من بيعة له بالخلافة ، سببا لمطالبة أهل الشام بمثلها ، فكانت له بيعة أهل الشام ..

ولم يكن كل هذا ليقع ، اولا ذلك التصدي المفجع في أول خلافة الامام في معركة البصرة . ولكان امر معاوية انتهى الى ما ينتهي اليه كل شر عندما يكافح في أبان ظهوره وضعفه .. وليس من دليل أكبر على ضعف معاوية وانهزامه ، لو انه اصطدم بجيش الامام قبل معركة الجمل .. وهو ان الانكسار في جيش معاوية في صفين قد ظهر واضحا لكل عين ، بل كتبت عليه الهزيمة يومئذ ، لولا الحيلة والمكر بما تم من رفع المصاحف ، ومناشدة المسلمين السلام والعاقبة ، وصيرورة الامر الى تحكيم ..

وفي تلك اللحظة من نصر جيش الامام ، وأمره الملح في المضي فيها ، وقد بلغت فرسانه قبة معاوية وقلب حماته وحراسه ، ظهرت بذور ما تركت معركة البصرة في واقعة الجمل ، وهكذا ظهرت اولى تحديات الخوارج ، الذين انتهى اصرارهم على التحكيم أو ترك القتال معه . ولم يكونوا قليلي شأن !

اذن فتحت وطأة الافكار الجدلية ، التي نشأت وترعرعت في ارض المعركة في البصرة ، حصل الاتفاق على التحكيم في صفين والإمام كاره لذلك مجبر عليه .

لقد شرحنا ما تقدم بهذه الاستفاضة ، لننتهي الى الحقيقة الواقعة التي انتهى اليها أمر المسلمين ، من انشقاق حاد ووجود خليفة مزيف في الشام ، يحاول استلاب الخلافة من خليفة المسلمين المنتخب . ولم يكن مثل هذا

ليقع كمـا قلنا آنفا ، لولا خروج عائشة الى البصرة ومن ورائها من حيث تعلم أو لا تعلم مطامع طلحة بالخلافة ، ورغبة الزبير بالامارة وقد طالب بها الامام في أول يوم تم انتخابه خليفة فيه .

* * *

لقد بدأنا نقترب من ازمة الازمات ، واكثرها وعورة وأذى للمسلمين، فلقد أراد الامام تجنب سفك الدماء ما استطاع ، وبذل من الورع والاخلاص ما يرتفع عن قدرة البشر على الصبر ، فكلما حاول الامام السلم ، جنح معاوية الى الحرب ، وباشرها فعلا بما كان يرسل من الاشرار في جماعات الى تخوم العراق ، فيسرقون ويقتلون ويهدرون من دم الابرياء للارهـاب واخافة الناس وتزهيدهم في حكم الامام ..

لقد فرغ الامام في جو تلك البلبلة التي اثارها معاوية في وجهه على تخومه : من توزيع جديد للعمال والولاة ، فاختارهم بحكمة وارسل كل واحد الى ما يصلح له .. والقى في كل واحد موعظة ، أو بعث بها اليه مع كتاب توليته ، وانه ليستقيم من ذلك كتاب من ابلغ واروع ما يكتب في : النصيحة والتوجيه وتحبيب العفة والصلاح للقادة والكبراء ..

وكان يريد بذلك ان يفتح عهدا جديدا منبثقا عن يقين الدين وحجة المسلمين ، ويعيد للمجتمع الاسلامي وجهه الصريح المضيء بالعدالة . وتقويم ما كان قد اعوج وانحرف في السنوات التي خلت من قبله ..

واذا كان الامام باختياره الولاة والعمال قد احسن الاختيار ، واجاد التدقيق ، ووضع الرجل المناسب في المركز المناسب له ، وفق مقايسته الدقيقة الصارمة في تقييم الرجال والاعمال ، فأرضى بذلك العامة ، فانه اسخط من جديد جماعات اخرى في الامصار التي عين فيها ولاته الجدد .

فلقد وجد هؤلاء النفر في أمر الـولاة ما سيضيّق عليهم الخنـاق ، ويحرمهم من المنافع والارباح التي كانوا يحصلون عليها ، ويحظون بها في كثير من الظلم والارهاب والاثرة وعلى حب الاخرين ..

فأخذوا في حبك المؤامرات واعداد النفوس الشريرة لمواجهـة عمـال الخليفة والامام ، ومكاتبة معاويةوتهيئة الفرص لتسليم ولاياتهم وامصارهم اليه ...

فقد رأوا بوضوح ان مصلحتهم مع الباطل ، وان معاوية معطيهم فوق مالهم ، أو فوق ما اخذوا مما هو ليس لهم .. وانه مجازيهم خيرا وعطاءا اذا صاروا اليه ، وادخلوا أمصارهم في كنف حكمه !

وعلى ذلك تسلل كثير من الانتهازيين والاغنياء والوجوه والقادة من تلك الامصار الى الشام ، أو صاروا رقباء له في أوطانهم ، يكتبون اليـه متآمرين ويحببون اليه ارسال جيوشه ..

وهكذا كتب على الامام ان يخرج الى هذا الشر ويكافحه ، والى هذه الضجة المفسدة فيسكتها .. والى هذا الانشقاق الرهيب فيخفف من غلوائه واستفحاله .. وكان عليه ان يخرج لمواجهـة جيوش معاويـة وقد وزعت الاضطراب في تخوم العراق حتى بلغت خيله الانبار فقتلت الابرار وعاثت بخيرات الديار ..

ان على أي باحث ان يقرأ التاريخ ، وتاريخ تلك المرحلة بانصاف دون تحيز ، ليرى في أي موقف محزن صار الامام ، وهو كاره لما وقع ولما كان يعرف مصيره ، ولكن ماذا كان بوسع الامام غير ان يخرج لمقاتـلة خارج عليهمتصد له .. جاهر بالعدوان ناكر حق الخلافة عليه؟. مغلظ في رسائله واقواله وخطبه ضده .. متهم اياه بما ليس هو منه في شيء ..

وما من شك عند الواقف على التاريخ المتبصر بيقظة ودراية ، ان معاوية الذي كان يرسل جندا وعسكرا الى اطراف بلاد الخليفة ومركزه ، يبث فيها الفزع والارهاب ليزهد الناس بالامام وحكمه . كان يرسل الارصاد والعيون والاموال يغدقها على من يستطيع شراء ذمته ودمه .

ونحن ، نستطيع ان نرى ذلك ، في ذلك التقاعس الذي كان الناس يبدونه ، عندما يدعوهم الخليفة الامام للخروج بالجهاد ، لمقاتلة جنود معاوية ، أو ردهم عن مصرهم وبلادهم في أقل تقدير ..

فكانوا يتصنعون الحجج الواهية ، ويتذرعون بالاسباب التافهة ، ويبررون قعودهم بحر الصيف وقرّ الشتاء ، حتى ملأوا قلب الامام بالغضب والحزن وهو الصابر المحتسب الحليم ..

ولما لم يبق في قوس الصبر منزع ، ولما أبى طغيان معاوية الا المضي في الشر والفساد والعناد ، اعلن الامام التعبئة ، وأمر الناس بالتجمع في النخيلة في ظاهر الكوفة .. وأخذ أهبته لمواجهة العدوان ، ووضع حد لمطامع وتجاوزات رجل ، ما رأى وسط جميع تلك الاحداث المريعة ، والفتن الطاغية ، الا نفسه ، والا ذريته من بعده سادة وملوكا في الارض على رقاب المسلمين !..

* * *

استخلف الامام على الكوفة ابا مسعود الانصاري . في الوقت الذي قدم عليه عبدالله بن عباس بمن نهض من أهل البصرة .

وبعث الامام زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف ، وبعث معه شريح بن هانيء في اربعة الاف ، على رواية الطبري ، فبلغ مجموع طليعته مع الرجلين ١٢٠٠٠ رجلا .

وأوضح لهما الامام طريق سيرهما ، وخطط لهما نهج تصديهما للعدو.
فقال من ذلك : واذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في أشرف المواضع ؛ ليكن ذلك لكم حصنا حصينا ، واذا غشيكم الليل فحفوا عسكركم بالرماح والترسة وليلهم الرماة وما اقمتم . فكذلك فكونوا لان لا يصاب منكم غرة؛ واحرسا عسكركما بأنفسكما ولا تذوقا نوما الا غرارا ومضمضة ، وليكن عندي خبركما فإني ولا شيء الا ما شاء الله ، حثيث السير في اثركما . ولا تقاتلا حتى تبدأ أو يأتيكما امري ان شاء الله » .

فلما كان اليوم الثالث من مخرجهما ، قام في اصحابه خطيبا ، فقال : «يا ايها الناس نحن سائرون غدا في آثار مقدمتنا ، فإياكم والتخلف ، فقد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي وجعلته على الساقة وامرته الا يدع احدا الا الحقه بنا » .

وبهذا يكون الامام قد اعلن تعبئـة عامة ؛ وترك من يزوده بالرجال والعتاد من بعده ؛ فلا يتخلف متخلف دون عذر .

وسار الامام حتى انتهى الى دير كعب ، فجاوزه واتى ساباط المدائن فنزل فيه الناس، فلما اصبح ركب وركب الناس معه ، وعدتهم (٨٠٫٠٠٠) ثمانون الف أو يزيدون سوى الاتباع والخدم ..

وبهذا يمكن ان يقدر جيش الامام بما فيه المقدمة اكثر من ١٢٠ الف مقاتل ، وهو جيش لجب ضخم دون ريب حتى في حساب هذه الايام ..

وكان قد بلغ بجيشه مدينة الانبار ؛ فلما وافى المدائن، عقد لمعقل بن قيس في ثلاثة الاف رجل ، وأمره ان يأخذ على الموصل حتى يوافيه .

وعقد أهل منبج جسرا عبرت عليه جيوش الامام باثقالها الى الشام .
فلما قطع الامام نهر الفرات ؛ أمر زياد بن النظر وشريح بن هانيء ،

ان يسيرا أمامه نحو معاوية ، على حالهما التي كانا خرجا عليها من الكوفة .

فلما انتهيا الى سور الروم، لقيهما ابو الاعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام ، فارسلا الى الامام يبلغانه انهما لقيا ابا الاعور السلمي في جند من أهل الشام ودعوهم فلم يجيبوا ، وطلبوا منه الامر .

وعلى اثر ذلك استدعى الامام الاشتر ، فقال له : « يا مالك ان زيادا وشريحا أرسلا لي يعلماني انهما لقيا ابا الاعور السلمي في جمع من أهل الشام، فالنجاء الى اصحابك النجاء ، فاذا قدمت عليهم فأنت عليهم ، واياك ان تبدأ القوم بقتال الا ان يبدأوك ، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولا يجرمنّك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم ، والاعذار اليهم مرة بعد مرة ، واجعل على ميمنتك زيادا ، وعلى ميسرتك شريحا ، وقف من اصحابك وسطا ، ولا تدن منهم دنو من يريد ان ينشب الحرب ، ولا تباعد منهم بعد من يهاب البأس ، حتى اقدم عليك فاني حثيث السير في اثرك ان شاء الله » .

وقد ذكرنا هذا ، والوصية التي واجه بها الاشتر ، وطلب اليه تنفيذها بحذافيرها ، لنطلع القاريء على ان الامام كان ملما بكل صغيرة وكبيرة في جيشه ، عارفا بأحوال ومواهب قادته ورجاله فيضع كل واحد منهم في المكان المناسب من المعركة ، وأكثر من هذا كان يعرف رجال عدوه في الجانب الاخر ، فيعد لرجاله كيف يواجهون خصمه ومتى يبدأون القتال ..

فقتال الامام لعدوه ، على ضوء هذا المنهج الذي لم يتركه او يخرج عليه ، كان قتال فروسية ملؤها الشهامة والنجدة ، والبعد عن الغدر والعدوان . فهو بمقدمه للقتال ، كان يحمل بين جنبيه كل تقوى المؤمن الحق ، الخائف المتجنب للمبادأة بالقتال ، وعدم مباشرة الحرب دون دعوة ملحفة للسلم والطاعة دون شر وقتال .

وعند المساء حمل ابو الاعور السلمي عليهم ، وثبتوا له ، واضطربوا ساعة ، وانصرف أهل الشام بعد ذلك ، فلما جاء الغد اشتبك الطرفان في قتال جديد .

ولحق الامام سريعا بالاشتر ، فطلب موضعا لعسكره ، واختار الموضع وعسكر فيه ، فلما ذهب شباب الناس من معسكره يستقون ، منعهم أهل الشام فاقتتلوا على الماء .

وكان عسكر معاوية اختاروا قبل قدوم جيش الامام ، موضعا سهلا الى جانب شريعة في الفرات ، ليس في ذلك الصقع شريعة غيرها ، ولم يجد جيش الامام غير ذلك المورد ..

فلما عطش الناس قاتلوهم عليها ، وتراشق الجيشان بالنبال ، وتلاقوا بالسيف ، وكان جيش معاوية المانع للماء ١٠٠٠٠ رجلا .

ودار بين معاوية وقادته حوار حول ما يجب ان يصنعوا بشأن الماء .

فقال الوليد لمعاوية : امنعهم الماء كما منعوا امير المؤمنين عثمان ، اقتلهم عطشا قتلهم الله .

فقال معاوية لعمر بن العاص : ما ترى ؟.

قال : ارى ان تخلي عن الماء ، فان القوم لن يعطشوا وانت ريان ..

ودارت محاورات ووفود بين الجانبين حول الماء ، وانتهى معاوية بقرار منعهم . فلما عطش جيش الإمام وضاق الناس ذرعا من العطش ، وهم على مقربة من الشريعة ، اتاه الاشعث بن قيس .

فقال : يا امير المؤمنين ، أيمنعنا القوم الماء وانت فينا .. ومعنا سيوفنا ؟! ولّني الزحف فوالله لا ارجع أو أموت ، ومر الاشتر فلينضم الي في خيله .

وأذن له الامام بذلك ، فلما اصبح زاحف أبا الاعور فاقتتلوا ، وابلى الاشتر بلاءا عظيما وصدق ما وعد به ، فنفى أبا الاعور وجيشه عن الشريعة واستولى عليها .

فقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما ظنك بالقوم اليوم ان منعوك كما منعتهم أمس ؟

فقال معاوية : دع ما مضى ، ما ضنك بعلي ؟

قال : ظني انه لا يستجل منك ما استحللت منه ، لانه اتاك في غير أمر الماء ..

وهكذا نرى ان كلا من معاوية وعمرو بن العاص ، كانا يعرفان ما كان عليه الإمام ، من سجية مجيدة ، واخلاق اسلامية رشيدة ، وايمان صادق بحق الناس في الحياة ، وفي الماء حياة كل شيء ..

وأباح الامام لجيش معاوية بالسقاية وملأ الروايا، فكان عسكر الفريقين يجتمعان على الشريعة ، ويحدث بعضهم البعض ، وكلهم يرجو ان ينتهي الامر الى خير دون قتال ..

واذا كانت تلك امنية الناس في جيش معاوية ، فلم تكن تلك امنية معاوية ومن معهم من رجال توزعوا الامصار ، وتولوا اماراتها قبل ان يصلوا اليها ، او ينتزعوها من ولاة الامام !.

وتراسل الفريقان شهر ربيع وجمادي الاولى ، وكلما زحف بعضهم الى بعض حجز بينهم القراء والصالحون ، فيفترقون من غير حرب ، حتى فزعوا في هذه الثلاثة الاشهر خمسا وثمانين فزعة ، كل ذلك يحجز بينهم القراء .

فلما انقضت جمادي الاولى ، أخذ الامام يعبيء اصحابه ويكتِّب

كتائبه ، وبعث الى معاوية يؤذنه بحرب . فعبأ معاوية ايضا كتائبه . فلما اصبحوا تزاحفوا وتواقفوا تحت راياتهم في صفوفهم ثم تحاجزوا فلم تكن حـرب ..

وكانت الجماعة في هذا المعسكر تخرج الى تلك ، ثم يفترقـان دون ملاحمة واسعة .

وقبل ذلك دعا الامام بشير بن عمرو بن محصن الانصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعى التميمي ، فقال : ائتوا هذا الرجـل ، فادعوه الى الله ، والى الطاعة والجماعة ..

ومضى هؤلاء الرجال الاخيار ، في محاولة طويلة لاقناع معاوية ، فلم يظفروا منه سوى الاصرار على القتال ، حتى بلغ به الغضب ان طردهم من محضره ، وعندما اعجزه شبث بن ربعي بالحجة والمنطق وبالصراحة ، التي غلبه بها حتى اخرجه من خلق الانسان ، الذي يضع نفسـه في الصـدارة من الناس .

فقال معاوية لشبث بن ربعى في رده ، وهو ينم عن جفاء وخشونة ، « لؤمت ايها الاعرابي الجلف الجافي ، في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم الا السيف » فخرج شبث وهو يقول : أفعلينا تهوّل بالسيف ؟! اقسم بالله ليعجلن بها اليك » .

وانتهى الامر بذلك الى ما ليس منه بد فدارت بذلك رحى المعركة !. بعد مفاوضات للصلح استمرت شهرا بطوله !

* * *

كانت هذه المعركة بالنسبة للامام معركة حاسمة ، وكان عليه ان ينتصر فيها ، لانه صاحب حق ، وصاحب رأي ، وصاحب سيف ، وبطل حـرب ،

وابن معامع ..

وقد تأهب لذلك بكل ما في قدرته الواسعة ، من مهارة ودرايـة في فنون القتال ،فأحسن توزيع كتائبه وقواده وقواته ، واعدهم للزحف والنصر، وخطب فيهم اكثر من خطبة مجلجلة مدوية ، ملأتهم بالحماسة واليقين بالنصر .

وكان اليوم الاول من القتال يوم اربعاء ، فخرج من أهل الكوفـة الاشتر ، ومن أهل الشام حبيب بن مسلمة ، فاقتتلوا قتالا شـديدا ، ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب .

وفي اليوم الثاني وهو يوم خميس ، صلى الامام وخـرج بالناس الى أهل الشام ، وكان على ميمنته عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وعلى ميسرته عبدالله بن عباس والقراء مع ثلاثة نفر : عمار وقيس بن سعد وعبدالله ابن بديل ، والناس على راياتهم ومراكزهم ، وعلى القلب كان الامام في أهل المدينة بين أهل الكوفة والبصرة ، وأكثر من معه من أهل المدينة الانصار وعدد من خزاعة وكنانة وغيرهم . وزحف اليهم .

أما معاوية فقد رفع في الجانب الاخر قبة عظيمة ، وبايعه أكثر أهل الشام على الموت ، وأحاط بقبته خيل أهل الشام !

وقال الامام قبل الزحف : « سووا صفوفكم كالبنيان المرصـوص ، وقدموا الدارع وأخّروا الحاسر ، وعضوا على الاضراس فانه انبى للسيوف عن الهام ، والتووا في الاطراف فانه أصون للاسنة ، وغضوا الابصار فانه اربط للجأش وأسكن للقلب ، واميتوا الاصوات فانه أطرد للفشل ، واولوا بالوقار راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم، واستعينوا بالصدق والصبر فان بعد الصبر ينزل عليكم النصر » .

وقاتلهم عبدالله بن بديل في الميمنة قتالا شـديدا حتى انتهى الى قبـة

معاوية ، وأقبل الذين تبايعوا على الموت الى معاوية ، فامرهم ان يصمدوا لابن بديل في الميمنة ، وبعث الى حبيب بن مسلمة في الميسرة ، فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم ، وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة، حتى لم يبق منهم الا ابن بديل في ٢٣٠ من القراء، قد اسند بعضهم الى بعض وانجفل الناس !

فلما رأى الامام ذلك ، أمر سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة ، فاستقبلتهم جموع لاهل الشام عظيمة فاحتملتهم ، حتى وافقتهم في الميمنة ، وكان فيما بين الميمنة الى موقف الامام في القلب أهل اليمن ، فلما انكشفوا انصرف الامام الى الميسرة ، فانكشفت عنه مضر من الميسرة وثبتت ربيعة ، وكان الحسن والحسين ومحمد بنو الامام معه حين قصد الميسرة والنبل يمر بين عاتقه ومنكبيه ! وما من بنيه احد الا يقيه بنفسه فيرده .

فبصر به احمر مولى ابي سفيان ، فأقبل نحوه ، فخرج اليه كيسان مولى الامام ، فاختلفا بينهما ضربتين فقتله احمر ، فأخذ الامام وهو يرى مقتل كيسان يجيب درع احمر فجذبه وحمله على عاتقه ، ثم ضرب به الارض فكسر منكبيه وعضديه ، وشد ابناه حسين ومحمد عليه فضرباه بأسيافهما حتى قتلاه ..

ثم دنا منه أهل الشام ، فما زاد قربهم منه الا سرعة في مشيه .

فقال له الحسن : « ما ضرك لو سعيت ، حتى تنتهي الى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك من اصحابك ؟

فقال : يا بني ان لأبيك يوما لن يعدوه . ولا يبطيء به عنه السعي . ولا يعجل به اليه المشي ، ان اباك والله ما يبالي أوقع على الموت أو وقع

الموت عليه » !

فلما وصل الى ربيعة ، نادى بصوت عال كغير المكترث لما فيه الناس:
لمن هذه الرايات ؟

قالوا : رايات ربيعة •

قال : بل رايات عصم الله أهلها ، فصبرّهم وثبت اقدامهم •

وقال للحسين بن المنذر « يا فتى الا تدني رايتك هذه ذراعا ! »

فقال : بلى والله وعشرة اذرع • فأدناها حتى قال : «حسبك مكانك» •

وقال الامام ــ للاشتر ــ لما رأى المنهزمين في جيشه : يا مالك !

قال : لبيك يا امير المؤمنين •

قال : أئت القوم فقل لهم ان فراركم من الموت ، الذي لن تعجزوه الى الحياة التي لا تبقى لكم •

فمضى الاشتر يبلغهم كلام الامام ويزيد في تحميسهم واثارة النخــوة فيهم ، فأجابوه الى ما طلب ، وقالوا تجدنا حيث احببت • فقصدهم حيث تجمع معظمهم مما يلي الميمنة ، واستقبله شباب من همدان ، وكانوا ٣٠٠ مقاتل ، وكانوا صبروا في الميمنة ، حتى اصيب منهم ١٨٠ رجلا ، وقتل منهم ١١ رئيسا ، كلما قتل منهم رجل اخذ الراية آخر •

وكان الاشتر يقاتل على فرس له ، في يده صفيحة يمانية يغشى البصر شعاعها فحرضهم ، وقال : عضوا على النواجذ ، واستقبلوا القوم بهامكم، وشدوا شدة قوم موتورين ثأرا بآبائهم • » وحمل عليهم حتى كشــفهم فألحقهم في صفوف معاوية بين صلاة العصر والمغرب ، وانتهى الى عبدالله ابن بديل ، وهو في عصبة من القراء بين المائتين والثلثمائة ، وقد لصقــوا بالارض كأنهم جثا ، فكشف عنهم أهل الشام ، فأبصروا اخوانهم قد دنوا

منهم ٠

فقالوا : ما فعل أمير المؤمنين ؟

قالوا : حي” صالح في الميسرة ، يقاتل الناس أمامه ٠

فقالوا : الحمد لله قد كنا ظننا انه قد هلك ٠

ومضى عبدالله بن بديل في سورة من الحماس نحو معاوية ، وحوله كامثال الجبال من الجند ، وقد خرج امامه اصحابه ، فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتى قتل سبعة ، ودنا من معاوية فنهض اليه الناس من كل جانب ، وأحيط به وبطائفة من اصحابه ، فقاتل حتى قتل ٠٠

عندئذ زحف الاشتر نشطا نحو معاوية ، يأخذ مكان بديل الشهيد، فاستقبله معاوية بـ « عك » والاشعرين ٠

فقال الاشتر لمذحج : اكفونا عكا ، ووقف في همدان ٠

وقال لكندة : اكفونا الاشعرين فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقاتلوهم حتى المساء ، ثم انه قاتلهم في همدان وناس من طوائف الناس ، فحمل عليهم فأزالهم عن مواقعهم ، حتى الحقهم بالصفوف الخمسة المعقلة بالعمائم حول معاوية ، وكانوا تحالفوا على الموت في الدفاع عنه ، ثم شد عليهم الاشتر شدة اخرى فصرع الصفوف الاربعة وكانوا معقلين بالعمائم حتى انتهوا الى الخامس الذي حول معاوية ، فدعا معاوية بفرس وركب يريد فرارا ٠

ولما رأى الامام ميمنته قد عادت الى مواقفها ، وكشفت من بازائها من عدوها ، حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم ، أقبل حتى انتهى اليهم فقال:

« اني قد رأيت جولتكم ، وانحيازكم عن صفوفكم ، يحوزكم الطغاة الحفاة وأعراب أهل الشام ، واتم لها ميم العرب ، والسنام الاعظم ، وعمار الليل بتلاوة القرآن ، وأهل دعوة الحق اذا ضل الخاطئون ، فلولا اقبالكم

بعد ادباركم ، وكركم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ما وجب على المــولى يوم الزحف ، دبره وكنتم من الهالكين ، ولكن هوّن وجدي وشفي بعض أحاح نفسي بآخرة حزتموه كما حازوكم ، والزمتموهــم عن مصافهم كما ازالوكم ، تحسونهم بالسيوف تركب اولاهم اخراهم كالابل المطرّدة فالآن فاصبروا ، نزلت عليكم السكينة وثبتــكم الله عز وجل باليقين ، ليعلــم المنهزم انه مسخط ربه وموبق نفسه ، ان في الفرار موجدة لله عز وجل عليه، والذل اللازم والعار الباقي واعتصار الفيء من يده وفســاد العيش ، وان الفار منه لا يزيد في عمره ولا يُرضي ربه ، فموت المرء محقا قبل اتيان هذه الخصال خير من الرضا بالتأنيس لها والاقرار عليها » .

وقاتل عمار بن ياسر ببطولة فذة ، وابلى في المعارك التي خاضها احسن البلاء ، حتى دنا في قتاله من عمرو بن العاص وقال له : يا عمرو بعت دينك بمصر ! تبًا لك تبا ، طالما بغيت في الاسلام عوجا !

وكان كلما التقى محجما أو مضعضعا هتف به : تقدم ! الجنــة تحت ظلال السيوف .. ثم قتل عمار بطلا ، وسقط في ارض المعركة ، فنزل اليه ابو الغادية ، واحتز رأسه ابن حوى السكسكى ، ودفنه الامام ولم يغسله ، وكان عمره نيفا وتسعين سنة ، وقبره بصفين ..

فلما قُتل عمار ، قال عبدالله بن عمرو ابن العاص لابيه : يا ابتِ ! قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عمرو بن العاص : وما قال ؟..

قال : ويحك ، تقتلك الفئة الباغية ..

ونقل عمرو بن العاص قولة ابنه الى معاوية ، فأجابه معاوية : انــك شيخ اخرق ، ولا تزال تحدث بالحديث ، وانت تدحض في بولك ..

فهذا حكم معاوية في عمرو بن العاص ، يراه شيخا اخرق ، يدحض في بوله ، لانه نقل اليه قولة رسول الله فيمن يقتل عمارا ، ومع ذلك ولاه مصر مدى الحياة ، ان هو نصره في قتاله ضد امير المؤمنين !

* * *

وفي الطبري انه لما قتل عمار ، قال الامام لربيعة : انتم درعي ورمحي، فانتدب له نحوا من اثني عشر الفا وتقدمهم الامام على بغلتـه ، فحمـل وحملوا معه حملة رجل واحد ، فلم يبق لاهل الشام صف الا انتفض ، وقتلوا كل من انتهوا اليه ، حتى بلغوا معاوية وعلي يقول :

اضربهم ولا ارى معاوية ، الجاحظ العين العظيم الحاوية ، ثم نادى على معاوية وقال :

علام تقتل الناس بيننا ؟ هلم احاكمك الى الله فأينـا قتل صاحبـه ، استقامت له الامور . ولم يجب معاوية طلب الامام .. وكان يعرف مصيره لو بارزه وقاتله دون شك .

ونادى عمرو بن العاص ذات مرة في المعركة : يا ابا الحسن اخرج اليّ انا عمرو بن العاص ، فخرج اليه فتطاعنا فلم يصنعا شيئا ، فانتضى الامام سيفه فحمل عليه ، فلما اراد ان يجلله رمى بنفسه عن فرسه ، ورفع رجليه فبدت عورته ، فصرف الامام وجهه وتركه .. وكأن عمرو بن العاص أراد ان يتحدى معاوية ، في طلبه مبارزة الامام ، لان معاوية امتنع عن ذلك حين دعاه الامام .. وكانت نتيجة ذلك خزي مضاعف : هزيمـة ورد الضربـة بكشف العورة !.. حتى ذهب ذلك مثلا في التفكه والمنادمة به بين العرب في مجالسهم ..

واخيرا حلت ليلة الهرير ، خاتمة تلك المعارك الطاحنة ، فاقتتل الناس تلك الليلة كلها الى الصباح ، حتى تقصفت الرماح ، ونفد النبل ، وصار الناس الى السيوف ، واخذ الامام يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، ويأمر

كل كتيبة من القراء ان تقدم على التي تليها ، فلم يزل يفعل ذلك بالناس ويقوم بهم ، حتى اصبح والمعركة كلها من خلف ظهره ، والاشتر في ميمنة الناس وابن عباس في الميسرة ، والامام في القلب والناس يقتتلون في كل جانب وكان ذلك يوم الجمعة .

واخذ الاشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها ، وكان قد تولاها عشية الخميس وليلة الجمعة الى ارتفاع الضحى ، واخذ يقول لاصحابه : ازحفوا قيد هذا الرمح ، فاذا فعلوا قال : ازحفوا قيد هذا القوس ، فاذا فعلوا سألهم مثل ذلك ، ثم استحث من حوله وشجعهم وخطب فيهم ودعاهم ، وناداهم بأفضل ما يتنادى به الفرسان ، حتى اجتمع من حوله ناس كثيرة ، فقال لهم : اذا شددت فشدوا ..

ثم شد على القوم وشد معه اصحابه ، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم الى عسكرهم ، ثم انهم قاتلوه عند المعسكر قتالا شديدا ، فقتل صاحب رايته فأخذ الامام يمده بالرجال ..

وظهرت بوادر الهزيمة في جيش معاوية .. ولجأ عمرو بن العاص الى الحيلة ، يدرأ الهزيمة برفع المصاحف على رؤوس الحراب ، ويقترح تحكيم الكتاب في أمر الخلاف ..

وكان هذا آخر ما بيته من سلاح المكر والخديعة ، عندما طرحها على معاوية فقال : اذا لم ينجح هذا ، فسيكون سببا الى خلافهم وتشتت امرهم .. وقد كان ..

فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا : نجيب الى كتاب الله عز وجل وننيب اليه ، وكان أول من قال ذلك أهل الكوفة .. ولم يغب ما وراء هذه الدعوة من مكيدة عن ذهن الامام فخاطب جيشه قائلا :

« عباد الله امضوا الى حقكم ، وصدقكم قتال عدوكم ، فان معاوية

وعمرو بن العاص وابن ابي معيط وحبيب بن مسلمة وابن ابي سرح والضحاك ابن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، انا اعرف بهم منكم ، وقد صحبتهم اطفالا ، وصحبتهم رجالا فكانوا شر اطفال وشر رجال ، ويحكم انهم رفعوها ثم لا يرفعونها ويعلمون بما فيها ، وما رفعوها لكم الا خديعة ودهنا ومكيدة .

فقالوا له : ما يسعنا ان ندعى الى كتاب الله عز وجل فنأبى ان نقبله .

فقال لهم : « فاني انما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب ، فانهم قد عصوا الله عز وجل فيما امرهم ، ونسوا عهده ونبذوا كتابه » .

فقال له قوم : يا علي أجب كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان ، انه علينا ان نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه ، والله لتفعلنها او لنفعلنها بك !!

فقال الامام : احفظوا عني ، نهي اياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، اما أنا فان تطيعوني تقالوا ، وان تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم ..

قالوا له : أما لا فأبعث الى الاشتر فليأتك !

وكان الاشتر حين طلبوا اليه ذلك في قمة النصر ، وعلى وشك ان يحوزه ، وقد دكت خيله قبة معاوية ، ودفعت جيشه المرة بعد الاخرى الى الوراء ..

وكان هذا اشنع طلب من هؤلاء الملحاحين ، الذين اكرهوا الامام وانزلوه على رأيهم ، بالخروج عليه ، وبالاقدام على فتنة طاحنة ، فبعث الامام بمن يستقدم الاشتر فقال الاشتر : قل له ليس هذه الساعة التي ينبغي لك ان تزيلني فيها عن موقفي .. اني قد رجوت ان يفتح لي فلا تعجلني .

فلما بلغهم ذلك قال الملحاحون وقد ركبتهم العزة : ابعث اليه فليأتك

والا والله اعتزلناك .

فقال علي : ويحك يا زيد ، قل له أقبل اليّ ، فان الفتنة قد وقعت.

فذهب زيد الى الاشتر وابلغه بأن الامام يطلب قدومه فقال له الاشتر : ألرفع المصاحف ؟

قال : نعم !

قال : والله لقد ظننت حين رفعت انها ستوقع اختلافا وفرقة . .

فأقبل الاشتر يرعد غضبا وقال :

يا أهل العراق ، يا أهل الذل والوهن ، حين علوتم القوم ظهرا ، وظنوا انكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها ، وقد — والله — تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها ، وسُنة من انزلت عليه صلى الله عليه وسلم فلا تجيبوهم . امهلوني عدو الفرس فاني قد طمعت في النصر.

قالوا : اذن ندخل معك في خطيئتك !

ولم تنفع حماسة الاشتر معهم ، ولا توبيخه لهم وقد اغلظ لهم القول حتى قال :

« خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يا اصحاب الجباه السود كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا وشوقا الى لقاء الله عز وجل ، فلا ارى فراركم الا الى الدنيا من الموت ألا قبحا ، اشباه النيب الجلالة ، وما انتم برائين بعدها عزا ابدا ، فأبعدوا كما بعد القوم الظالمون » .

فنهروه وشتموه وقالوا : قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما.

وهكذا أصاروا جيش الامام من النصر المحقق ، الى ما كان يصبوا اليه معاوية في ساعة محنته وهزيمة جيشه ، وقد حقق له ذلك من صاروا

بعد ذلك الى الخوارج ، ليستأنفوا القتال ضده هذه المرة ، لانه قبل بالتحكيم ، وما كان يجب ان يقبل به ، ونسوا انهم اكرهوه على ذلك فلم يستجب الا وهو كاره ونازل عند الحافهم !

فلما ذكرهم بما فعلوا ، وكيف اشتد عليهم الا يقبلوا بالتحكيم ، وما كان من الخديعة في رفع المصاحف ، قالوا له ببساطة : لقد كفرنا ثم تبنا فتب انت ايضا !!

* * *

في الصحائف السابقة وصف مجمل لما حدث في معركة صفين ، وقد وضعت الاحداث بشيء من الاسهاب والوضوح أمام القاريء ، ليستدل منها على ما وقع وما كان . وما لم يكن لولا ما حصل من تردد وخلاف ومؤامرات وجشع ..

ولقد كان بين ما ثبتناه في تلك الصحائف ، ما أخذ بحرفية النص والعبارة من مظان جليلة ، هي التي حملت الينا رواية — واحداث تلك الايام — وهي مرجعنا لمادة التاريخ في تلك الحقبة من الزمن .

ولكن هذا لا يمنعنا من اعطاء احكام جديدة على ضوء تلك الوقائع ، والخروج من ذلك بوجهات نظر أقرب الى الدقة والصدق في كثير مما سبق ، لان دراسة تلك الاحداث في ضوء العلم ، المنزه عن الغرض والظلم والتطفيف لا بد ان تنتهي بنا الى خير وهو العدل ..

والا فان ما يكتب في هذا السبيل او ذاك ، وعن هذه الشخصية وتلك ، لن يعدو التكرار الممل في حوادث فرغ الكتاب الاوائل من تدوينها كما هي ، أي كما وصلتهم في الرواية والاخبار .

وعلى هذا فان ما تقدم في تلك الصحائف من سرد مسهب أو مجمل

احيانا ، يعطي دليلا اثر دليل عقلي على مكانة الامام وعلو منزلته وثبات قدمه في الفقه والفهم وقوة الحجة ..

ثم بتلك السماحة الفذة التي هي الديمقراطية المعاصرة ، بحيث ينزل وهو خليفة وإمام عند رأي من جرته الخديعة الى وضع الحرب وتسليم النصر غنيمة باردة الى غير مستحقيه حتى قووا على الشر فعادوا وولغوا فيه.

وانه لمن الحق وفق منطقنا المعاصر ان نرى في الامام رجلا متسامحا عطوفا برا ومحبا للسلم منشدا العافية للناس ..

غير خشن أو غليظ ، ولو كان على شيء من الشدة في قيادة من تحت امرته من الجند ، ولو بجزء مما عرف به من شجاعة واصالة رأي لكان له جيش لجب مطيع ..

ولكان وهو في أوج النصر ان يحوزه حتى لو خرج ذلك النفر عنه واعتزلـه ...

فلم يكن الاشتر وقد دك قبة معاوية ليحارب بهؤلاء ..

وكان من المحتمل ان يعود هؤلاء الى جادة الصواب لو ابصروا نصر جيش الامام وهزيمة معاوية وملاحقة جنده بالمبايعة الى الشام ..

ولو دخلت الشام في البيعة لهانت قيمة الخوارج بعد ذلك عليه .

هذا في منطقنا المعاصر، ومنطق من كان يمثل تفكير معاوية في اخضاع الدين للدنيا ، في حين كان الامام يرى غير ما نرى .

كان يريد انشاء دنيا جديدة القيم والمفاهيم على ضوء الدين ..

كانت الدنيا وسيلة لاقرار أحكام الدين في الناس ، وكان للقراء منزلة أي منزلة لدى الامام ، فسرعان ما استجاب ولو بعدم رضا الى ما طلبوه ، فلقد كانوا في رأيه أمة لها صوت ، وفي تقواهم وفهمهم للاسلام حفاظ عليه .

فوازن بين نصر الاشتر وقد أوشك ان يحوزه ، وبين رضا القراء وقد ملوا القتال وتعبوا من ليلة الهرير ، وعجبي لهم انهم كانوا عمار الليالي بالسجود . والزهادة والتقوى .

فهاجمهم الاشتر بما وصفهم به ، وكان على حق ، فلقد سلبوا منه النصر وهو على ابوابه ، ومكنوا للخارجين على الخليفة بالمعصية وقتا استجم فيه واستجمع قواه وكيده .. وتسلل الى قلوبهم من نقاط الضعف فيها .

فالإمام وهو أعمق الناس في فهم رسالة الاسلام ، واكثرهم جهادا في ترسيخ قواعده واقامة سننه ومبادئه ، كان يحارب من اجل الدين وحق الخلافة ووحدة المسلمين .

كانت له مقاييسه المستمدة من عقيدة عميقة متبصرة ، تقودها الحكمة وتضيء امامها اراء النبي ، وقد شربها صغيرا واستوعبها وفهمها اوسع فأوسع كبيرا ..

فالامام اذن كان على حق في موقفه الذي اكره على قبوله ، لانه كان يرى في ذلك اخماد فتنة تثبت في صفوف المسلمين من جنده ، ففضل ما وقع على المضي في الشقاق ، والملاحاة مع هؤلاء الملحين بقبول الهزيمة عن طريق الخديعة ..

واذا تركنا هذا وجلنا بعض الوقت في سوح تلك المعارك منذ البداية .. منذ ارسل مقدمته وطليعته الى يوم اشتبك في اقسى واوجع معركة ، الى ليلة الهرير الدموية المرعبة ، وجدنا الامام امامنا كأنصع ما تكون عليه الشخصية الاسلامية الفذة ، منقطعة النظير .

ومن الوضوح التام ان نرى افكاره كما هي ، دون ما لبس أو تغطية ، لان الامام لم يكن الا رجلا صريحا ، وإماما جعل حياته قدوة ومثلا ،

وصيّر من نفسه مقياسا وشعارا ، فمن غير الطائل القول بأنه كان يعمل كذا وعمل كذا ، وكان يجب ان يفعل الكيت والكيت .

لقد خطط الامام للمسلمين منهجهم القرآني ، فأراد للدين صورته ولحمه ودمه وحقوقه ، فاجتهد أوسع ما يصل اليه العقل في الاجتهاد ،وعمل ما كان الاصوب حتى فيما اكره عليه ، فان قبوله لذلك كان بحساب قد لا يتفق مع حساب افكارنا واغراضنا . في حين كان يتفق مع مقياسه وحجته .

ولكن ما ليس من بد لذكره ، هو ان الامام كان فذا ، فكان لذلك قليل الانصار من نوعه ..

كان نموذجا يصعب صب الاخرين على وفقه ، فكان لذلك يبدو قليل الناصرين ، نصرا يريده عن ثقة به وايمان مؤكد له . ولقد ظهر بعض من اقتفى اثره أو اقتبس بعض ضوئه ، وهم بقية القلة من الصالحين ، فكان عمار ،وكان الاشتر .وكان غيرهما وفيهم،غير قليل من شعاع الامام ووجهته وارادته الصالحة ..

فجميع ما احتشد حول الامام ، له أو عليه ، من هؤلاء وهؤلاء ، من ناس عصره والعصور التالية ، يجمعون على صلاحه وعدله وتقواه ، وجهاده الطويل عبر حياته المجيدة التي حفلت بكل مكرمة ..

وقد نفضت خصائصه الاصيلة النقية عبر العصور ، جميع ما القي عليه وطرح من تهم وأكاذيب وبغضاء ، فكان بريقه ابدا في شعاع الشمس من افكار الناس ..

ولقد غلب الامام على أمره أكثر من مرة ، وحاق به الغم أكثر من مرة، وضاق صدره بخاذليه وناصريه معا ، عندما كانوا يريدون منه ما لا يرى ، ولا يحب ، ولا يؤمن بصلاحه ..

وكان الامام بحق امة خير ، سبيله سبيل الله في كتابه ، وحجته عقل منير امتلأ بالضوء والبصيرة النافذة ، فكانت خطى حياته سبيل الصالحين والساعين الى الخير والصلاح من الناس •

واريد للخديعة ان تتم ، وللضلالة ان تمضي ، لتكسب معاوية حقا ليس له •• وهكذا كان ••

جيء بالتحكيم ، وترشيح المحكمين •

فقال أهل الشام : فأنا قد اخترنا عمرو بن العاص •

فقال الاشعث : واولئك الذين صاروا خوارج بعد ، قد رضينا بأبي موسى الاشعري •

فقال الامام : فانكم عصيتموني فيأول الامر ، فلا تعصونيالان ، اني لا ارى ان اولي ابا موسى •

فقال الاشعث وزيد بن حصين الطائي ، ومسعر بن فدكي ، لا نرضى الا به ، فانه كان يحذرنا مما وقعنا فيه •

فلما اختاروا ابا موسى قال الامام : انه ليس لي بثقة ، قد فارقني وخذل الناس عني ، ثم هرب حتى آمنته بعد شهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك •

قالوا : لا نبالي ان كنت أم ابن عباس ، لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما بادنى منه الى الاخر •

فقال الامام فاني أجعل الاشتر •

فقال الاشعث : وهل سعّر الارض غير الاشتر ؟•

قال : فقد أبيتم الا ابا موسى ؟

قالوا : نعم •

قال : فاصنعوا ما اردتم ، ولم يرض هؤلاء ان يشركوا الاحنف مع ابي موسى ، وحضر عمرو بن العاص عند الامام ليكتب القضية بحضوره . فكتبوا واشترطوا ، وحددوا واجب المحكمين ، وحفظوا لهما بعهد حياتهما فيما سينتهيان اليه ، وهو النزول عند حكم الله عز وجل وكتابه .

فلما أمضيا الميثاق الذي الزم به الطرفان أجل القضاء الى رمضان ، ونص فيه على انه اذا توفي احد الحكمين ، فان امير الشيعة يختار مكانه .

ويبدو هذا امتيازا في الظاهر للامام ، فقد كان له ان يختار حكما جديدا اذا توفي احد الحكمين ، ويعني ان له حق الاختيار ، حتى اذا كان المتوفى حكم معاوية ..

ومع ان الاقدار والاعمار بيد الله ، فقد كان الاحتمال ، ان يتوفى ابو موسى الاشعري . وهو شيخ فانٍ قبل عمرو بن العاص ..

ويستلفت النظر في ما وقع امران ، يدعوان الى العجب في تفكير تلك الفئة ، التي اكرهت الامام على وضع الحرب والصيرورة الى التحكيم . فلقد قالوا : للامام عندما رشح عنه الاشتر ، انهم لا يرضون به ولا بابن عباس ، ويريدون رجلا هو من الامام ومعاوية سواء ، ليس الى واحد منهما بأدنى منه الى الاخر ! فهل كان عمرو بن العاص كذلك ؟!

هل كان محايدا يدنو من الامام مثل دنوه من معاوية ؟..

وهل كان سواء بالنسبة اليهما ؟.

ألم يكن صنيعته ومستشاره ، وصاحب الخدعة التي مزقت جيش الامام وانتزعت منه النصر وهو على قاب قوسين منه ؟.

ولماذا كان لمعاوية ان يختار دون لجاجة من احد ؟ فيرشح من جانبه من يطمئن الى خديعته ومكره ، لا الى صلاح دينه وتقواه ، ولا يكون

للامام مثل هذا الحق ؟!! وهو صاحب الشأن والخلافة ؟!

ثم كيف ثبت في الوثيقة ، حق الامام في اختيار بديل لمن يمت من احد الحكمين ، فيختار من يرشح ، ولا يكون له مثل هذا الحق في البداية ، فيفرض ذوو الجباه السود على الامام حكما يرتضونه هم ..

ثم لا يحجبون عنه ذلك ، اذا ما توفي احد الحكمين قبل التحكيم !. وكيف جاز عليهم ذلك ، فلم يعترضوا كعادتهم ، وقد قرئت الوثيقة عليهم وكتبت بمحضر من شيوخهم !

ومن هنا يرقى اليَّ شك ، ليس بسذاجة هؤلاء المتعصبين المتشددين دون فهم ، كفهم الامام للدين أو بعض فهمه ، بل في ان تكون رسل معاوية قد وصلت بعضهم ، فأشاعت بينهم تلك البلبلة ، حتى صيروا نصر الامام الى هزيمة .ولا اذهب الى أبعد من ذلك، وان كان هنالك ما يجب ان يقال.

لقد كانت قضية التحكيم خدعة منذ البداية ، لذلك كان يجب ان تسير الى نهايتها . ولقد كاد معاوية للامام كيدا ، اعانه عليه جند من جند الامام، ممن كانوا يضعون انفسهم في الصدارة من الفهم والرشاد ..

ولقد باتت الخديعة واضحة ، عندما اعطيت للحكمين فترة طويلة من الزمن ، للدرس والمداولة في الامر ، وما كان ذلك ليحتاج مثل ذلك الوقت الطويل .

وكان الغرض من ذلك ، التأثير على حكم الامام للقضاء ضده ، وكان يراد انضاج الرجل الاشعري لهذا الغرض ، فشرع عمرو بن العاص يؤثر فيه ، لينتهي الامر الى ما انتهى اليه الاشعري ، بسذاجة غمطت حقا واضحا والا فان الامر لم يكن ليتطلب مدة طويلة ، فان احكام الكتاب وحكمه فيما حصل من خلاف كان واضحا وكان المفروض أو الواقع ان الحكمين

فقيهين في الدين ، عارفين لاحكام الكتاب ، وكانت تشعبات القضية واسبابها واضحة منذ أمد طويل ، ليس للحكمين فحسب ، بل لاكثرية الطرفين المتقاتلين .

لذلك رأينا ان نثبت هنا وثيقة التحكيم ، ثم مناقشة ما صار اليه الامر خلافا لها .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ، ومعاوية بن ابي سفيان ، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين . وقاضى معاوية على اهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين :

اننا نتزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته الى خاتمته . نحيي ما احيا ونميت ما امات .

فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل ، وهما ابو موسى الاشعري عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي ، عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة .

وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ، ومن الجندين من العهود ، والميثاق والثقة من الناس ، انهما آمنان على انفسهما واهلهما ، والامة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهدالله وميثاقه ، انا على ما في هذه الصحيفة ، وان وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم ، اينما ساروا على انفسهم وأهليهم واموالهم وشاهدهم وغائبهم .

وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص ، عهد الله وميثاقه ، ان يحكما بين هذه الامة ولا يرداها في حرب ولا فرقة ، حتى يعصيا ، وأجّل القضاء الى رمضان ، وان احبا ان يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما .

وان توفي احد الحكمين فإن امير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألو من أهل المعدلة والقسط ، وان مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة والشام ، وان رضيا واحبا فلا يحضرهما فيه الا من ارادا، ويأخذ الحكمان من ارادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم انصار على من ترك ما في هذه الصحيفة واراد فيه الحادا وظلما . اللهم انا نستنصرك على من ترك هذه الصحيفة » .

وقد شهد عليها شهود من الطرفين .

واتفق الامام ومعاوية ، على ان يكون اجتماع الحكمين بدومة الجندل، وهو النصف بين العراق والشام ، واطلق الامام ما كان في حوزة جيشه من الاسرى ، وفعل معاوية مثل ذلك ، بعد ان اشار عليه بعض مشاوريه بقتلهم .

ووجّه الامام مع ابي موسى ، شريح بن هانيء في اربعة الاف من خاصته ، وولى عبدالله بن عباس على صلاتهم .

وبعث معاوية مع عمرو بن العاص ابا الاعور السلمي في مثل ذلك من أهل الشام ، فساروا في صفين حتى وافوا دومة الجندل ، فانصرف الامام باصحابه حتى وافى الكوفة ، وانصرف معاوية باصحابه حتى دمشق ، ينتظران ما يكون من امر الحكمين .

ودارت بين الحكمين مناقشات ، وقدّم عمرو بن العاص له اسما بعد آخر للخلافة بما فيهم عبدالله بن عمرو بن العاص ، فكان ابو موسى يرى سببا أو أكثر لرفضهم ، فلما اعياهما الخصام والجدل والرد .

قال عمرو بن العاص لابي موسى الاشعري : فما ترى ؟ ..

قال : أرى ان نخلع هذين الرجلين عليا ومعاوية ، ثم نجعلها شورى

بين المسلمين . يختارون لانفسهم ما احبوا •

فقال عمرو بن العاص : فقد رضيت بذلك ، وهو الرأي الذي فيه صلاح الناس ، فافترقا على ذلك •

وحان ميقات اعطاء رأي الحكمين ، وكان ذلك سنة ٣٧ هجرية ، فأقبل عمرو بن العاص وابو موسى الاشعري ،بعد ان اتفقا على خلع صاحبيهما الى الناس ، وهم مجتمعون في المسجد •

فقال عمرو : يا ابا موسى إعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق ، فتكلم ابو موسى فقال :

« ان رأيي ورأي عمرو ، قد اتفقا على امر ، نرجو ان يصلح الله عز وجل به امر هذه الامة • »

فقال عمرو بن العاص «صدق وبر يا ابا موسى تقدم فتكلم» ، فتقدم ابو موسى ليتكلم • فقال له ابن عباس :

« ويحك والله اني لأظنه قد خدعك ، ان كنتما قد اتفقتما على أمر فليتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلم انت بعده ، فإن عمرو رجل غادر ، لا آمن ان يكون قد اعطاك الرضى فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك » •

وكان ابو موسى مغفلا ، فقال : إنا اتفقنا •

فصعد ابو موسى المنبر ، فحمد الله عز وجل واثنى عليه ، ثم قال :

« ايها الناس إنا قد نظرنا في امر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لامرها ولا ألمّ لشعثها ، من أمر قد اجمع رأيي ورأي عمر عليه ،وهو ان نخلع عليا ومعاوية ، ونستقبل هذا الامر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ؛ واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا امركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا

آهلا » •

ثم تنحى واقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله واثنى عليه، وقال :
« ان هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وانا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية »•

فقال ابو موسى : ما لك لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، وان تتركه يلهث • »

فقال عمرو : انما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفارا » !

وكان اجتماع الحكمين في شعبان سنة ٣٧ هـ ، فانصرف عمرو وأهل الشام الى معاوية ، وسلموا عليه بالخلافة ، ورجع ابن عباس وشريح بن هانيء الى علي ••

فلما بلغ الخبر أهل العراق ، اجتمع الخوارج عند عبدالله بن وهب الراسبي ، منكرين تلك الحكومة التي حكم بها الحكمان ••

لقد عرضنا ما تقدم بشكله المدون في الكتب ، وحق لنا الآن ونحن نرى حقائق الامور من خلال ذلك ، ان نبدي وجهة نظر أخرى فنسأل :

هل ان الحكمين قضيا حقا ؟!

وهل كان يجوز اقامة تحكيم على امر واقع ، وخليفة قائم تمت بيعته في المدينة بالاجماع، وأقرت ذلك جميع البلدان والامصار فيما عدا الشام؟•

وهل كان معاوية خليفة حتى يثبت من قبل عمرو بن العاص ؟•• فلو كان الامر كذلك لما صار الناس الى تحكيم ، ولاعترفوا به خليفة ، ولكن الخليفة كان موجودا وقد بايعته الاكثرية الساحقة، وجاءته البيعة من الامصار فلم يعد معاوية غير وال معزول ، ومن ثم خارج متمرد على الخليفة ، وجبت محاربته دون ان يكون له حق في خلافة وامرة ••

وكان العدل يقضي على الحكمين ان ينتهيا الى قرار ذلك ، والاعتراف بوجود خليفة منتخب ، وابعاد معاويــة ، والامر بأن يبايع أو يطيع فــلا يخرج على الاجماع .. وكان هذا ما يقتضيــه العدل والحــق ، والكتاب والسنة ، فانه لمن البداهة والوضوح بمكان ..

والسؤال الاخر هو هل كان لعمرو بن العاص ، أن يقيم صاحبــه خليفة بمفرده ؟

لقد أعلن ابو موسى الاشعري أمام الحاضرين ، انه اتفق وعمرو بن العاص على خلع عليّ ومعاوية ، ليستقبل المسلمون امرهم ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم ..

أي ان ابا موسى قــد أفهم الحاضرين ، انهما اجتمعا على ترك أمر اختيار الخليفة الى المسلمين ، ولم يكن بهذا مفتريا على عمرو بن العاص . لان عمرو كان حاضرا فسكت ، وكان هذا اقرار منه بما قال صاحبه ، في خلع الاثنين وترك الأمر للمسلمين ..

فلما قال عمرو بن العاص بعد ذلك خلاف ما اتفق عليه ، واعلنه ابو موسى قبله . سقط حكمه بطبيعة الحال ، لان الاصل صيرورة المسلمين الى اختيار من يولونه أمرهم .. وبما انه لم يفعل ذلك فلم يعد لحكمه من قيمة .

وحتى على افتراض جواز ذلك ، فما كان يصح ان يختار الخليفــة بمفرده ، لان اقامة معاوية على الخلافة كان يقتضي موافقة ابي موسى على ذلك ، لان نصف اصوات المسلمين أو اكثريتهم كانت اليه ..

فما دام الخلع قد حصل بالاجمــاع ، أي باجماع الحكمين ، فيجب بطبيعة الحال ان يكون الاختيار بالاجماع ايضا .

فاختيار عمرو بن العاص لمعاوية عدا انه غير جائز ، فهو على الاقــل

غير مستكمل للاجماع •• وهو بالتالي باطل •

وننتهي من هذا الى ما نؤمن به قبلا ، وهو ان التحكيم في أمر الخلافة كان خاطئا من الاصل ، وما كان يجوز فيه تحكيم ، فالخليفة الصحيح قائم موجود بالاختيار والاجماع ، وتوكيد خلافته مستندالى الولايات والامصار التي بايعته ، فليس معاوية كما قلنا أكثر من خارج على سلطان الخليفة وعاص عليه ، وجبت محاربته دون ان يكون له أو لجماعته أي حق في التدخل في امر الخلافة القائمة ، لان أصل النزاع ليس ذلك •• بل اصله مطالبة بدم عثمان من قبل معاوية وبعض رهطه •• لذلك فإن إصارة الامر الى تحكيم كان خطأ وعدوانا على حق الخليفة ، وقد اكرهه على قبوله جنده أو بعض جنده •• وقد رأى هؤلاء ضلالتهم وجهلهم بالدين بعد التحكيم ، فتبرأوا مما قالوا وانتهوا الى خوارج •• يحتجون على الامام لقبوله التحكيم في صفين ، وهم الذين كانوا قد أكرهوه على ذلك !

لقد انتهت اذن صفحة جديدة من مشاغل الامام ، وهدأت الضجة بعض الوقت ، لتقوم قيامة الخوارج ضده من جديد ، في تشويه للحقائق ، وتشويه للواقع وبلبلة مقيتة اشغلت الامام طويلا بمحاربتهم ، فأتيح بذلك مرة اخرى المجال أمام معاوية ، ليتقوى ويتسع وينتزع مصر ، ويوسع من بطش سلطانه الجائر ، وبذلك خدم الخوارج معاوية مرتين ، مرة عندما عصوا الامام ، ولم يواصلوا القتال واكرهوه على التحكيم يوم رفع المصاحف •• ومرة بعد ان استقام له الامر في العراق فأشغلوه بحروبهم ، حتى لم يجد من الجند والوقت ما يبعث به الى عامله بمصر ، فمهدوا بذلك لاستيلاء معاوية عليه ، وانزال نكبة مريرة بعامل الامام ، وهو يومئذ محمد بن ابي بكر ، فقتل ومثّل به وبمن كان معه من الاخيار والصالحين ••

وخرجت مصر من حكم الخليفة ، لتدخل في حكم المتمرد عليـه ..
وبذلك صار الخوارج نقمة على المسلمين ، وسببا من أسباب تدهور حكم الخليفة في الكوفة . بما انزل في ارضه من وبال أمر هؤلاء الخارجين عليه، وقد صاروا بعد حين الى نوع فريد من العقيدة ، اباحت لهم حتى ما هو منكر وقبيح وغير انساني .. تحت ستار الاخلاص للدين !

* * *

ومع كل ذلك كان الخليفة الامام . سمحا مع الخوارج كثيرا ، لا يعمد الى قتالهم الا وهو مضطر ، وتحت دوافع وجوب اقرار السكينة والامان . وحفظ اموال وأرواح المسلمين تحت حكمه ..

وكانت للامام في ذلك حجته . فلقد كانوا حينا من الزمن من أخيـار محبيه ، والذائدين عنه ، وكانوا من ضمن جنده في البصرة وفي صفين . وكانوا على شيء من الزهد والتقوى والايمان والتعصب . وهذا سبب بلواهم ومشكلتهم ، فلقد وقعوا في الخطأ ، وأكرهوا غيرهم على الوقوع فيه ، فلما استفاقوا وجدوا انهم كفروا، فتابوا وظل تأنيب ضمائرهم يحرك في نفوسهم الغضب والحزن . لانهم ادخلوا غيرهم في الكفر ، واذا كانوا قد تابـوا . فقد وجب عليهم ارجاع من كفر معهم يوم التحكيم بقبول التحكيم الى التوبة، وكان ذلك في رأس ما طلبوه من الإمام .

والى جانب ذلك كان الامام يراهم رعية في خلافته وارضه . وانهم قوة صلبة يجب ان توجه لخير المسلمين ، وحماية حياضهم وثغورهم واوطانهم ، فلا يدخل معهم في حرب يبيدهم فيهـا ، ويصيب من في عسـكره بالاذى والجروح والخسائر ..

لكن الخوارج قد صاروا الى عقيدة ضيقـة ، واندفعـوا تحت طائلة

تبكيت الضمير الى قتله . وتحول ذلك الى هوس فيه جنة للقتال . وابداء البسالة فيه والثبوت حتى الموت .. وكان ذلك دون ريب يشعرهم بالكفارة والراحة ..

وكان الافضل من ذلك ، لو كانوا يعون حجة ، ويفهمون حكما من حكم الامام، وقد جادلهم بنفسه . وارسل اليهم الخيار من خاصته لمحاجتهم وجدالهم .. كان الافضل لهم ان يعودوا الى الامام . ويلتفوا من حوله ، ويعيدوا معه الكرة على عصاة الشام، ويقيموا فيها سلطان الخليفة ، ويجروا فيها احكام الدين . وبذلك تتم لهم كفارة ترضي ضمائرهم القلقة ..

ويعزو بعض المؤرخين المعاصرين ذلك الى بداوتهم وضيق افقهم ، فلقد كانوا في الغالب بدوا بعيدين عن حضارة المدن ، وقد اخذوا الكتاب وفهموه وفق هواهم وهوى كبرائهم .. فكانوا بذلك شرا أي شر على الاسلام والمسلمين ..

ولست هنا بداخل في تفاصيل موسعة عنهم ، وعن عقيدتهم ومنطقهم وجدلهم ، ومراكز تجمعاتهم التي حولوا فيها مجتمعهم الى نوع خاص بهم، لا يرضي سواهم من المسلمين ، لانه في اكثره خلاف للدين .

ولكني أقول مرة أخرى : ان الخوارج كانوا مصيبة عمياء ، وعقبة وضعوا انفسهم كأداء ، أمام الخليفة الإمام ، وقطعوا عليه الوقت الذي كان يجب ان ينفقه لمصلحة المسلمين ، وكفى بهذا ضررا ما أبلغه من ضرر .

***

ولم يكف معاوية كيده عن الامام ، فكان يرسل جنده يقاتل بهم مسالح الامام في تخوم العراق ، فيقتل من يقتل ، ويسلب السلاح والمهام، ويسبي من يرى في طريقه .. والى ذلك كان يرسل الرسل خفية الى البصرة

وغير البصرة ، يحبب اليهم نفسه ، ويزهدهم في الإمام ، فيُصَدّ تـار ويجاب أخرى . فكان لزاما على الامام ان يخرج الى معاوية مرة اخرى ليضع حدا لعدوانه ، ولم يكن أمامه من عمل ادنى وافضل من هذا .

وهكذا جمع الإمام أكثر من ثمانين الف رجل لتلك الغاية ، فلما تهـ للمسير الى الشام أتاه عن الخوارج أخبار فظيعة ، مِن قتلهم عبـدالله بـ خباب وامرأته ، وذلك انهم لقوهما فقالوا لهما :

أرضيتما بالحكمين ؟

قالا : نعم . فقتلوهما وقتلوا أم سنان الصيداوية ، واعترضوا الناس يقتلونهم ، فأرسل اليهم الامام الحارث بن مرة ليأتيه بخبرهم ، فأخـذو فقتلوه ، فلما بلغ الناس ذلك اجتمعوا الى الإمام ، فقالوا :

يا امير المؤمنين ، أتدع هؤلاء على ضلالتهم وتسـير ؟ فيفسدوا في الارض ، ويعترضوا الناس بالسيف ، سر اليهم وادعهم الى الرجـوع الى الطاعة والجماعة ، فإن تابوا وقبلوا فان الله يحب التوابين ، وان ابوا فآذنهم بالحرب ، فاذا أرحت الامة منهم سرت الى الشام .

فنادى بالناس للرحيل ، وسار حتى ورد عليهم نهروان ، وعسكر على بعد فرسخ منهم ، وأرسل اليهم قيس بن سـعد بن عبـادة ، وابـا ايوب الانصاري فأتيا فقالا :

« عباد الله انكم قد ارتكبتم أمرا عظيما باستعراضكم الناس تقتلونهم وشهادتكم علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم » .

فأجابهما عبدالله بن السخيَّر فقال :

اليكما عنا، فإن الحق قد أضاء لنا كالصبح ، ولسنا بمتابعيكم ولا راجعين اليكم » .

ولم يفد معهم جدل أو ادلال بحق ، وانتهى الامر بأن قالوا « إليكما عنا فقد نابذناكم على سواء » .

فانصرفا الى الإمام فأخبراه بذلك ، فأقبل حتى وقف عليهم بحيث يسمعون كلامه ، فنادى : ايتها العصابة التي اخرجتها اللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، فأصبحت في لبس وخطأ ، اني نذير لكم تتمادوا في ضلالتكم، فتلقوا مصرعين من غير بينة من ربكم ولا برهان .

ألم تعلموا اني شرطت على الحكمين ان يحكما بما في كتاب الله ، واخبرتكم ان طلب القوم الحكومة مكيدة؟ فلما أبيتم الا الحكومة ، شرطت عليهما ان يحييا ما احيا القرآن ويميتا ما امات القرآن ، فخالفا الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الاول ، فأين يتاه بكم ومن اين أتيتم ؟ » .

قالوا : « إنا كفرنا حين رضينا بالحكمين ، وقد تبنا الى الله من ذلك، فإن تبت كما تبنا فنحن معك ، والا فاذن بحرب ، فانا منابذوك على سواء » .

فقال الامام محتجا : أشهد على نفسي بالكفر ؟! لقد ضللت اذن ، وما أنا من المهتدين ..

وجادلهم الامام وأفحم كبيرهم ومنطيقهم ابن الكواء حتى اعجزه ، فلما رأى عظماء الخوارج ذلك قالوا لابن الكواء : انصرف ودع مخاطبة الرجل .

ولما ابوا الا التمادي في الغي ، ولا بد ان كثرتهم قد أغرتهم ، وكانوا قد جمعوا رجالهم من البصرة والكوفة ، حتى بلغوا اربعة آلاف مقاتل ، أمر الامام بالنداء في الناس ان يأخذوا أهبة الحرب ، ثم عبأ جنوده للقتال ، ووزع عليهم امراءهم ، وفعل الخوارج مثل ذلك .

ورفع الامام راية وضم اليها ٢٠٠٠ رجل ، ونادى من التجأ الى هذه

الراية فهو آمن ، فخرجت من الخوارج فئة فلحقت بالكوفة ، واتجهت اخرى الى بنو تيم ، واستأمن على الراية منهم ١٠٠٠ رجل ، فلم يبق مع عبدالله الا اقل من ٤٠٠٠ رجل .

فتنادت الخوارج وافترقت فرقتين ، فرقة اخذت الميمنة ، وفرقةاخرى نحو الميسرة ، وعطف عليهم اصحاب الامام ، ودارت معركة حامية انتهت بهزيمة الخوارج شر هزيمة ، وأمر الامام من كان منهم ذا رمق ان يدفعوا الى عشائرهم ، وكانوا ٤٠٠ رجل وأمر بأخذ ما كان في عسكرهم من سلاح ودواب فقسمه في أصحابه .

وكان تاريخ هذه الوقعة ٩ صفر سنة ٣٨ هـ ، وخطب الامام بعد النهروان في الناس ، فقال :

« ايها الناس استعدوا للمسير الى عدو . في جهاده القربة الى الله . ودرك الوسيلة عنده ، حيارى في الحق ، جفاة عن الكتاب ، نكبٌ عن الدين ، يعمهون في الطغيان ، ويعكسون في غمرة الضلال ، فاعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا . وكفى بالله نصيرا » .

فلم ينهضوا ولم يتيسروا ، فتركهم اياما وعاد اليهم ، فكانوا يتذرعون ويتقاعسون ، وقلّما نشطت منهم اليه جماعة تذكر ، حتى ملأوا قلبه بالحزن والضجر ، فخطب فيهم خطبة يوضح لهم ما لهم وما عليهم فقال :

« اما بعد فإن لى عليكم حقا ، وان لكم عليّ حقا .

فأما حقكم عليّ ، فالنصيحة لكم ما صحبتكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيما لا تجهلوا وتأديبكم كي تعلموا .

وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصح لي في الغيب والمشهد ،

والاجابة حين ادعوكم ، والطاعةحين آمركم ، فان يرد الله بكم خيراً، انتزعوا عما اكره ،وترجعوا الى ما احب ، تنالوا ما تطلبون ، وتدركوا ما تأملون.

ولكن ما اقل من كان يستجيب ، أو تتحرك فيه نبضة ايمان ، تحمله على المضي في جهاد عدو يتربص لهم في الشام ، ويقتص من اطراف ديارهم وهم قاعدون عن نصرة ولاة الخليفة في الامصار .

* * *

وها نحن الان في هذه المرحلة من حياة الامام ، وقد امتلأت بالشجون والكروب ، وما يشبه العصيان بين جنوده . فلا يكاد يجمعهم في معسكر، حتى يتسللوا منه هاربين نازحين الى بيوتهم ..

ولا يكاد يدعوهم لجهاد . حتى يظهروا شتى المعاذير ، حتى بلغ بهم الجزع والعقوق ان خيروا له مواسم الخروج ، ونكلوا حتى في ذلك ، فاذا دعاهم في الصيف شكوا الحر واستمهلوه الى الشتاء ، واذا دعاهــم في الشتاء طلبوا ارجاء ذلك الى الصيف ، كل ذلك ومعاوية يرسل زحوفا من جيشه ، يثلم من هيبة الحكم ويستاق المغانم ويعود بالاسلاب ..

والحقيقة ان المرء يستطيع ان يقول الكثير في هذا ، فما من شيء اوجع للنفس الحرة من رؤية بناء يريد ان يقيمه على العدل والرصانة والجد ، حتى يراه يتهاوى ويتزعزع ويهوى ..

ولا يكاد يدفع القوم الى حسية ، حتى يأخذهم برود الراحة ، وتطمعهم سماحة الامام بالاستطالة واجتناب المواقع ، وهي الزم ما تكون لصيانــة البلاد من عبث معاوية وتحرشات جنده !

لقد قلنا في غير هذا المكان ، ان الخلافة صارت الى الامام بعد تبدل في السلائق والطبائع ، ونوم النفوس على وداعة الحياة ولينها ، وعلى ما

كسبوا في الماضي من متاع ومغانم استبقاها بعضهم ، وكاثرها وصار من ارباب الثروات والمزارع ، فعزت عليه الدنيا ، وتهاون غيرهم في امور دينهم لاسباب غيرها .. كل ذلك قد ذر قرنه في خلافة الامام .

لقد تحول مجتمع العراق في ايام الامام ، الى مجتمع ذي طابع خاص ، يحمل في ثنايا حياة الناس ، بداية جديدة لنوع من الترف والاستسلام للدعة .

وكان المجتمع العربي في عهد الامام مجتمع حرية فكرية ، لم يكن لها أي ظل في جناح معاوية ..

كانت هناك الطاعة العمياء من الرعية ، المشدودة الى الزعماء والعظماء والاغنياء ، وهؤلاء مشدودون بدورهم الى معاوية ، بشتى المطامع التي كان يمنيهم بها او يغدقها عليهم ..

وفي ظل تلك الحرية والامن والمسامحة والنصح ، دبت عقارب الحسد واللؤم في كثير من النفوس الوضيعة ، وعملت اموال معاوية عملها ، واخذت رسله تتغلغل في كل جماعة أو مجتمع داعية ومحرضة ، تدعو الى القعود عن الدعوة ، والى التهاون في امر الدين ، والركض وراء مغريات الدنيا ، في عهد امام زاهد فيما يتهالك عليه الناس ..

ولقد اتعب هؤلاء الناس إمامهم وخليفتهم ، وافجعوه بقعودهم ، وسببوا لعهده البلبلة ، وهو من أشد الناس حبا باقرار العدل في ظل شريعة الله ، وأخذ معسكر معاوية يكبر على حساب من يخرج من الكوفة وغير الكوفة اليه ، يشد ازر الظلم والطاغية ضد الامام العادل الحصيف ، المؤتمن الامين على رسالة الاسلام .

وفي ذلك الجو من القلق تطلع الخوارج ، وقد تجمعوا بعد بعثرة ،

للعودة الى ما كانوا قد خرجوا به للعالم الاسلامي من ضلال ، وتطلعوا الى الخصوم فوجدوا الامام في الكوفة ، ومعاوية في الشام ، وعمرو بن العاص في مصر ، فتآمروا وقرروا ان يزيلوا هؤلاء جميعا ، ليخلو لهم الجو ، فيقروا مبدأهم ، وقد اختلط عليهم أمر الدنيا بأمر الدين ..

اذن فقد صارت الخوارج حزبا سريا ، ولجأت الى العدوان والاغتيال، بعد ان عجزت من مناوشة الامام جهرة في ميدان ..

فاجتمع ثلاثة منهم في مكة ، وندبوا انفسهم لقتل الثلاثة .. وهيأوا انفسهم واعوانهم لذلك : فوصل عبدالرحمن بن ملجم ـ اللعنة عليه ـ الى الكوفة واختلف الى قطام ، وهي سيدة بارعة الحسن موتورة ، قتل ابوها واخوها يوم النهروان ، فآوته واغرته ووجدت له اعوانا على قتل الامام .

وقالت قطام تبالغ في جره الى الجريمة الشنعاء : لا اتزوجك حتى تشفي لي !

قال : وما يشفيك ؟

قالت : ثلاثة الاف درهم ، وعبد وقينة ، وقتل علي بن ابي طالب .

قال : هو مهر لك ..

قالت : اني اطلب لك من يسند ظهرك ، ويساعدك على أمرك ، فبعثت الى رجل من قومها اسمه وردان ، فكلمته فأجابها ، واتى ابن ملجم رجلا من اشجع يقال له شبيب بن بجرة ، فأقنعه واشركه في قتل الامام بما ملأ نفسه من ضغينة عليه .

فجاؤا قطام ، وهي في المسجد الاعظم معتكفة .

فقالوا لها : قد اجتمع رأينا على قتل علي .

قالت : اذا أردتم ذلك فأتوني ..

وعاد اليها ابن‌ملجم في ليلة الجمعة ، التي قتل في صبيحتها الامام سنة ٤٠ هـ ، فقال : هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي ان يقتل كل واحد منا صاحبه .. فدعت لهم بالحرير ، فعصبتهم به ، واخذوا اسيافهم ، وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها الامام ، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق ، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف في جبهته ، وهرب وردان حتى دخل منزله ، فدخل عليه رجل من بني ابيه وهو ينزع الحرير عن صدره .

فقال : ما هذا الحرير والسيف ؟ فأخبره بما كان وانصرف . فجاء بسيفه فعلا به وردان حتى قتله .

وخرج شبيب نحو ابواب كندة في الغلس ، وصاح الناس ، فلحقه رجل من حضرموت ، وفي يد شبيب السيف فأخذه ، وجثم عليه الحضرمي ، ثم فلت شبيب من الحضرمي وضاع في غمار الناس ، فشدوا على ابن ملجم فأخذوه ، الا ان رجلا من همدان يكنى ابا ارماء ، اخذ سيفه فضرب رجله فصرعه ، وتأخر الامام وتقدم جعدة بن هبيرة ابن ابي وهب ، فصلى بالناس الغداة .

ثم قال الامام : عليّ بالرجل ، فادخل عليه ثم قال :

« أي عدو الله ألم أحسن اليك ؟! »

قال : بلى ..

قال : فما حملك على هذا ؟

قال : شحذته اربعين صباحا ، وسألت الله ان يقتل به شر خلقه !

فقال الامام : «لا اراك الا مقتولا به ولا اراك الا من شر خلقه» .

ثم قال : النفس بالنفس ، إن انا متّ فأقتلوه كما قتلني ، وان بقيت

رأيت فيه رأيي .

وإذ عرف الامام بدنو أجله ، وانه غير ناج من الضربة ، دعا حسنا وحسينا وقال :

أوصيكما بتقوى الله ، والا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوي عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، واغيثا الملهوف ، واصنعا للأخرق ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما في الكتاب ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم » .

وقبض —رضوان الله عليه— بعد ثلاثة ايام من اصابته ، وهكذا بكل بساطة وورع ، انتهى الرجل العظيم ، ورقد رقدته الاخيرة ، وترك هذه الدنيا الفانية الغرارة ، وصعد الى الرفيق الاعلى في ملكوت الله ، ليلتقي بنبيه والاكرمين من صحابته في الايمان والجهاد .

* * *

ان المرء وهو يصل هذه النهاية المريرة ، يعجب لماذا كانت مثل تلك الضربة القاتلة ، من يد كافر فاجر ، القاضية على تلك الحياة الجليلة ، المجللة بالمهابة والوقار ، والبطولة وروعة الشيخوخة ؟!!

وهو الذي خاض غمرات الموت ، وكان من المعارك في قلبها ، وفي اهول ما فيها من هول .

ولماذا صرعته ضربة ابن ملجم اللعين الغادرة ، واطفأت تلك الحياة الكبيرة ، بعد ثلاثة ايام من ألم الجرح ، وألم الحزن ، ومرارة ما لقي من ظلم ودناءة وعقوق ؟ وهو الذي ملأ الارض بالطيبة والكرم والشجاعة !

فلا يجد المرء الا ان يقول : تلك هي ارادة الله ، فالله الذي جعل منه بطلا وسندا لنبيه ، وعلما يخفق في الآفاق برسالته ، وزيّن المجالس بأدبه

وحكمته وبلاغته وعفته ، أراد له ان يقع صريع تلك اليد الاثيمة ، الخارجة على الدين وعلى اجماع المسلمين ..

فلا مردّ لأمره .

* * *

وان الفكر ليحار ، اذا لم يعزُ نهاية الامام ومصرعه الى إشاءة الله ، تلك النهاية التي توجت في آخر ايامها ، بأبهى ما يتوّج به الابرار ، وهو دم الاستشهاد .

وإلا لماذا نجحت المؤامرة ضده وحده ؟ ولمـاذا نجا منها معاويـة فلم يصبه صاحبه الا بجرح بسيط في اليته ؟ ومعاوية أصل المصيبة وسبب ما أصاب الامام والمسلمين في محنة وبلاء ؟

ثم لماذا نجا عمرو بن العاص ، فلم يصبه صاحبه بضرر ما ، وقتل بدلا عنه «خارجة» مدير شرطته ، الذي أدى صلاة الفجـر في المسجد بدلا من عمرو ، ليتلقى الضربة القاتلة ، وعمرو يغط في هنيء النوم في قصره !.

ان المرأ وهو يحلل ويدقق ، ويتفحص الامور ويقارن ، لا يجد من سبب يقنعه باستشهاد الطيب الورع الخير ، شهيدا في طريقه الى المسـجد للصلاة إماما بالناس ، وبقاء الفاسد المراوغ النائم الى الضحى نومة الكسل والبطر سالما من كل اذية ، اذا لم تكن تلك هي ارادة الله ..

ويضرب الله الامثال للناس ..

وكان الامام مثلا في الحياة ، ومثلا في الموت ، ويا له من مثل عظيم قليل المثيل ..

* * *

لقد انتهينا في الصفحات الماضية ، من سرد بعض ملامح الحياة الاجتماعية

والفكرية والدينية في عهد الامام ، فكان منها هذا الذي واجهنا به القاريء ولا نريد ان نعتذر عن قصور ، فلقد بذلنا الجهد ، وحكمنا العدل ، ونظرنا الى الامور والملابسات من شتى جوانبها ووجوهها ، مبعدين عن الذهن كل تطرف الى هذا أو ذاك ، ومع ذاك لم نخرج الا بالقليل ، ولم نلق على تلك الحياة الرائعة الفخمة ، غير بصيص من نور القلم ، في حين كانت حياة الامام ، هي المشعل الذي اضاء لنا وسيضيء طريق كل باحث غيرنا ، الى ما حاول المغرضون خنقه والاتيان عليه .

ذلك ان الشعلة الوهاجة تظل : شديدة البريق ، لماعة الجوانب ، وهي تضيء مدلهمات الليالي .

واني لأعترف بكل تواضع ، ان ما كتبت وما كتبه غيري ، الا بعض جوانب تلك الحياة الضخمة العريضة ، في بداية مرحلة شاقة من أهم مراحل التطور الانساني نحو العدالة ، وقد كان فيها الامام قوة ، وقوة دفع جبارة لم تكل عن المضي في دفع تيار تلك المرحلة الى أجلها ، في بعد المسافة من حياة الانسانية ..

وانه لفخر لي كل الفخر ، كما هو فخر لغيري ، ممن يتجرد من نزعات الهوى ومؤثرات البغضاء ، ان أقول : ان حياة الامام ملهمة بشكل غريب ، يورث الكاتب المتحرر حماسا لا يفتر ، وانه يقود من يكتب عن حياته الثرية الفياضة بالمكارم الى باحات اوسع وارحب بلطف ، فالمرء حين يكتب عنه بدقة ، يشعر كأنه يتحدث اليه ، ويتخيله في جلسة على الارض في المسجد ، أو متكئا الى دوحة في معركة انتهت ، أو الى كتاب يكتبه بصوت عال ، وانت مأخوذ به مصغ اليه ، تواق الى الكثير مما يخيل اليك انك تسمعه منه بالذات ..

ولقد كان هذا شعوري حين شرعت بالكتابة ، واستهللت المدخـل ، وتفرعت في البحث عن شوارد وطرائف واحزان تلك النفس الكبيرة الابية ..

وأقول الحق : ان الكتابـة عن الامام ، اختبـار عقلي مخيف لذهن الكاتب وقلمه ، وان حياة الامام مثلما هي واضحة ورائعـة ومكتظة بالعبر والامجاد ، مليئة ايضا بمشتبك من الآراء الحاقدة الظالمة ..

فالماضي قدما في حياة الامام ، يرى نفسه كأنه يقطع غابة لفاء ، للوصول الى شجرة عظيمة باسقة ، ولا بد عليه ان يزيل عن طريقه الشوك والعوسج والعليق ، ويتجنب لسع البعوض ولدغ الافاعي ، والا هلك قبل ان يصل الى تلك الشجرة العظيمة الباسقة ، أو بلغها منهوك القوى ضعيف النفس ، فلا يتمتع منها بظل أو يروى بثمر .

لقد رأى القاريء بعض الجوانب من حياة الامام ، وهي ليست كل حياته ، غير ان طابع تلك الحياة الكبيرة ، واحد في الكرم والاباء والشجاعة والترفع ، ووفيها مزيد لكل كاتب ومفكر ، تلهمه الجديد وتعطيه الثقـة ، وتفتح أمامه آفاق التفكير العادل المستقيم ..

ولا بد ان ينتهي الباحث ــ أي باحث منصف ــ الى ان حياة الامام كانت فريدة من نوعها ، وكان نفسه نموذجا فذا ، حين استجمع كل فضيلة وطيبـة ..

ولعل انبل سجاياه ، ــ وكلها نبيلة أصيلة ــ ذلك الايمان العميـق بالاسلام ، والوفاء بعهده له ..

وانه لمن تكرار القول : ان الامام كان جزءا اصيلا في تلك الرسالة بما حمل وتحمل من آلامها واثقالها وتبعاتها ، يافعا وفتى وغلاما وشابا وكهلا مضرجا بدمه خالدا في الخالدين .

واذ ذكرنا بعض اقوال الامام ، وما اخذه عن الرسول ، كان علينا ان نعرف منــذ البداية ، تلك النهاية الحزينــة المروّعــة ، التي انتهت اليها حياته النبيلة .

فلقد كان يقول لبعض حاضري مجلسه : لتخضبَّن هذه بهذه ...وتلك القولة لرسول الله وهو ينعي الى الامام نهايته ..

ولقد كان ما قال رسول الله ورآه بعين بصيرة ، شقت حجب الغيب ، فسقط سيف بن ملجم الدنيء على جبهة الامام ، فشقها ، فتخضبت هذه من تلك ، تخضبت اللحية بدم الجبهة .. ونزف الجرح اياما ثلاثة ليعطي من دمه النقي زكاة الطهر عن اثم الآثمين ..

* * *

واذا كانت القوة هبة الله ، اورثه اياها من آباء صيد اكرمين .

واذا كانت الشجاعة ثمرة تلك القوة الموروثة الموهوبة ، لتحمل تبعة حياة امتلأت بالمسؤوليات الجسام ، فإن امتلاء ذلك العقل الكبير بكل حكمة وذكاء وفهم ، هو الآخر يجب ان يكون واحدا من هبات الله ..

وان تكون حصيلة علمه ، هبة وتلقينا وقدوة من حياة اعظم .. بالاضافة الى ما قرأ الامام ووعى وفكر ودقق ..

وانك لتجد في كل خطبة من خطبه ، اثر كل ذلك العقل الواسع والحلم البعيد الغور ، البعيد عن الانانية ، حتى لتحسب انه يعظك انت بالذات ، ويقصدك فيدخل الى ابعد أبعاد نفسك ، وحدك من دون الناس ، وهذه من أكرم ما يؤتاه الانسان الاديب الحكيم ، الذي تستقبله الحياة لتواجه بــه ناس عصره .. وتفخر به في مسرى حياة الانسانية كلها ..

فللأمام ــ كرم الله وجهه ــ اسلوبه المعبر عن شخصيته ، وعن مذهبه،

في المنطق والتفكير وفي مواجهة الناس بما عنده .

فهو واضح جليل ، فسيح الابعاد ، وسهل الاستيعاب ، فلا عجب اذا ما وجد كثير من الناس يحفظون ما يقول ، ويستوعبون خطبه بيسر ومودّة.

واذا كنا نتعثر احيانا في فهم بعض اقواله فلأن بلاغته كانت في عصره ، وهو عصر بلاغة ، وقريب عهد ببلاغة الجاهلية .. كانت في الصدر من بلاغة البلغاء ، فما يشكل علينا من اقواله وخطبه ، مأتاه اننا ابتعدنا عن جو تلك الديباجة الفخمة ، ونسينا مفردات تلك اللغة المستقيمة ، المليئة بالمفردات المعبرة عن شخصية مستعمليها ..

وعندي ان اعظم خطب الامام وترسله ، كان يبدو بأنصع بيان واشرق اسلوب ، عندما يخطب وهو آسٍ غضبان ، أو حزين موجوع ، فإن كل ذلك كان يهز اوتار قلب حساس هزا ، دون لين ورحمة ، فيتدفق فيض ما في قلبه على لسانه ، بلاغة ليس اوضح وافصح منها ..

ثم في تلك الرسائل يكتب بها الى عماله ، ويجادل بها الخارجين عليه، فيسكت ويدفع بحجة في سطر أو سطرين .. فلا تجد وانت تستحضر كل ما لديك من بلاغة ، جوابا أو بعض جواب مشابه عليه .

واستطيع ان اقول : وانا اجنب نفسي الغلو في اعطاء الاحكام ، حتى ما هو سليم وعادل منها .

استطيع ان أقول : ان الامام كان اول من عرف النثر الفني ؛ لانه وضعه ودبجه ورفع مكانته لنأتي من بعده ، فنشطر ونقسم بلاغته ابوابا مصنفة ، كل صنف منها في الاعلى من مكانات الاصناف ..

واذا كان الله تعالى ، قد عزّ الاسلام ببطولته وقوته ، وتفكيره وشجاعته ، فلقد عزّ اللغة العربية ببلاغته وفصاحته ، فكان لنا منه هذا

التراث الادبي الاخلاقي التشريعي ، وهو في القمة من السمو ودقة التعبير والحكمة الرصينة المكينة الخالدة التي لا تبلى ..

لقد كان الحزن يهزه ، فيتدفق لوعة وموعظة ، ويرعد على المنبر حين يغضب ، وقد استبد به تقاعس رعيته وقعودهم عن نجدته .. ويغضب بعد ان افرغ حجته بتؤدة وحلم ، فلا يجد ممن وعظه غير المكابرة والـكذب والتطاول ..

عندما انتصر فيمعركة الجمل ذلكالانتصار الباهر ، وقد خاضها بنفسه، وشق غمراتها في القلب والمقدمة والميسرة والميمنة .. صعد المنبر وخطب من حضر في المسجد ، فالقى في وجوه الخارجين عليه من أهل البصرة يومئذ ، ما جعلهم ينكسـون الرؤوس خجـلا ، حتى بكي بعضهم وهو في اشـد حالات الندم .

فلنستمع الى تلك الخطبة الرنانة المدوية البليغة ، لنر كم فيها من جمال ودفء في التعبير ، وقوة في الاداء والمقصد ، وما تحمل منألم النفسالكبيرة حين تهيج ، في وجه الجور والانحلال وعدم الاكتراث .

قال رضي الله عنه : أما بعد فإن الله ذو رحمة واسعة ، وعقاب اليم ، فما ظنكم بي يا أهل البصرة ؟! واتباع البهيمة ، رغا فقاتلتموعقر فانهزمتم، اخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، وماؤكم زعاق ، ارضكم قريبة من الماء بعيدة عن السماء ، وايم الله ليأتين عليها زمان ، لا يرى منها الا شـرفات مسجدها في البحر مثل جؤجؤ السفينة .. انصرفوا الى منازلكم . »

* * *

ما أجمل ما قال وحكم وهو غاضب حزين ، يا اتباع البهيمة ، رغـا فقاتلتم وعقر فانهزمتم ..

والحقيقة ، ان المرء ليشعر خلال هذه الكلمات حرارة الصدق ، وما الادب الحق الا الصدق ، وما الحكمة الا ابنته •

ولم تجد في كل ما كتب وخطب به ، الا مثل هذه الحـرارة ، وهي قوام اسلوبه، وقوام شخصيته ، لانه كان صادق اللهجة مؤمنا ، عميق الايمان بما كان يكتب أو يقول •

وانظر الى حرارة أدبه في غير حال الحزن والغضب ، انظر الى ذلـك وهو يقدم الكوفة من البصرة ، فلا يكاد يواجه مشارفها ، حتى يخاطبها بحرارة المحب العاشق جمالها وتربتها وحب اهلها ، حتى يخيل لي وهو على دابته يفتح ذراعيه كالمبتهل فيقول :

ويحك يا كوفان ! ما أطيب هواؤك ، واغذى تربتك ، الخارج منك بذنب ، والداخل اليك برحمة ••

ويا لها من تحية من طيب كريم الى ارض طيبة كريمة •

وفي رسالة كتبها الى عمرو بن العاص قال :

« أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ، صاحبها منهوم ، فلا يصيب منها شيئا الا ازداد عليها حرصا ، ولم يستغن بما نال عما لا يبلـغ ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من اتعظ بغيره ، فلا تحبط عملك بمجاراة معاوية في باطله ، فانه سفه الحق واختار الباطل والسلام » •

لقد خاطب الامام في هذه الكلمات القليلات ، قلب عمرو بن العاص ، ذكره بما هو فيه من انشغال بالدنيا عن غيرها ، وذكره الى ان ما يجمع المرء ويحرص عليه ، الى فراق ، ووعظه وذكره ان السعيد من اتعظ بغيره •

فلما لم يتعظ ، وظلت الدنيا شغله الشاغل ، تركه ليواجه عمرو خاتمة حياته وهو يجر وراءه تاريخا ، غطاه غبار خانق من الجشع والظلم والمكيدة

لتدعيم الباطل الذي كان اليه هواه ونفعه ومصرعه ..

وخطب الامام في جيشه بعد معركة النهروان ، يحثهم على المسير الى الشـــام قال :

ايها الناس استعدوا للمسير الى عدو في جهاده القربة الى الله ، ودرك الوسيلة عنده ، حيارى في الحق ، جفاة عن الكتاب ، نكبٌ عن الدين ، يعمهون في الطغيان ويعكسون في غمرة الضلال ، فأعدوا لهم ما اســتطعتم من قوة ومن رباط الخيــل . وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيــلا ، وكفى بالله نصيرا » .

فلم ينفروا ولم يتيسروا ،فتركهم اياما ، فلما طال تباطؤهم ، دعا رؤساء القوم ووجوههم ، فقام فيهم خطيبا فقال :

عباد الله ما لكم اذا امرتكم ان تنفروا اثاقلتم الى الارض ، أرضيتم بالحياة الدنيا عن الاخرة ؟! والذل والهوان من العز ؟ أوَ كلمــا ندبتكم الى الجهاد دارت أعينكم ، كأنكم من الموت في سكرة ! وكأن قلوبكم مألوسة، فأنتم لا تعقلون ، وكأن انصاركم كُمْه" فانتم لا تبصرون ، لله انتم ! ما انتم الا اسود الشرى في الديمة ، وثعالب رواغة حين تدعون الى البأس ، ما انتم لي بثقة سجيس الليالي ، ما انتم بركب يصال بكم ، ولا ذي عز يُعتصم اليه ، لعمر الله بئس خشاش الحرب انتم . انكم تــكادون ولا تكيدون ، وينتقص اطرافكم ولا تتحاشون ، ولا يُنام عنكم وانتم في غفلة ساهون ، ان أخا الحرب اليقظان ، وبات لذلٍ من وادع . وغلب المتجادلون والمغلوب مقهور مسلوب ..

وبعد ان نصح وجوههم بتلك الكلمات الحادة الموجعة ، ملؤها الاستثارة والنصيحة والموعظة الحسنة ، عاد اليهم ليشرح ما لهم عليه وما له عليهم ،

وكان قد انجز ما عليه لهم ولم ينهضوا بما له عليهم ، فقال :

أما بعد فإن لي عليكم حقا ، وان لكم عليّ حقا ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم ، وتوفير فيئكم ، وتعليمكم كيما لا تجهلوا ، وتأديبكم كي تعلموا .

أما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصح لي في الغيب والمشهد ، والاجابة حين ادعوكم، والطاعة حين آمركم ، فإن يرد الله بكم خيرا اتنزعوا عما اكره ، وترجعوا الى ما احب ، تنالوا ما تطلبون ، وتدركوا ما تأملون ... »

ان هذه الخطبة القصيرة — بغض النظر عن قيمتها من حيث هي بلاغة وادب وحكمة — فإن فيها تفصيلا دقيقا مركزا على مسؤولية الحاكم والمحكوم لم يزد عليه احد في أي عصر من العصور المتأخرة والمتقدمة ، ففي هذه الخطبة منهج دولة ، وفهم رئيس دولة لمسؤولية الحكم ، في طابع من جلال الدين وشريعة المسلمين ..

فقد جعل الامام الرئيس مسؤولا عن كل ما هو اساس وحيوي للحياة البشرية :

١ — تعليمهم وابعادهم عن الجهل والضلالة .

٢ — توفير فيئهم وفيه معاشهم ، وتقسيط مواردهم عليهم بالعدل .

٣ — نصحهم ما صحبهم .

فهل في الدولة العصرية في هذا القرن ، من مسؤولية اخرى غير ما اجملها الامام في تلك الخطبة ؟..التعليم ، وكفالة العيش ، ثم الثالثة الكبرى « نصحهم ما صحبهم » فان الدين النصيحة . والنصيحة اخلاص ، والرئيس الذي لا ينصح لا يخلص ، ومن لا يخلص لا يذب عن حقوق المسلمين ..

واذا كان قد فصّل الامام هذا ، فبين لجمهور جمهوريتهما عليه لهم ، فلقد وضح لهم ايضا ما له كخليفة وامام ، عليه ان يضطلع لهم بما تقدم فحدد حقوقه عليهم بما يلي :

١ ـ الوفاء بالبيعة ، والنصح في الغيب والمشهد •

٢ ـ الاجابة حين يدعوهم •

٣ ـ الطاعة حين يأمرهم •

فهل في العصر الراهن من مسؤوليات على الشعب أكثر من هذه ؟

الاخلاص للرئيس في رئاسته ، والالتفاف حوله خلال مدة البيعة بالولاء ، والذود عنه في الغيب والمشهد ، ثم اجابته حين يدعوهم ، وهو لا يدعوهم الا الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ورفاههم ••

والطاعة حين يأمرهم ، فلا استقامة أو دوام لمجتمع ، دون طاعة رئيس أو كبير ، واللياذ بحكمته وحسن تصرفه كمسؤول وضعه الانتخاب في مركزه، وعلى من فعل ذلك ان يطيع لتزدهر من حولهم الحياة مكفولة بالرغد والرفاه•

لقد كنا بصدد بلاغة الامام ، ورقة اسلوبه الدافيء الابوي المشفق في اللين ، المؤنب لنفع وايقاظ في الترح والغضب ••

ولكن ما العمل ، وقد فصل الامام في خطبته تلك ، كل ما على الرئيس والجمهور في الدولة ، أي دولة معاصرة تفخر اليوم بعلو شأنها وتقدمية افكارها وحرية ابنائها ••

ولقد ادى الامام ما عليه بأكثر مما يراد منه ، وعاش عيشة الرعية ، وأقل من الرعية رغدا ورفاهية ، بل عاش عيش الكفاف ، على ما رخص ثمنه وتوفر وجوده ، ولبس من اللباس ما خشن وما لم يلبس مثله الامراء والكبراء استكبارا ••

لقد كان إماما وقدوة ، لانه وجد ليكون كما كان ، مثلا واحدوثة ، فكان عظيما في الدنيا ، عظيما في الآخرة ، لانه عمل لكليهما بكل صـــدق وايمان •••

فكان بطلا في المعارك ، سيفه آية الحق حين تصرع الصناديد المكابرة من أعداء المسلمين ، وصوته على المنبر ،عدل وتشريع وايقاظ واقرار حكم ، واقامة قاعدة ، لا يضل بعدها في مثلها الناس •

وانه لمن الانصاف ان يكتب الكتاب عنه ما هو حق ، ليس اكثر • انه ليس بحاجة الى تمجيدهم ، ولكن ليس عدلا ان يصيبه جورهم وعقوقهم• وانه لعقوق اكيد من كل انسان لايقول الحق عنه وفيه ، ومن أي نحلة كان وأي مذهب •• ذلك ان حياته في نطاق جهادها ، كانت للانسانية جميعا ، لان رسالة الاسلام كانت للبشرية كافة ••

وانه لعدوان على الحق ، ان يرى المرء كل تلك الحياة العريضة الشامخة، فلا ينحني لها اجلالا واحتراما بالاعتراف بها عظيمة جليلة ، والاشادة بها بما تستحق لتكون من جديد قدوة لمن يحسن الاقتداء •

رحم الله ابا الحسن •• كلمة قالتها الاجيال صادقة معجبة ، او نادبة باكية ، وليس لنا ما نقول اكثر من هذا ••

رحم الله ابا الحسن •

فقد كان نفسه طوال حياته العظيمة المخلدة رحمة للناس ••

* * *

تم الكتاب صبيحة يوم الجمعة الواقعة في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٨٦ هجرية و ٢٩ تموز سنة ١٩٦٦ ميلادية في بغداد •

عبدالمجيد لطفي

مصادر البحث التي استند اليها المؤلف
في وضع هذا الكتاب

١ ــ خلفاء محمد تأليف الاستاذ عمر ابو النصر •

٢ ــ الإمام علي بن ابي طالب تأليف الاستاذ محمد رضا ــ القاهرة ــ •

٣ ــ الوصي تأليف السيد علي نقي الحيدري •

٤ ــ سيرة امير المؤمنين علي بن ابي طالب تأليف الامام السيد محسن الامين

٥ ــ عبقرية الامام علي تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد •

٦ ــ الفتنة الكبرى تأليف الدكتور طه حسين •

٧ ــ الامام علي تأليف الاستاذ جورج جرداق •

٨ ــ نهج البلاغة تأليف الإمام امير المؤمنين •

٩ ــ الامامة والسياسة تأليف ابن قتيبة •

١٠ــ قبس من حياة امير المؤمنين تأليف الاستاذ الخطيب جواد شبر •

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

محتويات الكتاب

الفصل الثالث ١٠٧ ـ ١٤٤

الفصل الرابع ١٤٣ ـ ٢٢٢